

THE SPY & HIS MASTERS

By:

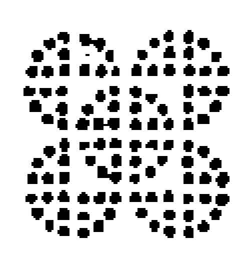
CHRISTOPHER FELIX

الجاسوس ورؤساؤه

دراسة تعليمية قصيرة فى الحرب السرية

بقلم

كريستوفر فليكس



THE SPY

AND

HIS MASTERS

By:

CHRISTOPHER FELIX

اصدار شركة سيكر وواربورج

لندن سنة ١٩٦٣

هذا الكتاب :

العمليات السرية قديمة قدم الجنس البشرى نفسه ، فلا يمكن القول اذن بأنها من اختراع الروس ولا أنهـا دلالة وسمـة من دلالات الانحطاط المعنوى للجنس البشرى ؛ والواقع أن طابع ازدياد تطبيق استخدام هذه العمليات السرية فى الخمس عشرة سنة الاخيرة لهو فى بساطة نتيجة للصورة الرئيسية التى برز فيها النزاع التاريخى فى تلك الفترة ٠

ولكن مع هذا فالواقع أن الكثيرين من الناس وبخاصة فى أمريكا لم يحذروا الكثير عن هذه الحرب السرية ولم يحذروا نصيب أمريكا فيها حتى كانت سنة ١٩٦٠ وحادثة الطـائرة ى ــ ٢ التى كان يقودها باورز وما تبع هذا من فشل محاولة غزو كوبا سنة ١٩٦١ ٠

ولكن هـذا الجهـل من جـانب بعض النـاس ومن جانب الامريكان لا يقلل من حقيقة أن هذه الحرب السرية بمختلف صورها كانت جانبا من التفكير اليومى للناس على الاقل فى أوروبا وآسيا طوال الثلاثين السنة الاخـيرة وأن ثلاثة أرباع الجنس البشرى قد عاشوا فى هذه السنوات التى تقل قليـلا عن ثلث قرن كما عاش بعضهم لقرون طويلة سابقة يفكرون كل يوم ٠٠٠ الى أين يتجهون لو اضطروا الى الفرار ؟ ٠ وماذا تكون حالهم عندما تتعرض بلادهم للاحتلال الاجنبى ٠

ولقد تعرض كريستوفر فليكس فى كتابه عن العالم فيما بعد الحرب العالمية الثانيـة وكيف صـارت الولايات المتحـدة العدو الرئيسى للاتحاد السوفييتى وللشيوعيين فى العالم كله واثر عقيدة لينين فى عكس فـكرة كلاوزيفتز التى تقول بأن « الحرب تكملة للسياسة فقط ٠٠٠ » بجعلها « السياسة تكملة للحرب فقط مع استخدام أسلحة أخرى » ، وعرض الواجبـين

←

اللذين حـددهما الروس لانفسـهم وبخاصـة واجب تجسس أغوار السياسة الغربيـة بمعرفة الى أى مدى يمكن أن يمـد الشيوعيون من كسبهم دون أن يواجهوا قوة مضادة وكانت وسيلة التجسس الاولى هى أعمال « الجاسوسية » ٠

وينتقـل الى « العمليـات السرية » منـذ بدأ فكرة الحرب الايديولوجية فى اسبارطة القديمة حتى طابع استخدام العملاء السريين فى عـدد لا حصر له من بلاد العـالم حتى « أن دولة القرن العشرين فى تطلعها الى النجوم فى كبد السماء لتدفع بانسان العصر الحجرى الى مستقبل شيزوفرانى الطبع » ٠

ويعرض العمليـات السرية فى ضـوء أنهـا من ناحيـة (**الاغراض**) التى لها تعتبر خاصة بالدول ، ولكنها من ناحية « **مادتها** » تعتبر علاقات بين الافراد ٠

ويناقش المؤلف كلمة « **سرية** » فى طابع غير طابع التصنيف الى « **سرى جدا** » الى « **سرية للغـاية** » الى « **محظور** » ، **لأن السرية** هنا هى طابع عام للعمليات، **ولكن ليست كل العمليات السرية هى عمليات للتآمر** ٠

ويوضح المؤلف الفرق بين « **مرئى ـ مكشوف** » Visible وبين « **واضح علنى** » Overt ، ثم يعرض فى ايجاز طبيعة « **علانية** » أو « **اخفاء** » أجهزة هذه العمليات والقائمين بها فى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى والمانيا الغربية وبريطانيا وفرنسا ، كما يقدم تعريفا جيدا بالاسلوب الذى تستخدمه كل من هذه الدول الكبرى فى وقت السلم وفى وقت الحرب٠

ويعرض للحرب السرية فى حالتى الهجوم والدفاع ، وقوة المعرفة السرية أى قوة الحصول على معلومات فى الوقت الذى يجهل العدو معرفتك بها ، فالمعلومات لا قيمة لها مهما كانت أهميتها اذا حذر العدو أو حتى شك فى أنها قد تسربت اليك،

فمن النادر أن لا يتوافر الوقت للتغيير والتبديل بل مما يجعل كل الجهد المضنى الذى بذل فى الحصول على المعلومات وكأنه قد « ذهب مع الريح » لا قيمة له ٠

وتحدث المؤلف فى فصلين طويلين عن « فن الغطاء » الساتر الذى يختفى وراءه الجاسوس ، ويقدم عدة أمثلة هى التى يريد أن تستنبط منها الدروس المستفادة ، ويوضح أن انغمار الجاسوس فى الساتر الذى يتخذه لنفسه قد يتحول لان يكون طبيعة ثانية فيه لا يستطيع التخلص منها عندما ينتهى الغرض منها على مثال قصة العميل البريطانى الذى كان يعيش فى طنجة أيام الحرب العالمية الثانية ، واضطر لأن ينصرف الى المخدرات والى ممارسة السلوك الجنسى الشاذ ليطمئن الالمان ورجال حكومة فيشى الى هذا التسفل من جانبه ، وقد أتقن الرجل دوره وقام بالغرض المحدد له ونجح فى عمله ولكنه عندما انتهت الحرب ظل يتردى فى الهاوية ٠

وبعض الامثلة التى قدمها قد سبق أن عرضناها فى هذه السلسلة من الكتب التى ترجمتها هذه الهيئة الى اللغة العربية مما يعيدها الى ذاكرة قارىء هذا الكتاب ويضاعف من النفع ٠

ومن القصص الطريفة المليئة بالدروس قصة القنصل الانجليزى عند الحدود المشتركة بين اليونان والبانيا ويوجوسلافيا بعمله علانية فى الصراع الذى يدور فى الخفاء بين العملاء فى تلك المنطقة أيام القتال بين الشيوعيين والمعارضين لهم ، وكيف أن الرجل ومعاونيه لم تكن لديهم حتى مجرد فكرة عن الدور الدبلوماسى الذى كانوا يستترون خلفه٠

ثم يعرض حادث كوبا سنة ١٩٦١ وعملية الطائرة ى ــ ٢ التى كان يقودها باورز ويوضح دور المخابرات الامريكية وراء العمليتين وينقد الاجراءات نقد خبير واع ٠

وينتهى المؤلف الى مناقشة مسائل الامن والجاسوسية المضادة والعمليات السرية فى صفحات من الاصلح أن لانعرض لها بالتلخيص هنا لانها فى الواقع يجب أن تدرس كاملة وأن تدرس بعناية وبخاصة الجزء الذى عرض فيه لمحاولات الاغتيال ٠

* * *

على أن أهم ما يجب أن اشير اليه هنا هو أن كريستوفر فليكس على ما يبدو من صفحات كتابه قد أوتى حظا كبيرا من الثقافة العامة فضلا عن دربة فى فن التحرير والكتابة ، فاسلوبه ـ برغم ما به من تعقد أحيانا وبرغم انصرافه الى استخدام الكثير من الكلمات المهجورة فى اللغة ـ فيه طرافه وبخاصة عند ما يتحدث عن الجانب العلمى وعن المشاعر النفسية للافراد الذين يعملون فى العمليات السرية ٠

ان الكثير من جمل كريستوفر فليكس تبدو وكأنها تجىء وحدها فى خضم السرد العام على مثال ما تبدو الواحة الظليلة وسط الصحراء المقفرة ، ويكشف هذا عن وثباته الواسعة التى فكرة الى رأى فى الموضوع ٠ ومن مبدأ الى أصل فى البحث وقد يكون هذا فى الواقع لانه يريد أن يجمع الكثير فى حيز ضيق بالرغم من أن كتابه قد قرب من الثلاثمائة صفحة ٠

ولكن هذا لا يعيب كتاب كريستوفر فليكس ولا يقلل من الاصول القيمة التى أبرزها فى دراسته ٠٠٠ فالكتاب كتاب حرى بالمطالعة جدير بالدراسة ، وان كانت هذه الدراسة مجهدة تتطلب العناية والتقصى والتمعن ٠٠ كتاب يجب أن يقرأه كل من يعنى بهذا اللون من العمليات مهما كان دوره وموقفه منها ٠٠ فى الهجوم !! أو فى الدفاع !! ٠

فيينـــــا

١٩٥٦

فى الثالثة من صباح الاحد الرابع من نوفمبر سنة ١٩٥٦ عــدت الى الفندق الذى أقيم به فى فيينا وكنت قــد نزلتــه قبــل ثلاثة أيام فقط ، ووقفت فى بهو الفنــدق لاترك رقمــا تيفونيا للاتصــال به فى الصبــاح ولاتبادل بعض أحاديث مع الموظف القائم بالخدمة ليلا ، وكنت أسمع صوت موسيقى تبعث من جهاز راديو الى جوار لوحة تحويلة التليفون ، وذهبت الى غرفتى وفى دقائق قليلة كنت أغط فى نوم عميق ٠

وفى الدقيقة الخامسة بعد الرابعة دق جرس التليفون ، وأضأت مصباح الغرفة ومددت يدى لامسك ببوق التليفون وأنا أغــالب النعــاس ، وراح عقلى يعمل بسرعة باحثا عمــا يمكن أن يكون السبب فى هــذا الاتصــال التليفونى فى مثل هذه الساعة المبكرة ، وتغلب الواقع على الاحتمال وكان السبب فى الواقع هاما ٠

وسمعت صوت الموظف الليلى وهو يقول :

ـ سيدى هنــاك اذاعة عــاجلة قادمة من المجر ، ايمرى ناجى رئيس الوزراء يتحدث فى المذياع ، وأظن أن الامر يهمك ٠٠٠ دقيقة واحدة من فضلك فسأضع التليفون فى جوار جهاز الراديو ٠

وفى سكون ليل فيينا وأنا أرقد فى فراشى سمعت صوت ايمرى‌ناجى واصوات المترجمين وهم يعــلنون فى اصــوات محزونة وان كانت مليئــة بالشجاعة والاصرار والعزم ٠٠ يعلنون أن الروس قد هاجموا بودابست فى الساعة الثانية من ذلك الصباح ، وكانت الاذاعة تسجيلا قد تم قبــل أقل من ساعة وكانت الاذاعة تتكرر باستمرار باللغات المجرية والروسيــة والفرنسية والانجليزية والالمانية ، وجمدت أطرافى ولكنى مع هــذا بقيت أنصت للاذاعة أملا أن أسمع كلمة واحدة تدلنى على أن كل هذا غير صحيح، وتكررت هذه الاذاعة باللغات الخمسة المرة بعد الاخرى وتصورت أمام عينى

قولات الدبابات الروسية وهى تتقدم فى طرقات فيينا المظلمة تطلق النيران بلا رحمة على أفاريز الطريق المليئة بالناس ، وبدتأمام عينى صورة المدينة التى أعرفها تماما والتى لا تبعد أكثر من أربع ساعات بالسيارة فى اتجاه الشرق ٠

وأعادنى صوت الموظف الليلى الى شعورى وشكرته وأعدت سماعة التليفون الى مكانها وبدأت أفكر فيما يمكن أن أقوم به ٠٠٠ ولكنى لم أصل الى رأى فقد كانت الاجابة الواضحة لكل سؤال همست به الى نفسى بأننى لا أستطيع أن أفعل شيئا ٠

وعلى ما يعرف الروس أنفسهم فانه اذا كان هناك من حثوحرض واثار هذه الثورة التى قامت فى المجر سنة ١٩٥٦ فان هذا الذى أثارها : هم الروس أنفسهم وحفنة من المجريين الذين يخدمون الاتحاد السوفييتى ؛ **ولم يكن للامريكان أى يد فيها ، وفى الاسبوعين اللذين تليا قيامها عاشت أمريكا فى حيرة نحو السياسة التى يجب أن تتبعها ، هذا فضلا عن أنها جاءت فى خضم حوادث أخرى لها أهميتها :**

• كان الرئيس الامريكى يخوض المعركة لاعادة انتخابه ٠

• وكان وزير الخارجية الذى يضع السياسة الخارجية فى قبعته قد وضع هذه البقعة على المشجب (الشماعة)وقتيا لدخوله المستشفى لاجراء جراحة خطيرة عاجلة ٠

• وكانت وزارة الخارجية نسير بتوجيه مهندس بترول من الطراز الاول ٠

على أنه قد يمكن أن يقال أيضا بأن الروس أنفسهم كانوا فى حيرة ، وان هذه الحيرة سببت ترددهم ، وهكذا فان الانباء الليلية قد جاءت لتؤكد أن الروس قد انتهوا الى رأى وانهم قد انتهوا أخيرا الى تقدير صحيح لرد الفعل الامريكى وهكذا وجدوا السياسة الصالحة بأن يحلوا المشكلة باستخدام مدافع الجيش الاحمر ٠

وكان الغرض من وجودى فى فيينا بسيطا ، والعمليات السياسية التى كنت أشترك فيها يوم ذاك كانت تعنى المجريين خارج المجر ، وكانت واجباتى الرئيسية هى رعاية هذه الالاف من اللاجئين المجريين الذين يعبرون حدود النمسا ، وهكذا فان دورى فى الحوادث التى تجرى فى المجر هو مجرد دور المراقب ، واذا أمكن اجراء اتصال بالنظام الثورى الجديد فى المجر فان على الابقاء على هذا الاتصال مع طلب تعليمات جديدة تتفق مع الموقف ، والواقع أننى قبل ثمانية أيام كنت قد اتصلت بمنفى مجرى كان يشغل مركزا كبيرا وهو سياسى من السياسيين الذين برزوا بعد الحرب العالمية الثانية وقد شغل مركز الوزير فى وقت ما ، وقد أخبرنى أنه اتصل تليفونيا ببودابست وتحدث الى أحد أعضاء وزارة أيمرى ناجى وأن هذا الوزير قال له : « تحدث باسمنا فى الغرب ، اجعل هؤلاء الناس يفهمون موقفنا الحيادى » .

ولقد عاونت هذا الرجل للسفر الى فيينا لا بنية أن أجعله يعود ثانية الى المجر وانما لكى يكون على مقربة من زملائه هناك الذين يشغلون مراكز فى الحكومة المجرية فى الوقت الحالى (١٩٥٦) .

وكنت فور وصولى الى فيينا قد بعثت برسالة من هذا الوزير السابق الى أحد كبار الرجال من غير الماركسيين والذى يشغل مركزا قياديا فى الوزارة الجديدة .

ولم يكن هناك ما أستطيع أن أفعله ... ولا ما أريد أن أفعله بالنسبة لهذه المراسلات ، وقد اتصلت تليفونيا بأحد المراكز القريبة من الحدود وعرفت بان سيل اللاجئين لازال مستمرا وان أصوات المدافع تسمع من الجانب الاخر من مدفعية جيور Gyor أقرب المدن الكبيرة للحدود .

وشعرت بالغضب يجتاحنى ، وبدا لى وكأنه الحمى تكتسح كل شىء حتى فى عقلى ، ولن أسب الروس كنت أشعر بأننى أعرفهم تماما ، ولم أكن أستطيع أن ألوم حكومة أمريكا ، وبدلا منهذا أتجه غضبى الىالانجليز والفرنسيين والى مغامرتهم فى السويس فقد أعطوا الفرصة للروس للقيام بعملهم فى المجر .

واقسمت فى غمرة غضبى أن لا أطأ بقدمى قط أرض بريطانيا وفرنسا واقسمت أن أوقف نفسى للكشف عن اجرامهم الذى سبب تضحية المجر من أجل السويس ·

ولكن فى الواقع أن شيئا من هذا لم يكن له صلة بمجرى الحوادث ، فان عمليات الانجليز والفرنسيين فى السويس قد اعدت قبل ثورة المجر التى جاءت مفاجـأة للانجليز والفرنسيـين كما كانت بالنسبـة للروس والامريكان ·

وقد أدركت هذه الحقيقة عندما عدت الى نفسى بعد أن استطعت النوم لعدة ساعات ·

تذكرت الحاضر ··· وتذكرت الماضى ··· ولكن هذا وذاك انما يصلح مقدمة لهذه الدراسة القصيرة للحرب السرية ·

الجاسوس ورؤساؤه

القسم الأول

الأسس وصور العمل

١
الحرب السرية

فى نهاية الحرب العالمية الثانية أحس الرأى العـام الامريكى بعـامة أن القتال قد انتهى وأن الحرب قد خلفت بعض المشكلات ما فى هذا من شـك ولكن هذه المشكلات ليست بأكثر من مسائل قضائية ومباحثات سياسية ، ولكن لم يعد هناك من شيىء للتنازع عليه ، ولقد احتجزت جمـاعات من الامهات فى سنة ١٩٤٦ القائد العام لقوات الحلفاء فى أوروبا والذى تولى فيما بعد رياسة الجمهورية ، احتجزنه فى ردهات الكابيتول وحلن بينه وبين دخول قاعة الجلسة وهن يتصايحن من حوله « أعيـدوا أبنـاءنا الى أرض الوطن » ٠

وفى نفس الوقت نشرت احدى المجلات الزائعة الانتشار مقالا ضافيا بعنوان : « القرن الامريكى » ، كان الشعور العـام شعور الذين قـد حلوا المشكلة : مشكلة القوة ، ولكن الحرب السرية كانت فى الواقع قد بدأت ٠

وكانت مظاهر القوة حقيقية واقعة حتى ولو كان الشعور متعارضـا بشأنها ٠٠ وحتى لو كان يوصف من بعض نواحيه بالتهور ، ولكن القوة لها « نواحيها العضوية » لها مظاهرها المادية فى الشئون البشرية ، والقوة كما أن فيها قوة جذب ففيها قوة صد ومنع ، وهى فى كلتى الحالتين تثـير شعورا لا وعيا بالخوف ، ولا يمكن تفتيت هذا التأثير عن طريق الاحتجاج أو القسم بالنوايا الطيبة ولا حتى بالعمل الطيب وانما يمكن تفتيته حقـا بالتغيير النسبى فى توازن القوة ٠

ولم يكن النجاح الامريكى الكبير بعد الحرب باعادة بناء أوروبا نجاحا واقعيا فى بساطة وذلك بسبب أن أمريكا فى الحقيقـة لم تبرز اعتزامهـا استخدام قوتها لانتهاك استقلال الامم الاوروبية ، كان النجاح نجاحا جزئيا ذلك لان أمريكا قد استعادت لاوروبا الغربية جانبا من القوة السياسيـة والاقتصادية والعسكرية التى كانت أصلا كلها لها هى فى سنة ١٩٤٦ ، لقد خافت دول غرب أوروبا قوة الولايات المتحدة يوم ذاك ولكن لاسبـاب

تاريخية وايديولوجية وسياسية خافت قوة الروسيا بدرجة أكبر ، وهكذا فانها انجذبت ـ فى ميدان التوازن والتثاقل ـ نحو القوة الامريكية ٠

ولهذه الاسباب نفسها صد الروس واحتجزوا بوساطة قوة أمريكا ، وكان من الواضح للروس فى ضوء أيديولوجيتهم الخاصة أنه بتحطيم قوة المانيا وقوة اليابان تحد صارت الولايات المتحدة العدو الرئيسى للاتحاد السوفييتى وحلفائه من الشيوعيين فى كل العالم ، ولا يحتاج الامر لدقيقة واحدة ليستطيع رجل درب على أساس المنطق الغربى أن يميز بين العدو الفعلى وبين العدو المحتمل ، بين العدو المعروف الواضح وبين العدو الذى قد يجىء ولكنه لم يستكمل كيانه بعد ، وما يقال له عقيدة التبعات الكاملة يعتبر ركنا أساسيا فى المنطق الشيوعى ، وفى ضوء هذه العقيدة ليس الامر بمجرد حق شرعى ٠٠٠ بل أنه أمر ضرورى واجب ٠٠ ذلك هو ضرورة النظر الى الشخص (أو الى الامة) فى الحاضر كما هو من الممكن أن يكون فى المستقبل عدوا نشطا ٠

وهذا اللون من التفكير لا يرجع الى ماركس بقدر ما يرجع الى العقيدة العسكرية المحترفة ٠٠ ، لقد كانت عبقرية لينين بالرغم من انها من وجهة نظر الحضارة الغربية تعتبر عبقرية رجوعية Regressive كانت عبقرية لينين هى التى مكنته من أن يعكس وضع جملة كلاوزيفتز المشهورة ويجعلها: « الحرب تكملة للسياسة فقط مع استخدام أسلحة أخرى » كما استطاع أن يطبق فى السياسة القومية والخارجية كل عقائد الحرب ٠

ولقد كان لينين يدرك تماما أن هذا انما هو خطوة الى الوراء وعود بالحضارة للتخلف ولكنه رأى عدالة هذا فى حرب الطبقات ، وكان يعرف ـ من الناحية النظرية ـ أن معاملة عدو محتمل على أنه عدو حقيقى فعلى ليجعله فعلا عدوا نشطا ايجابيا بدلا من الابقاء على سلبيته ، ولكنه كان لا يبصر العلاقة الكاملة بين « السبب » و « التأثير » فى التطبيق العملى لاراء ماركس وان ما لاقاه من الارهاب الروسى والارهاب الغربى جعله ينظر الى أنه يعيش وقد أحاط به عالم معاد لا يمكن فيه الا استخدام عقيدة الحرب ٠

وهكذا فانه عندما بدت هزيمة المحور محققة ، تقبل الزعماء السوفييت بلا أسف على التحقيق كما يستطيع الفرد أن يقول آليا تبعا لتحليلهم للتاريخ ـ وجهة النظر بان قوة الولايات المتحدة وحليفاتها بل وقوة

الولايات المتحدة بخاصة هى العدو بالنسبة لهم ، وهذا « الاتجاه الجديد » لم يكن مخفيا ولا غامضا ، كما أنه لم يكن جديرا بالقدر الذى يمكن أن يظنه الفرد ٠

ففى يونيو سنة ١٩٤٥ بعد أن تم كسب معركة الحرب فى أوروبا ، وعلى حين كانت الاستعدادات تسير للقيام بعمليات مشتركة بين الحلفاء والسوفييت ضد اليابان اضطررت كعميل للمخابرات الامريكية أن أبلغ واشنطون أن مهيجى الحزب الشيوعى السوفييتى الموجودين فى المصانع السوفييتية قد بدأ ينهجون اتجاها جديدا لاقناع العمال بأن الولايات المتحدة هى العدو الاساسى للاتحاد السوفييتى ٠

على أنه فى ذلك الوقت لتجنب أى تحول سريع فى النظر الى التحالف الذى أوجدته الحرب لم تنشر هذه الدعوة بقوة فى الاتحاد السوفييتى وأن كانت هى حقيقة لا يمكن نكرانها ، وكانت العقبة أنه مع موت روزفلت صديق الاتحاد السوفييتى والعضد الرئيسى له وجد الرأسماليون الامريكان آلة طيعة فى ترومان . ومن ثم وضح التعبير عن الخوف على مستقبل السياسة الامريكية تجاه الاتحاد السوفييتى ، وبذلك كان من الممكن أن يوضح للجماهير السوفييتية أى اضطراب فى العلاقات على أنه دليل العداء الامريكى المتوقع ، وأن تعتبر زعامة الحزب توقف مشروع الاعارة والتأجير على أنه تأكيد لصدق نظريتهم وصواب سياستهم ٠

وبالاضافة الى هذا التقدير لامريكا كعدو ، فان ستالين كان يخطط فى عقله مشروعه الخاص بالاتساع السوفييتى والاتساع الشيوعى ، وكان من الممكن أن يتنبأ بأنه فى هذا الميدان ستقف الولايات المتحدة موقفا عدائيا ضد هذا الاتساع الشيوعى فى نقطة ما ، ولكن الشىء الذى لم يكن يعرفه هو أين يمكن أن تكون هذه النقطة ٠

ومن أجل هذا حدد الروس لانفسهم واجبين :

الاول : أن يتحسس (الروس) أغوار السياسة الغربية ليروا الى أى مدى يمكن أن يمد الشيوعيون من كسبهم دون أن يواجهوا قوة مضادة أكبر ٠

الثانى : العمل على (كشط) اضعاف القوة الغربية وبخاصة القوة الامريكية ٠

ولم تكن القوة الامريكية تبدو فى أعينهم عظيمة جدا ومهددة فحسب بل أنهم كانوا ينظرون الى أن اضعافها سيفسح لهم « المسافة » و « الوقت » لتكسب الشيوعية العالم كله ... الامر الذى تقول لهم أيديولوجيتهم بأنه لا معدى عنه مهما تعطل تنفيذه .

وقد استمرت عملية « التجسس » ، وقد استخدمت علانية فى المؤتمرات الدبلوماسية وفى اجتماعات القمة ، وفى المنازعات مثل الحرب الكورية ، وفى الازمات مثل أزمة برلين وأزمة كوبا ، كان هذا التجسس هو المواجهة العلنية للقوة .

على أن الواجب الرئيسى الثانى - من وجهة النظر السوفييتية - واجب اجهاد القوة الامريكية فانه قد سلك سبيله فى طريقين ، الاول طريق علنى مكشوف، هو فى بساطة سرعة زيادة قوتهم الى غاية ما تستطيع امكانياتهم، فقد وجهوا أقل القليل من الجهد نحو ما يحتاجه السكان من منتجات استهلاكية ولقد أصروا على نمو الاقتصاد وعلى الاستثمار فى الصناعات الثقيلة ، وكانت كل زيادة فى قوتهم انما تعنى فى نفس الوقت انخفاض نسبى فى القوة الامريكية ، ويمكن أن يكون نفس الشىء صحيحا بالنسبة لمنشئاتهم العسكرية . فان التوقيت والدعاية لما يحققونه من انتصارات فى ميدان غزو الفضاء ايعنى فى بساطة اقناع العالم بزيادة قوتهم وهى زيادة نسبية أيضا تجاه الولايات المتحدة ، وكل هذا فى الواقع كان مستطاعا فى حدود حال اقتصادهم . وطبقت الوسيلة الثانية لتقليل واضعاف القوة الامريكية خارج الدولة السوفييتية ، كان غرضها الرئيسى تقليل قوة أمريكا فى باقى العالم ، والهدف الثانوى هو احلال القوة السوفييتية مكان القوة الامريكية كلما أمكن هذا .

وسبل هذه الوسيلة كثيرة :

أعمال الجاسوسية - لتقليل الافضلية التى للتكنولوجية الغربية - ، الحرب السياسية والحرب السيكلوجية - حملات السلام ، الصراع من أجل السيطرة على حركة العمال الدولية ، والسيطرة على الدول الحديثة العهد بالاستقلال ، اثارة النزاع والحرب الاهلية فى مناطق تستند الى قوة أمريكا مثل لاوس وفيتنام الجنوبية .

ولكل هذه السبل طابع مشترك واحد ، هى أنها عمليات سرية ذلك لان الروس يتجنبون دائما تواجه القوى ، أنها نزاع وصدام وراء سجف

وسواتر ، ولكن هذه السجف هى فى الواقع معرفة كلا الجانبين المتضادين بأنه من غير المرغوب فيه مواجهة الحرب علانية ، ويشتمل هذا النزاع على عمليات سرية يقوم بها الاتحاد السوفييتي وحلفاؤه ومناضلوه ، وتقوم بها الولايات المتحدة وحلفاؤها ومناضلوها ، وقد أطلق ونستون تشرشل على هذه العمليات السرية اسم « الحرب الباردة » !!

على أن هذا الاصطلاح الذى أطلقه تشرشل قد أخذ على أنه وصف لحالة عقل ، اتجاه للامم تجاه بعضها بعضا ، على أنه من الواضح أنها أكثر من ذلك فهذه المناورات السرية والمنازعات التى هى المحتويات الحقيقية والبارزة للحرب السرية نتاج فن غامض أسود ، انها معقدة مركبة ولكنها كذلك قديمة ... أنها عالمية ثم هى جزء من السلوك البشرى .

عرفت أثينا مالاحصر له من المتاعب من الجماعات الاسبرطية والفارسية المتآمرة ضدها ان لم نذكر الايديولوجية التى كانت تدعو لاسبارطة فى أثينا نفسها ، وكان مدير مخابرات مترينخ يلصق الاوراق التى تملأ سلال المهملات التى تجيئه من السفارات الاجنبية أمام مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ ويقرأ محتوياتها ، وكانت الثورة الامريكية ـ من وجهة النظر الفرنسية ـ عملية سرية ضد بريطانيا ، وهكذا تسير الحال فى أيامنا هذه فالعملاء السوفييت يعتقلون فى بلاد الغرب والعملاء الغربيون يكشف عنهم الستار فى الامبراطورية الشيوعية ، تحركات وتحركات مضادة فى ألمانيا ، فى ايران فى جواتيمالا ، فى فيتنام ، فى لاوس ، فى كوبا وفى عدد آخر لا حصر له من البلاد لم يذكر ، ان دولة القرن العشرين فى تطلعها الى النجوم فى كبد السماء تدفع انسان العصر النيوليثى (القسم الاخير من العصر الحجرى) الى مستقبل « شيزوفرانى » الطابع .

ان اغراض العمليات السرية انما هى أغراض خاصة بالدول ولكن مادتها فى الواقع علاقات بين الناس ، بين الافراد ، وهذه الحقيقة الاساسية مبهمة فى الواقع بسبب الطابع السرى الذى لهذه العمليات ، وهى مبهمة أيضا بسبب لغة المصطلحات التى يستخدمها المحترفون والتى يساء استعمالها فى المستوى الشعبى العام مما يسبب ارباك الرجل العادى ، وعلى سبيل المثال لقد استخدمت هنا فى طلاقة اصطلاح «العمليات السرية» وليس هذا بسبب انها أصلح للفهم بعامة فحسب بل لانها أيضا اصطلاح يمكن أن يحتوى عدة صور مختلفة من السرية وتغطى عددا كبيرا من الشرور والخطايا ، وهذه الصور « السرية » التى تتشكل منها العمليات السرية

لا علاقة لها بالتصنيف الذى تضعه ادارات الحكومة لمكاتباتها وأوراقها من : « سرى » و « سرى جدا » و « سرى للغاية » و « محظور » وما الى هذا من الفاظ لتوضيح درجة السرية ومدى تحديد من لهم حق الاطلاع عليها ، والسرية عامل أساسى فى العمليات السرية ، ولكى نوضح هذا الامر يمكن أن نقول بأن شيئا علنيا **يمكن فى وقات ما أو لسبب ما اعتباره سرا** ولكن أى عمل مغطى أى عمل للتآمر **يجب أن يكون سرا** ، فأعمال التآمر يجب أن تكون سرية وليس كل شىء سرى يجب أن يكون عملا من أعمال التآمر .

ولا تعنى كلمة « واضح » – « علنى » Overt فى العمليات السرية أن هذا الذى توصف به يكون مكشوفا مرئيا Visible ، والاهم من هذا أن الكلمة تحدد أن « الشخص » أو « العمل » الذى يوصف بهذه الكلمة هو فى الواقع على حقيقته يتماثل مع ما يقال عنه ، وليس معنى هذا أن « السرية » قد اغفلت هنا أو غابت عن التقدير والاعتبار ، **فاسطول الولايات المتحدة هو فى الحقيقة كما تقول الولايات المتحدة عنه : السلاح البحرى لتشكيلها العسكرى المقاتل ، ولكن خطط هذا الاسطول وتحركات الكثير من سفن هذا الاسطول حتى فى وقت السلم ... وكذلك عشرات المسائل الخاصة بتسليح وعمليات هذا الاسطول تعتبر سرية ، أى أن المعلومات عنها تعدد على درجات مختلفة ، ووكالات المخابرات العامة الامريكية والتى هى السلاح الرئيسى فى الحرب السرية وصلتهم بها واضحة معلنة ، ولكن كل نشاطها فى الواقع يعتبر نشاطا سريا ، وتتولى وكالة المخابرات العامة اعداد تقديرات المخابرات القومية لمجلس الامن القومى ، والاشخاص الذين يقومون باعداد هذه التقديرات هم من موظفى الوكالة الواضحين المعروفين ولكن مع هذا فالتقديرات نفسها سرية لا يطلع عليها الا أولئك الذين تخولهم وظائفهم هذا الحق ، ومدير المخابرات ونائباه من الموظفين الرسميين القليلين المعروفين ومع هذا فانهم يحتملون مسئولية العمليات السرية الامريكية .**

ولكن مدير المخابرات البريطانية موظف غير معلن وغير معروف ولا يعرفه الا أولئك الذين يجب أن يعرفوه ، والجنرال جهلين مدير الخدمة السرية الالمانية (المخابرات فى ألمانيا الغربية) معروف فقط لحفنة من الرجال ذوى المناصب الكبيرة فى الدولة وبعضهم من رجال ادارة المخابرات الالمانية نفسها ، ولكن القليلين جدا هم الذين يعرفونه اذا قابلوه فى الطريق العام أو فى أى مكان ويقال انه لاتوجد له الا صورة قديمة جدا ، ولكن ليس معنى هذا أن التنظيم الانجليزى أو الالمانى أصلح من التنظيم الامريكى فقد ثبت

منذ بعيد أن التنظيم الانجليزى لا يصلح لطابع الحكومة الامريكية ولا لطابع الحياة الامريكية العامة ، ثم ان هذه الفكرة الالمانية الخاصة بسرية مدير مخابراتها انما نشأت من هزيمة ألمانيا ومن شخصية الجنرال جهلين ورغبته فى ازالة كل أثر لكيانه هو نفسه ، فالرغبة فى البقاء طى الكتمان وممارسة سلطة كبيرة دون الوضوح أمام أعين النـاس لا تتمشى مع نظم الحياة الامريكية .

ومن الطريف أن الترتيبات الروسيه برغم اختلافها مع كثير من الاوجه الهامة فانها تماثل النظام الامريكى فى أن لجنة أمن الدولة منظمة علنية معروفة وشخصية رئيسها شخصية واضحة معروفة للجميع .

على أن الفرنسيين يعالجون الامر بصورة أقرب الى النظام الانجليزى ، فهم يعترفون - على نقيض الانجليز - بوجود منظمة لمكافحة الجاسوسية Service de Documentation et Contre Espionage ملحقة بمكتب رئيس الوزراء ولكنهم لا يعلنون اسم رئيسها ، وهكذا ندرك من هذه الترتيبات المختلفة أن الجمع بين السرية والعلنية ليعكس الظروف المختلفة للدول ، ولكن لاشك أن الجزء المعلن أقل بكثير من الجزء المخفى السرى ، وهذا يماثل جبل الجليد الذى يسير فى مياه المحيط فان الجزء الاكبر من الكتلة الجليدية هو الجزء المختفى تحت سطح الماء .

ولكن الاكثر أهمية بالنسبة للعمليات السرية هو فى الواقع مشكلة تحديد ما قد يمكن أن يكون « **علانيا** » وما يجب أن يكون « **سريا** » **وهذه التفرقة** فى التحديد هى التى توضح الفرق بين « **العمل المستتر المكتوم** » Covert **وبين « العمل الخفى السرى الغادر »** Clandestine وان كان كلاهما سريا فقط بأسلوبين مختلفين .

فلنفترض مثلا أن الولايات المتحدة تواجه مشكلة ارسال عميل خبير فى المواصلات اللاسلكية للانضمام على قوات العصابات المضادة لكاسترو والتى تعمل فى المناطق الجبلية فى شرق كوبا (لاحظ أن هذا المثل يمكن أن ينطبق تماما على أن يرسل الاتحاد السوفييتى عميلا مماثلا الى ايران أو يرسل الانجليز عميلا لهم الى العراق أو أن ترسل الصين الشيوعية عميلا لها الى الملايو وهكذا بالنسبة لباقى دول العالم) ، فاذا ما أرسل هذا العميل فى غواصة من غواصات اسطول الولايات المتحدة وصعدت هذه الغواصة فى الظلمة الحالكة الى سطح الماء عند نقطة مقفرة من الساحل

وانتقل العميل من الغواصة الى الساحل فى قارب صغير من المطاط حيث كان ينتظره تبعا لترتيب سابق بعض رجال العصابات الذين أسرعوا به الى الملجأ الآمن فى الجبال ، اذا حدث هذا فى هذا الترتيب كانت هذه عمليـة Clandestine أى أن السرية هنا تعتمد على المهارة فى استخدام الظروف والحوادث الطبيعية لاخفاء العملية وسترها ، وهى سرية فقط لانها تتم خفية ٠

ومن الواضح أن هناك عنصر قوى للصدفة فى أى عملية خفية ، فان دورية أو طوف قد يمر بالساحل فى تلك اللحظة أو قد يتواجد فى المنطقة قارب صغير غير متوقع ، عشرات مثل هذه الحوادث الصغيرة المحتملـة غير المتوقعة قد تسبب فشل سرية العملية وبالتالى القضاء عليها وعلى المشتركين فيها ٠

ولكن العمل المستتر المكتوم Covert يحاول دائما أن يقلل من عامل الصدفة فلو أن هذا العميل الاخصائى فى المواصـلات اللاسلـكية ظهر فى صورة عالم أجنبى فى الزراعة وزود باوراق مزورة ودخل كوبا بتصريح من حكومة كوبا ، وفى أثناء تجواله فى الولاية الشرقيـة اختفى ذات يوم فى الجبال وضاعت كل اثاره كانت هذه العملية فى جملتها **عملا مستترا مكتوما** Covert Operation ، والمهارة هنا عنصر هام فى سرية مثل هـذه العملية ، ولكن العامل الاكثر أهمية هنـا هو الصورة المميزة « **استخـدام الساتر** » أى « **الغطاء** » الذى يختفى وراءه العميـل فى صورة **عـالم زراعى أجنبى** ٠

والعمل الخفى المكتوم هو فى الواقع عملية ظاهرة مرئية لا يبـذل أى جهد لاخفائها عن النظر ولكن الجهد الرئيسى يبذل فقط فى تمويهها ، جعلها فى صورة غير صورتها الحقيقية ٠

وهكذا نستطيع أن نقول فى ايجاز بأن **العمليـة المسـتترة المـكتومة** Covert **مموهة وليست مخفيـة** على حين أن العمليـة **الخفيـة الغـادرة** Clandestine **مخفية ولكنها غير مموهة** ٠

والعمليات المستترة المكتومة Covert تشكل الجزء الاكبر من الحرب السرية و « **الغطاء** » الساتر ــ الذى سنعرض له بالحديث فى صفحات قادمة ــ هو العنصر الوحيد الفنى الاكثر أهمية ٠

ومن الواضح أنه لا يمكن القول بأن أيا من نوعى العمليات سهل ميسور ولكن من المؤكد أن « العليات الخفية » أقل صعوبة وتعقدا من العمليات « المستترة المكتومة » وعلى ذات الاسلوب يمكن أيضا أن نقول بأن « العمليات الخفية » هى من جانب آخر أكثر مغامرة وتعرضا للخطر ، على أن الشيء الذى يجب أن نعرفه هو أن عمليات الحرب السرية هى فى الواقع مركب من النوعين ، تجمع بين العمليات الخفية والعمليات المستترة فى صعيد واحد ... ؛ واذا تتبعنا المثل الذى قدمناه قبل سطور عن العميل الامريكى الاخصائى فى المواصلات اللاسلكية المراد ارساله الى كوبا ... لو تعقبنا هذا المثل لخطوات أخرى لوجدنا أننا يمكن أن نفترض بأن هذا العميل قد وصل الى الساحل سالما وأنه التقى بالجماعة المعدة لاستقباله ... اذ ذاك تبدأ مشكلة العمل لوصوله سالما الى الجبال . ان السفر ليلا قد يثير الشكوك وقد يسبب التعرض لاحدى الدوريات ثم تبدأ مرحلة بحث وتحقيق ، لهذا فان الجماعة ستفضل الانتظار فى جوار الساحل حتى يبدو ضوء النهار لتبدأ تحركها ، وهى عندما تبدأ التحرك سيكون العميل قد تدثر فى ثياب تجعله يبدو وكأحد قروييى كوبا ، وهكذا يتنقلون من قرية الى أخرى والى هذا الحد تكون العملية عملية مستترة حتى وان لم تكن كاملة من هذه الناحية ، ولكن من جهة أخرى لو كان هذا العميل قد جاء فى ثياب عالم فى الزراعة فانه يظل مستندا الى هذا الغطاء حتى لحظة انضمامه للعصابات فى الجبال ، ولو قبض عليه فى أى لحظة سابقة لهذا حتى ولو كان أثناء محاولة الاتصال بأفراد العصابات فانه لا زال يستطيع القول بأنه انما يدرس التربة والارض والنباتات ، ولكن فى اللحظة التى ينضم فيها لرجال العصابات ويسهم بنصيب فى نشاطهم فانه يتحول الى جزء من عملية خفية مثله مثل رجال العصابات أنفسهم .

والواقع أنه على حين أن العمليات المستترة المكتومة أفضل فى نظر الكثيرين تبعا لانها أقل تعرضا للاكتشاف ففى كل العمليات المستترة لحظات قد تطول وقد تقصر وفى هذه اللحظات لا يكون الغطاء متمشيا تمشيا منطقيا مع الواقع وبذلك تكون العملية عملية خفية .

والشيء الهام هو دقة تقدير هذه اللحظات بوضوح تام وجعلها أقل ما يمكن ذلك لانها فى الواقع من الخطورة بمكان ذلك لان هذه هى اللحظات التى يبحث عنها العدو .

ويستخدم كلا اللونين من العمليات السرية فى وقت الحرب وفى وقت السلم على السواء ولكن العمليات الخفية تكثر أثناء الحرب على حين تكثر العمليات المستترة أيام السلم والسبب فى هذا أن تبعات ومعقبات الكشف عن عميل أعظم وأخطر فى أيام السلم عنها فى وقت الحرب ، وان كان الامر من وجهة النظر الشخصية للعميل وحده متماثلا لان النتيجة واحدة هى السجن أو الاعدام تبعا للظروف الخاصة بالعملية ، ولكن العمليات السرية مسائل تخص الدولة ، وتبعات الدولة من ناحية الكشف عن عميل سرى لها تختلف عنها بالنسبة للعميل نفسه ، فعندما كانت الطائرات الانجليزية تلقى على فرنسا وبولندة العملاء بوساطة المظلات كان كشف الالمان لاحد هؤلاء لا يؤثر على العلاقات بين ألمانيا وبريطانيا ، ولكن العملية الخفية تعتبر عملا عدائيا فى وقت السلم ومن ثم فانها تربط بدرجة ما قليلة أو كثيرة العلاقات بين الدول ، فلقد رفض السوفييت أى تعامل مع الحكومة الامريكية بعد حادث الطائرة ى ــ ٢ وهى مسألة كان لها خطرها بالنسبة للعالم كله .

وهكذا فان الدول تميل فى الوقت السلم الى العمليات المستترة المكتومة على أساس ما فيها من أمن وسلامة وان كان هذا الامن ليس فقط فى تقليلها لمغامرة الكشف عنها ولا لتقليلها من مدى انغمار الدولة فى تبعاتها بل لان هناك ما يشبه الاتفاق المتعارف عليه بين الدول نتيجة لتجارب تاريخية طويلة من أن هذه العمليات المستترة تعتبر وسيلة العمل فى وقت السلم بالدرجة التى لا تسبب انقلاب (عربات التفاح الدولية) وهو اصطلاح يعنى عدم تأثر العلاقات بين الدول ، ذلك لان صلات الدول بهذه العمليات المستترة لا تبدو واضحة ولان الدول يمكن أن تتنكر لها .

وهذه الاسباب التى تجعل الدول تفضل القيام بالاعمال المستترة المكتومة فى الواقع تقوى من هذا الاتفاق المتعارف عليه ، والاسباب كثيرة مختلفة مثل :

١ ــ أن الامن القومى يتطلبها ــ على مثال ما فى أعمال الجاسوسية ــ ومن ثم فمن الضرورى أن تتم العمليات فى تستر .

٢ ــ الرغبة فى الوصول الى نتيجة ذلك لانه فى العمليات السياسية مثلا لا يمكن تحقيق أى نجاح لو وضح أن النشاط (يرجع) أو أنه (**بتعضيد من**) حكومة أجنبية .

٣ ــ أن هذا العمل ضرورى على مثال الحال عند القيام بعمليات لها طابع عسكرى وهذا لا يكون من المستطاع القيام به علانية مع وجود علاقات رسمية صديقة ٠

٤ ــ عدم الرغبة فى الزج بقوى قد تسبب فشل المهمة أو تعدل من التوازن السياسى الدولى ٠

ولقد تعارفت الدول منذ بعيد على هذه الاسباب تعارفا تقليديا على أساس أن العمليات المستترة المكتومة التى تنشأ عنها قد قبلت على أساس أنها تمد كل دولة بالمرونة التى تحتاج الوقاية نفسها ، والنتيجة ــ من وجهة النظر القومية ، على الاقل بين الدول المتساوية القوة نسبيا ــ قيام نوع من الترتيبات المتبادلة ، على أننا عندما ننظر الى الامر من وجهة نظر أكبر فاننا نرى لهذه الترتيبات أساساصلبا نافعا فهى تسمح بتعقب السياسيات التقدمية الانسانية فى الطابع العلنى المكشوف على حين أنه فى نفس الوقت فى الميدان المخفى المستتر يبقى الاحتفاظ بسلامة القومية والمصلحة القومية متماسكة الى أن يتم الوصول الى سياسات مثالية علنية تجىء بنتائج دولية صلبة لها ماديتها ، وفى ضوء هذا يرى السوفييت التعارض بين تعضيدنا للامم المتحدة وبين تعضيدنا للغزو الكوبى فى سنة ١٩٦١ ، والضجة الخشنة التى آثارها خروشوف فى وقت الغزو الكوبى **لم تكن موجهة** بسبب تعضيدنا للعملية بقدر ما هى فى الحقيقة بسبب أنها كانت عملية سرية غادرة Clandestine ولم تكن عملية خفية مكتومة Covert ٠

وقد يمكن أن يلاحظ بأن هذا التفاهم السياسى بين الدول له تأثير انتفاعى واســع المدى فى وقت الحرب ، فى الوقت الذى يكون فيــه من الضرورى أن تكون السياسة العلنية المكشوفة عنيفة وغير مرنة ، فان العمليات الخفية تكون الطريق الصالح للاتصالات الاكثر واقعية والاقل نفقات ، وهكذا فان العمليات الامريكية الخفية التى أديرت من سويسرة أيام الحرب العالمية الثانية قد نجحت فى تحقيق استسلام القوات الالمانية التى كانت فى ايطاليــا برغم معــارضة هذا لاوامر هتلر العاجلة فى آخر مرحلة من مراحل الحرب ،وقد مكن هذا من انقاذ العديد من الارواح والكثير من المتلكات ٠

وقد تم الوصول الى هذا الاتفاق (المستنتج ضمنا) Tacit ، ثم الوصول اليه بين الدول بأن تبقى الواحدة منها الاخرى بعيدة كثيرا أو قليلا

عن (الخطاف) الذى يلقى ٠٠ أى تبعدها عن اتهامها بأنها وراء التدابير المضادة نتيجة لتجارب لآلاف السنين ، وكان هذا فى الواقع ناتجا عن اتباع دقيق لتقليد آخر ، فعلى حين أن العملية « الخفية الغادرة » تعتبر عملية عدائية فان « العملية المستورة المكتومة » مع أن طابعها عدائى الا أن الدولة الضحية تتجاهلها بعد أن تكشف الغطاء عنها بمعاونة الرجل الذى يقوم بالتنفيذ ، وهنا الاصل فى تقبل بل وحتى تقديس عادة الصمت ٠٠٠ أو فى الغالبية تنصل الحكومة المسئولة عندما يتم الكشف عن عملية « مستورة » ٠

وهذا هو أحد التفسيرات ـ وان كان من الممكن أن تتوافر تفسيرات أخرى ـ لثورة خروشوف العارمة عندما راح يقول علانية ـ حتى مع وجود الطيار الثرثار باورز فى يده ـ أنه على يقين من أن الرئيس أيزنهاور ليس بالمسئول شخصيا عن هذا العمل ٠

ولم يكن خروشوف ـ وهى من محترفى الحرب السرية والعمليات المستورة ـ يدفع التهمة عن أيزنهاور وانما كان يريد أن يجعل الرئيس أيزنهاور يخرج من صمته ليعترف بالمسئولية ٠

والفكرة فى هذا أن للاعتراف بالمسئولية معناه المميز ، فالمعترف بالمسئولية لا يعتبر متجاهلا العرف القائم فحسب بل ومتجاهلا الاسس التى يقوم عليها هذا العرف الا وهو أساس الابقاء على التوازن الدولى السياسى ، ومن ثم فان المجاهر بمسئولية العمل المستور المكتوم يضع نفسه فى وضع يبرز فيه عدم مبالاته (طابع اللامبالاه) بالتوازن السياسى الدولى ، بل قد يؤخذ اعترافه على أنه يعتزم ـ بكل وسيلة ممكنة مستطاعة ـ تغيير هذا التوازن السياسى الدولى ٠

وللاعتراف أيضا معناه الدولى ، اذ أنه يجعل من الضرورى اصدار بيان عام ، فاستخدام الطائرات فى العمليات الامريكية ضد حكومة ارنبز فى جواتيمالا كنا بلا شك واحدا من حوادث التاريخ المستعرة بالنيران ، ولقد كشف بوضوح أن الولايات المتحدة تعضد كما تشترك فى العملية ، وأفهم مما لدى من معلومات أن عددا كبيرا من موظفى ادارة المخابرات العامة المركزية قد عارضوا بقوة فى استخدام الطائرات الى حد أنهم قد أعدوا استقالاتهم ، ولكن جدلهم لم يلبث أن ضاع لان مجلس الوزراء قد

رفض كل هذه الاعتراضات على أساس الرغبةفى أن توضح الولايات المتحدة للسوفييت أنها لن تتردد فى استخدام أى وسيلة لتدمير رؤوس الكبارى الشيوعية فى نصف الكرة الغربى .

ولكن العمليات المستورة ليست وسيلة لتقديم التحذيرات الدولية ، والاعتراف بعملية مستورة مهما كان واضحا بينا يعتبر عملا عدائيا ومن الحكمة عدم الانغمار فى أعمال عدائية ما لم يكن الفرد قادرا ومتاهبا لان يعضد هذه العمليات ، أو — على ما يقول الروس — « اذا كنت تقول « ا » فيجب أن تكون مستعدا لان تقول « ب » . وهنا نستطيع نحن أن نقول : « **اذا كنت معتزما التدخل فى (التطفل على) المبادىء الكلاسيكية التى تحكم الحرب السرية فلا ترتبك ولا تتهوش** » .

ولست أشك فى أن بعض الارتباك الامريكى فى هذه المسائل انما ينجم عن نوع من الوقوف موقف الدفاع بازاء الاعتداء السوفييتى فى الحرب السرية ، وهذا الموقف الدفاعى يجىء فى طابع قولنا : « نحن لا يهمنا أن تكون معتدين فانتم كنتم معتدين أولا» ومثل هذا الاتجاه يمكن أن يؤدى الى نوع من اللامسئولية فى توجيه العمليات السرية ، والاكثر أهمية من هذا أننا باغفالنا (نزولنا عن) الرأى العام الخارجى الهام قد قللنا من تأثير الكثير من عملياتنا الموجهة الى هذا الرأى العام الاجنبى ، وبلا شك أن السوفييت يكسبون من هذا .. وتنتفع به دعاياتهم فى مزاعمها ...

والواقع أنه من الصحيح أن الاتفاق المستنتج ضمنا والذى يبعد العمليات « المستورة المكتومة » Covert Operations عن أن تكون سببا صالحا للحرب ليقوم الى حد بعيد على **أساس تفهم تاريخى بالنظر الى** عمليات المخابرات ومكافحة الجاسوسية ، ولكن الحرب السرية تشتمل اليوم ما هو أكثر بكثير من أن يكون مجرد عملية جاسوسية ، فهى تشتمل على مدى واسع من العمليات السياسية تتباين بين عمليات دعائية بسيطة وبين حركات فى نطاق عالمى لاجتذاب تعضيد ومناصرة الناس فى كل مكان ، كما تشتمل أحيانا على عمليات شبه عسكرية يقال لها : الحرب التقليدية أو حرب العصابات ، والقيام بهذه العمليات فى المناطق الحرجة الحساسة Critical Areas .

ومن الصحيح أيضا أن اللوم على هذا الموقف بانتشار وازدياد ثقل الحرب السرية اليوم انما يقع على عاتق السوفييت ، ومع هذا فان الامم الغربية الاخرى كانت أكثر واقعية منا ، فالولايات المتحدة لم تكن منظمة

دائمة منسقة لاعمال المخابرات فى وقت السلم حتى سنة ١٩٤٦ ، وفى تلك السنة أوجدت جماعة مركزية للمخابرات كانت معبرا بين منظمة العمليات الاستراتيجية التى كانت تعمل أثناء الحرب العالمية الثانية وبين وكالة المخابرات العامة التى أنشئت فى العام التالى ، وحتى المخابرات العامة فى أول انشائها قد قصر عملها على واجبات المخابرات تبعا لما كان الجنرال مارشال يكرره دائما اثنــاء توليه وزارة الدفاع : « لا يهمنى ماذا تعمل المخابرات ، كل ما أريده هو أن يصلنى منهم انذار بالهجوم السوفييتى قبل قيامه بأربع وعشرين ساعة (وقد هبطت الاربع والعشرين ساعة الآن الى ١٥ دقيقة أو أقل) ؛ ولم تكن فى الولايات المتحدة أى منظمة من أى نوع لادارة وتوجيه العمليات السياسية أو العمليات شبه العسكرية حتى كونت وحدة بسرعة داخل نطاق المخابرات العامة فى أواخر سنة ١٩٤٨ بعــد الانقلاب الشيوعى فى تشيكوسلوفاكيا ، ومع ذلك فان الســوفييت قد قرروا أن فرصتهم الكبرى انما تقع فى هذا الميدان ميدان العمليات السرية والعمليات شبه العسكرية ، وعلى حين أن الكثير من السياسة الامريكية المكشوفة ــ باعادة انشاء أوروبا ، تعضيد الامم المتحدة ، التحالف من أجل التقدم ، سلسلة من المحالفات العسكرية تغطى العالم كله ــ انما تستهدف كلها تقليل الحرب السرية ولكن هذا لا يكفى ، لقد تخير الســوفييت منذ بعيد ــ ولم تقم أى أدلة على أنهم عدلوا من اختيارهم هذا ــ تخيروا تحدينا بكل وسائل الحرب السرية ، وتجاهل هذا يعتبر حماقة وخسارة المعركة فى هذه الحرب ضد السوفييت تعتبر قاتلة مدمرة ٠

وللحرب السرية بالطبع مراحل هجومية ودفاعية ، ومن الطبيعى أن كلا الامرين لا ينفصلان ،ولكن كل الحكومات تميز تنظيميا بين هذين النوعين من الحرب ، **فالمرحلــة الهجومية يشملهــا الاصطلاح « العمليات السرية »** واصطلاح (الامن) **يغطى المرحلة الدفاعية** ، والمبــادىء التى تحكم ادارة وتوجيه النوعين متماثلة متشابهة ، ولكن مع هــذا يوجد فاصل ادارى بينهما (أى انهما ينفصلان عن بعضهما من الناحية الادارية) ، فالنشاط داخل الدولة هو فى غالبيته نشاط دفاعى ضد عمليات العدو ومن ثم فانه يعرف بأنه نشاط للامن ، وتوكل مســئوليته الى وكالات الامن ، ولكن عمليات الدولة فى خارج أراضيها عمليات هجومية وتوكل مسئوليتها الى وكالة منفصلة للعمليات السرية ؛ وفى الولايات المتحدة يتم هذا الفصل بين مكتب التحقيقــات الفــدرالى F.B.I. (للامن الداخلى) وبين ادارة المخابرات العامة C.I.A. (المخابرات الخارجية والعمليات) وفى بريطانيا يتم الفصل بين المكتب الخامس M.I.5 (الذى يعمل أحيانا وراء ستار

سكوتلانديارد) وبين المكتب السادس M.I.6 ، وفى ألمانيا الغربية بين مكتب حماية الدستور وبين منظمة الجنرال جهلن ، وفى فرنسا بين وزارة الداخلية ومنظمة S.D.E.C.E. ، وفى الدول الشيوعية ليس الفصل الادارى الى هذا الحد من الصلابة ولكن كحديث عام فان الواجبات المدنية تتولاها وزارة الداخلية (فى الاتحاد السوفييتى تتولاها لجنة أمن الدولة) وتتولى المخابرات الحربية السوفييتية كل الاعمال لخارج الاتحاد السوفييتى ٠

والواقع أنه مهما كان مدى الفصل الادارى فانه من ناحية عامة تصعب ملاحظته ويكون فى بلاد كثيرة سبب احتكاك داخلى ، فكثير من العمليات الهجومية الخارجية وبخاصة العمليات السياسية يجب أن تعد دعاماتها فى أرض الوطن ، هذا عدا أن خدمات المخابرات الداخلية والخارجية تهتم وتعنى بأمر الاجانب الموجودين فى أرض الوطن واتجاهات هذا الاهتمام تتقاطع بسبب أن كلا من الخدمات الداخلية والخارجية تنظر الى هؤلاء الاجانب من وجهة نظر خاصة ٠

واخلال أوتوجون Otto John **رئيس منظمة وقاية الدستور فى ألمانيا الغربية بواجباته منذ بعض سنوات وانتقاله الى ألمانيا الشرقية يرجع به بعض المراقبين الى أنه كان نتيجة لانهزامه فى الصراع على السلطة ، والنزاع حول تفسير المسئوليات والاختصاصات داخل ألمانيا الغربية بينه وبين الجنرال جهلين، وفى أثناء الحرب العالمية الثانية منحت ادارة التحقيقات الفدرالية** F.B.I بعض سلطات واختصاصات خارج الولايات المتحدة وبخاصة فى أمريكا اللاتينية ، على حين ترك **لمنظمة العمليات الاستراتيجية** O.S.S العمل فى ميادين الحرب ولما كانت **ادارة التحقيقات** قد سبقت **منظمة العمليات** فاننى أذكر بأن أول تقرير مخابرات قرأته كان وثيقة صادرة من ادارة التحقيقات تتحدث فيها عما دار فى حفلة عشاء فى برلين حضرها بعض كبار رجالات النازية وكان هذا قبل الحرب العالمية الثانية ، على أنه لا يمكن القول بأن مثل هذا الاحتكاك غير موجود فى الولايات المتحدة ففى سنة ١٩٤٩ حدث فى مدينة واشنطون نفسها مشهد يمكن أن يستهوى النظارة جرى بين رجال مكتب التحقيقات وبين عملاء المخابرات العامة ووضح منهوجود خلاف حول كيفية التصرف فى أمر عميل سوفييتى كان قد غير اتجاهه ونفض يده من خدمة الشيوعيين لينتقل للغرب ، وكان المشهد مثيرا لانه كان تماسكا بالايدى وقد جرى هذا فى مطعم عام كان العميل السوفييتى يتناول فيه طعام العشاء ٠

ولما كانت المبادىء التى تستخدم فى الحرب السرية واحدة سواء أكانت فى الخارج أم فى الداخل وسواء أكانت فى العمليات الهجومية أم الدفاعيه الا أنه لما كانت تجاربى الشخصية كانت هجومية الطابع ، لهذا فان الكتاب سيتركز خارج حدودها السياسية ، والواقع أن الصورة البارزة فى الحرب السرية اليوم هى الشاط الدفاعى المتزايد فى ميدان العمليات الهجومية ، ذلك لان النشاط الدفاعى الذى تتولاه وكالات الامن الداخلية لا يزيد على تكرار آلى لصور هذه النشاط الدفاعى ٠

ولكن ليس هناك من شيء جديد تاريخى فى الطابع الاعتدائى اليوم ، ان التاريخ ملىء بفترات مماثلة للنزاع السرى العنيف ، فى الاستعداد له مع اتصاله بالحرب المكشوفة العلنية التقليدية ، ان العامل الجديد اليوم هو الادراك المتبادل لفداحة ثمن قيـام حرب نووية علنيـة ، ولكن هـذا الادراك فى الواقع يقوىمن الاهداف التوسعية السوفييتية ، ومن قراراتهم بالتقدم بوساطة الحرب السرية ، واســتخدام عقيدة لينين فى العـلاقات الدولية ٠

وفى ايجاز ٠٠٠ فان السوفييت قد تقبلوا كل ما يمكن اســتنتاجه ضمنا من عرف ومن تقاليد خاصة بالعمليات الخفية المكتومة على ما يمكن أن تطبق الى أبعد من مجرد عمليات خاصة بالجاســوسية ، لقد درســوا وعـدلوا وهذبوا من فنون عمليــاتهم السرية حتى يمكن أن يطبقوها فى النزاع الدولى السياسى وفى النزاع الاجتماعى ، ولقد اثبتوا فى هذا قدرة وطاقة ٠٠٠ ولكن ليس هناك من سبب لان يظل هذا الامتياز دائما وقفا عليهم خاصا بهم ٠

٢

قوة المعرفة السرية

عرض على ذات يوم أحدكبار رجالات الانجليز ـ وكان يوم ذاك رئيسا للخدمة السرية لجلالة ملك بريطانيا ـ عرض على فى مباهاة وزهو مكتبته بما فيها من كتب عن أعمال المخابرات وعن العمليات السرية ، وتخير من بين الكتب الكثيرة مجلدا قديما عرفت منه أنه يوميات أحد الرجال الذين سبقوه في الخدمة السرية البريطانية ، وكان صاحب الكتاب أو بمعنى أدق صاحب اليوميات يعمل سكرتيرا للسير فرنسيس ويلثنجهام الذى كان بالاضافة الى واجباته الكثيرة يتولى رياسة المخابرات للملكة الياصابات (الاولى) ، وقلب الرجل صفحات الكتاب ثم وقفنا بازاء تاريخ ما كان يرجع الى أربعة قرون وقرأنا ما كتبه الرجل عن عمله فى ذلك اليوم :

« لقد ذهبت اليوم واستأجرت لى base fellow »

ثم بدأ يسجل بعد هذا واجبات هذا ال base fellow الذى استأجره » .

ومع أن هذا الاصطلاح يعتبر فى دنيا اليوم قديما عنيفا الا أن الكثير من الوصف الذى وضع لتحديد اختصاصاته وواجباته لا تزال باقية معنا حتى اليوم ، **فاولئك الذين يقومون بالتبليغ سرا وفى خفية ، وأولئك الذين يبدون على غير حقيقتهم وما يبطنون ، وأولئك الذين يتقبلون الضيافة حتى يتحسسوا نقاط الضعف التي تجيء بالمضيف جاثيا على ركبتيه ، وأولئك الذين يخفون أغراضهم الحقيقيةوراء نسيجمن الاكاذيب والاستخفاء،** كل هؤلاء الناس ننظر اليهم على أنهم صور متعددة للتنافر والتضاد للطابع المعنوى المتعارف عليه ، وفى أمريكا يعملون عادة على تمييز هذا التنافر والتضاد حتى يمكن أن يكون سلوك الشخص كامل المعنويات ، وقصة الابويين اللذين يعاقبان الصبى الواشى النمام بدلا من معاقبة الجانى المجرم الذى يعتبر حديث الصبى عما ارتكبه الجاني وشاية ، هذه القصة تسلك سبيلها فى القصص الشعبى الامريكى ، وتذكر هذه القصة عناية الرد الجاف الذى رد به هنرى ستيمسون وزير الدفاع الامريكى عندما

عرضت عليه عملية حل شفرة كود دولة أجنبية وحل البرقيات التى كانت مرسلة بالشفرة ، فقد قال : « ان الرجل الشريف لا يقرأ خطابات رجل شريف آخر » ثم أزاح البرقيات المعروضة عليه دون أن ينظر اليها ٠

ومع الاسف ، يجب أن أعترض من وجهة النظر الى أن هذا التنافر يعتبر دليلا على توافر المعنويات فى الشخص الذى يفعل هذا ، وهى فى تقدير رجل العصر الحديث ليس بعلاقة على الاتجـاه المعنوى بأكثر من كلمات رئيس بوليس الملكة بيس Bess (اسم يطلق على الياصابات ويعنى به الملكة اليزابيث الاولى) والتى تعكس اقتناعه بدوره بالنسـبة لاولئك الذين يستأجروهم لعمله ، من الممكن أن ننظر الى هذا العمل نظرة عدم استساغة ٠٠٠ عدم رضى ٠٠٠ نظرة تبرم وضجر أو استياء ولكن ليس فى هذا كله ما له صلة بالمعنويات ولا بالافضلية الاجتماعية ، بل على انقيض فان الحاجة الى الطمأنينة هى التى توجد هذا الافتراض للافضيلة المعنوية ٠٠٠ ان ما يبعثـه فينـا « **العميل السرى** » Secret Agent **أو المخبر أو المبلغ أو الواشى** Informer سمة ما تسمه هو « **الخوف** » منه ولا شىء غير هذا ٠٠٠

ومن الناحية التاريخية فانه فى كل عصر ، وفى كل دولة ٠٠٠ وفى كل مملكة لعب « المخبرون » ، « المبلغون » دورا رئيسيا كوسيلة يستطيع بها الحكام أن يحتفظوا بسلطانهم على من يحكمونهم من الرعية ، وفى أثينا القديمة تواجدت طبقة من الناس حصل أفرادها على عيشهم بل ووصلوا الى مكانة هامة فى المجتمع بعمل واحد هو أنهم كانوا « مخبرين » «مبلغين»، وكان « **بقـاؤهم** » **أو بمعنى أدق** « **وجودهم** » **و** « **كيـانهم** » هو العمود الفقرى للنزاع والخصـام بين الجماعات الديمقراطيـة وبين الجماعات التى تحبذ حكم القلة Oligarchic ، ولقد تواجدت مثل هذه الطبقـة فى حكومة بيزنطة وفى ايطاليا فى عصر النهضة وفى بريطانيـا فى حـكم آل ستيوارت وفى اليابان أيام حكم الشوجان Shogunate ، ولقد **كانت** سلطة نابليون عظيمة جدا فى فرنسا فى ذروة حياته ومجده ولكن هذه السلطة كانت تدعم منها شبكة كبيرة من « المبلغين » كونهـا وزير البوليس القوى « فوشيه » الذى وصف بأنه هو أول من أوجـد الدولة البوليسية فى العصر الحديث ٠

وفى سـنة ١٨٨٧ قالت جريدة انجليزية كبيرة أنه لو لم يتواجـد « المبلغون » « المخبرون » لما أمكن الوصـول الى أدلة الادانة فى كثير من

القضايا ، واليوم فى الولايات المتحدة لو أبلغت الخزانة عن أن جارك يخدع رجال الضرائب ويخفى حقيقة أرباحه فانت تتسلم هدية قيمة هى نسبة مئوية مما يحصله رجال الضرائب منه نتيجة لبلاغك ، وكل بوليس البلديات فى الولايات المتحدة يستخدم عددا من « المخبرين » ، ويحقق مكتب التحقيقات الفدرالى نجاحا فى أعماله السياسية والجنائية بوساطة « المخبرين » « المبلغين » ، **ومهما كانت طبيعة استخدامهم لتقوية السلطة البوليسية أو السلطة السياسية فانهم (المخبرين) دعامة للسلطان والقوة .**

ومن الناحية الثقافية فان ذكرى الايام التى كانت فيها القوة السياسية تعتمد اعتمادا كبيرا على المبلغين باقية ماثلة فى تاريخنا الحضارى ، وحتى دون هذا المثل الحى الواضح الذى نشهده فى الدول الشيوعية فاننا نخشى بالغريزة هؤلاء « المخبرين » ، « العملاء السريين » وسواء أكنا نعرف تاريخنا أو نجهله فان حضارتنا تذكرنا دون ما خوف أن « المخبر » «المبلغ» الرجل الذى يعمل فى السر والخفاء لهو تهديد لحياة كل فرد تهديد لحريته، وهذا التوعد والتهديد يجعل الفرد يصطدم بالسلطة ، والاصطدام بالسلطة يعرضه لتكاليف ونزوة العدالة ، والعدالة فى أجلى صورها البشرية غير المكتملة هى دائما ـ بقدر كبير أو قليل ـ مشهد من مشاهد السلطة السياسية القائمة .

والشعور بالاستياء أو الضجر من المخبر أو المبلغ ومن العميل السرى ليس مجرد حديث تاريخى يروى عن عصر قد مضى وانتهى ، بل أنه قائم دائم ، وكل مجتمع منظم لا يتسمح مع أولئك الذين يضعون أنفسهم بمعزل عن الصورة العادية المتعارف عليها فى هذا المجتمع ، ولقد أشار علماء النفس والاجتماع والفلسفة كثيرا الى التشابه والتماثل بين وضع «الفنان» ووضع « المجرم » فى كل مجتمع ، ووجه التشابه بين الاثنين هو أن كلا منهما يعيش بمعزل عن المجتمع ، وكل من الاثنين بالطبيعة يرتاب بما فى المجتمع من مثل عليا ومن معنويات وما للناس فيه من مصالح ، وكل منهما يحتفظ لنفسه بحق الاعتراض على القانون الوضعى السارى فى المجتمع ، ثم أن كلا من الاثنين يريد دائما أن يعيش كما يحلو له ، وضجر المجتمع وضيقه بهذا العزوف الاستقلالى لهو أمر طبيعى ما فى هذا من شك ، وهذا الضجر والاستياء ـ من جانب المجتمع ـ هو الثمن الذى يدفعه الفنان لوجهة النظر الاستقلالية التى تنعش فنه ، والعقوبة أو (الجزاء) هى الثمن الذى يدفعه المجرم لمحاولة تحقيق أهدافه فى المجتمع بوسائل غير اجتماعية Unsocial Means .

« **والعميل السرى** » صنو وقريب لكل من « **الفنـــان** » و « **المجرم** » واسلوبه فى عملة أشبه ما يكون بأسلوب المجرم ، وعمل كل من الاثنين غير قانونى وضد المجتمع ، ووجهة نظره للجتمع تشابه وجهة نظر الفنان فى عدم تقبله اسطورة المجتمع عن نفسه وأن كان من واجبه بعد تجربة عملية كافية أن لا تكون هذه النظرة أصيلة فيه ، وهو يميل لان ينظر الى المجتمع من مدى بعيد وأن يستغل عاداته وتقاليده وصلاته لتحقيق أغراض ليست جزءا من المثل التى أقرها هذا المجتمع ، وعلى حين أن عمل العميل السرى انما يعطه فرصة قيمة لتكون نظراته أوسع مدى وأكثر واقعية وأبعد عمقا برغم ما فيها من عنف ·

ولكنه فى الواقع رجل منعزل عن المجتمع ، ونحن ندرك هذا ونضيق به ، وحقيقة كون هذا « العميل السرى » يتهجم حتى فى سرية تامة فيما بينه وبين نفسه على عادات وتقاليد مجتمعنا لتزيد من ضيقنا به ، وهو من هذه الناحية نوع من « المجرم » فى كيـــان قانونى ، وصلته بمصادر السلطة تقوى من رد الفعل الذى يقوم به ، ومن ثم فليس هـــو بالرجل المنعزل عن المجتمع فحسب بل فانه يجنى الكثير من النفع نتيجة عزلته هذه ، وهو يتخذ لنفســـه طابع « الفنـــان » أو « المجرم » ولكنه مع قوته لا يستطيع أن يقوم بالمغامرات التى يقوم بها أى من هذا الرجلين الواضحين فى المجتمع بالرغم مما بينهما من تفاوت فى الكيـــان الاجتماعى ، وهـــو لا يستطيع الا أن يوجه ضرباته فى الظلام ، ضربات غير عادية لا عدالة فيها ولا تكافؤ للفرص ·

ونحن لا نشعر بالطمأنينة لان نعرف أن شخصا ما مجهولا منا يعرف أى معلومات عنا ، وبالمثل يتوافر هذا الشـــعور فى تقديرنا لان مجهولا ما يعرف معلومات أى معلومات ذلك لان هذه المعلومات تعتبر « **قوة** » فى أى نزاع بشرى مهمـــا كانت طبيعــــة ولون هـــذا النزاع ، والسرقة أو الاغتصاب بالتهديد بالتشنيع لهى تعبيرات لها طابع التخصص لوصـــف الانتفاع الشخصى من قوة توافر معلومات عن « **أخطاء** » الغير ، **والقوة التى لشخص ما على شخص آخر نتيجة توافر معلومات أكبر لتمتد الى ما وراء الموقف المحدد بارتكاب أخطاء أو لسلوك مشـــين** ، بل أن هذه القوة هى عامل فعال فى كل موقف للنزاع أو للتناقس البشرى ·

ورجل العمال لا يقصر ما يملك على ما يتوافر له من مال وســـندات وأوراق مالية ، بل اننا يجب أن نضيف الى هذا ما يتوافر له من معلومات

عن أولئك الذين ينافسونه في ميدان الاعمال ، والمحامى قبل أن يبدأ مفاوضاته فى قضية ما يدرس كل معلومات يمكن أن تتوافر له عن أولئك الذين يقفون موقف الخصومة أمامه فى هذه القضية ، ومجتمع الاعمال فى أمريكا وحده يعاون بالمال وبسخاء عدة منظمات لا عمل لها الا الامداد بالمعلومات عن الافراد وعن الشركات ، وليس على صاحب العمل الا أن يرفع بوق التليفون ويطلب رقما ليسأل موظفا فى الطرف الآخر عن شخص ما قائلا : ماذا تعرف عن « فلان » أو عن « موضوع كذا فى شركة كذا ·· » ، والمنافس الذى يعرف خطط منافسه يستطيع أن يحقق السبق عليه ·

والقائد الذى يعد العدة للهجوم يجب أن يعرف القوة النسبية للقوات التى تواجهه والتى تقف موقف الدفاع ·

ومبدأ « أعرف عدوك » له فى الواقع معنيان ·

ورجل الاعمال الذى قلنا أن ما يملكه انما يتضمن الى جانب النقد والسندات والاسهم ما يعرفه عن منافسه ، عليه مسئوليات تتكون مما يعرفه منافسوه عنه ، ولكن ما يعرف هو أن منافسيه يعرفونه عنه وعن خططه وعن موارده لا يعتبر مسئولية ذلك لأنه يستطيع أن يضع هذا كله موضع التقدير ويعد العدة له فى منافسته ·· ، **ولكن مالا يعرف هو أنهم يعرفونه عنه وعن خططه وعن موارده هو ما يمكن أن يستخدموه وأن يستغلوه ضده لسبقه وللتغلب على مناوراته** ، ورجل الاعمال الذى يعرف أن منافسه قد عرف بخططه ومشروعاته يستطيع أن يعدل منها ، ولكنه عندما يجهل هذا فانه يفقد المعركة ·

والقائد الذى يقف فى الدفاع ولا يعرف أن حجم قواته وتوزيعها قد أضحى معروفا للعدو لا يفكر فى تقويتها ولا يفكر فى تجميعها أو تعديل أوضاعها ··· ومن ثم فانه بموقفه السلبى هذا يمنح المهاجم قوة الانتفاع بما توافر له من معلومات ·

ان هذه الصور لتعتبر قاعدة فى أى نزاع أو نشاط تنافسى بشرى ، ولهذا فان « العميل السرى » أو « المخبر » أو « المبلغ » يثير فينا شعورا بالقلق وعدم الطمأنينة ذلك لاننا لا نعرف « كيف ··· و « كم » ما يتوافر له من معلومات ·

على أن المحتوى الايديولوجي للحرب السرية اليوم الذى لا يشبه شيئا بأكثر مما يشبه الحروب الدينية الاوروبية للاصلاح بالاضافة الى الزيادة الكبيرة فى عدد السكان ··· هذا المحتوى قد جاء بواجب على الدولة ··· واجب المعرفة أى الحصول على معلومات ، ولقد ازداد تقدم النظرية وتطورها واتسع مداها بالاستناد الى قوة الدولة حتى صار من واجب كل مواطن « **أن يبلغ عما يعرف** » ·

لقد صارت هذه عقيدة رسمية حتى فى الولايات المتحدة وان كان ليس من الواضح بأى وسيلة ما اذا كانت هذه العقيدة يتقبلها كل أمريكى ، ولقد اتصلت بى ادارة التحقيقات الفدرالية مرات كثيرة كما اتصلت بى وكالات أخرى للامن وسألتنى هذه أو تلك أكثر من مرة عن مواطنين أعرفهم ، وكنت فى كل مرة أتقبل وجهة النظر الرسمية بأنه من واجبى أن أتحدث بصراحة عن كل ما لدى من معلومات ، وكنت أشعر براحة فقط فى المرات التى كنت أعرف فيها أننى أفعل هذا لكى أعاون شخص ما يتعرض للاتهام والشك على حين أنه برىء مما يتهم به ·· أما فى غير هذا فاننى بصراحة كنت أشعر بضيق وأنا أقدم المعلومات عن مواطن ثم أننى أقدمها خفية عنه ، وتبليغ المعلومات لمكتب التحقيقات الامريكى لا زال فى الولايات المتحدة مسألة ترجع للشعور الشخصى للفرد ·

وليس من الواضح ما اذا كان الامر لا يزال كذلك عندما تكون هيئة التحقيق والبحث هى لجنة من لجان الكونجرس ، ويكون الموضوع هو محاولة اتهام وادانة أحد المواطنين ، ولكن الضغط المعنوى هو فى الواقع على الشخص الذى يقوم « بالتبليغ » « بالادلاء بالمعلومات » ومن المحتمل أن يكون هذا مقبولا من غالبية الامريكيين فى هذا الزمان ··

على أن الاهم هو رد الفعل الغريزى تجاه موقف العميل السرى ، هذا الامر الذى يخضع للمبدأ المعرق فى القدم مبدأ : « ان الامر يتعلق بثور من ، هو الذى أدماه النطح » ، هذا المبدأ الذى يبلور ويبسط الامر ومن ثم **فان العميل التابع لى يعتبر بطلا أما العميل التابع لك فهو مجرم شرير** ·

وفى نفس الصورة يكون موقف أفراد الامة تجاه المخبر أو المرشد الذى يعمل فى خدمة البوليس أو مكتب التحقيقات الفدرالى ·· والمصدر السرى للمعلومات فى داخل الحكومة الذى يمد عضو الكونجرس بالمعلومات

والذين يقومون بالتحريات الخاصة بالبنوك ورجل البوليس السرى الحر الذى يعمل فى خدمة من يستأجره ··· يكون الموقف تجاه كل من هؤلاء تابعا لشخصية من تتحدث اليه فى أمر كل منهم ·

ولقد ناقشت هذا يوما ما مع نائب رئيس اللجنة القومية الديمقراطية فأخبرنى أنه أزيح من منصبه لان جماعة من الحزب قد رشت سكرتيره وبذلك فانه كان يطلعهم على كل رسائله الخاصة ، ولقد كان للرجل فلسفة خاصة بهذه الخيانة الا أن الامر يتطلب منه عدة سنوات حتى يخف غضبه ، ومن جهة أخرى أعرف رجلا يصل دخله السنوى الى عدة أرقام وكل ما يعمله هو أن له اتصالات وثيقة بأناس داخل دوائر الحكومة المختلفة ومن ثم فانه يستطيع أن يمد عملاءه من رجال الصناعة فى القطاع الخاص بتفاصيل خطوط وعقود منافسيهم وبذلك يحققون هم السبق عليهم ·

* * *

على أن المشكلة فى الحرب السرية الدولية التى تجرى بين الامر تبدو أبسط بكثير ، « **فان بقرة القومية هنا هى التى تقرر ثور من هو الذى يدمى بالنطح** » ، وكل طفل أمريكى يدرس التاريخ الامريكى يعرف قصة ناثان هال ضابط المليشيا من ولاية كانتوكى الذى تطوع للعمل وراء خطوط الانجليز فى لونج ايلاند لكى يمد الجنرال واشنطون بالمعلومات عن القوات الانجليزية ، وقد اختفى الرجل فى ثياب ناظر مدرسة وذهب الى هناك وحصل على المعلومات ولكن الانجليز قبضوا عليه وأعدموه شنقا ويعرف الاطفال الامريكان كذلك قصة جون اندرى الضابط الانجليزى الذى عمل بتوجيه الجنرال كلنتون وقام بالتفاوض مع بندكت أرنولد لتسليم ويست بوينت للانجليز وقد قبض عليه الامريكان وأعدموه شنقا ، ولقد عرضت دائرة معارف أمريكية للرجلين، لهذين **العميلين السريين** ولكن كان السطر الاول عن الحديث عن كل منهما كما يلى :

هال ، ناثان (١٧٥٥ ــ ١٧٧٦) مواطن أمريكى مخلص من رجال الثورة الامريكية ·

اندرى ، جون (١٧٥١ ــ ١٧٨٠) جاسوس انجليزى فى الثورة الامريكية ···

وفى نفس الوقت لم يسمح الاطفال الانجليز اطلاقا اسم ناثان هال ويعرفون أن الميجر جون اندرى قد دفن فى كنيسة ويستمنستر ٠

ويعتبر هذا الاجراء عمليا من الناحية العاطفية اذ أنه يمكننا من أن نفصل بين العناصر والعوامل المتضاربة بأن نقسم العملاء السريين الى **رجال طيبين والى رجال أشرار** ، كما أن لهذا نفعه أيضا فى توجيه الشعور الشعبى لتعضيد الدولة ،وهكذا فان كثيرين من المراقبين الغربيين قد علقوا تعليقات غير ودية على خطبة المدعى العام السوفييتى وعلى الصحافة السوفييتية ومقالاتها أثناء محاكمة الطيار فرانسيس باورز قائد الطائرة ى ـ ٢ فى موسكو ، ولكن من جهة أخرى فان أحد القضاة قد علق فى ختام حكمه بعد محاكمة عميل سوفييتى فى نيويورك فى صيف سنة ١٩٦١ بقوله له . « ان التآمر الخفى للجاسوسية لهو عمل شرير أشبه بالتقتيل بالجملة » وقد نقلت الصحف الامريكية هذه الكلمات دون أن تعلق عليها ٠

ولكن أولئك الذين يحترفون الحرب السرية فى الواقع يتجنبون مثل هذه « الميلودراما » وليس هذا عن قلة وطنية وانما لانهم ينظرون الى واقع الحياة الدولية ، ثم لرغبتهم فى أن لا يقللوا من قيمة أعمالهم التى يقومون بها ٠٠٠ ولهذا فانهم لا يستخدمون كلمة « جاسوس » ولا كلمة « عدو » وانما يستخدمون على التوالى كلمتى « عميل » و « معارضة » أو « مقاومة »، وفى هذا ولا شك تفهم ضمنى للاحترام المتبادل الذى هو طابع مميز فيما بين المحترفين المتنافسين فى أى عمل ، ولا شك أنه من صلة بين هذا « **الاحترام المتبادل** » **وبين** قواعد « **قانون الفروسية** » فلا محل لصفات الفروسية هنا والقاعدة الاساسية أن التنافس هنا يقوم على أساس نظرية « المصارعة الحرة » أى أنه يسمح بكل أنواع « المسكات » أو على ما يقول المثل « اللى تغلب به العب به » ولا تقدير للفضائل هنا والغاية تبرر الوسيلة ٠

وامكانية عزل وتمييز طبقة من المحترفين فى هذا اللون من النزاع لهى ظاهرة فريدة فى بابها فى هذا العصر الحديث ، على أن هذا الصراع نفسه فى وسائله وأساليبه وفى مناوراته ومداوراته لقديم قدم الجنس البشرى ذلك لانه جملة وتفصيلا لطابع من طوابع العلاقات البشرية ، فقبل نهاية القرن الثامن عشر كانت هذه المهارات جزء من اسهام كل رجل معنى بالشئون العامة ٠

ولا تزال رشاوى ومؤامرات الدون برناردينو دو مندوزا سفير فيليب الثانى الاسـبانى فى بلاط هنرى الثالث الفرنسى والذى باثارته أطماع وشهوات الدون جيز ، واثارة كاترين دى مديتشى ، وشكوك غوغاء باريس الكاثوليك ضد الهوجنوت بعمله هذا استطاع أن يمنع فرنسا من القيام بأى حركة لمساعدة الانجليز ضد هجوم الارمادا الفرنسية ولا لتعريض جنب الاسبان المعرض فى الفلاندرز للخطر ، لا تزال هذه الاعمال نماذج للربط الناجح بين المخابرات السرية وبين العمليات السياسية ، ولقـد حقق الدون برناندينو بعمله هذا نصرا عسكريا لاسـبانيا ولو أنه نصر موقوت دون أن تستخدم جنديا واحدا فى تحقيق هذا النصر ٠

ويتوقع من السفراء اليوم فى كل مكان من العالم أن يحققوا مثل هذه النتائج وان كانوا يحذرون أو ينبه عليهم بأن لا يسـتخدمون أسـاليب ماندوزا ووسائله ؛ الواقع أن جماعات كثيرة فى كل الميادين قد تطورت ولكن جماعات قليلة هى التى لا تزال تستخدم هذه الوسائل والاساليب ، هذه الجماعات هى التى يعتبر أفرادها اخصائيون مهرة محترفون فى ميدان الحرب السرية ، وهؤلاء المحترفون ليسـوا بقاصرين على موظفى وعملاء ادارة المخابرات العامة فى الولايات المتحدة ، ولا فى المكتب السادس فى بريطانيا ولا منظمة مكافحة الجاسوسية فى فرنسـا أو منظمـة جهلين فى ألمانيا الغربية ، أو وكالات أمن الدولة فى الدول الشيوعية ٠٠٠ ولا فى المنظمات المماثلة فى كل دولة من دول العالم ، ان الدائرة أوسع مدى وأكثر مرونة من هذا كلـه ٠٠٠ وللتيقن فان موظفى وعملاء هذه المنظمات انما يمثلون النواة فى الخلية الكبيرة التى يقال لافرادها الكثير أنهم محترفون فى ميدان الحرب السرية ٠٠٠ ولكن وراء هؤلاء يجىء عدد كبير لا حصر له من الافراد الذين يسهمون بصورة ما فى الحرب السرية عنـدما تكون حياتهم أو معاشهم أو حريتهم تتعرض لاى خطر ٠٠ وهؤلاء يجب أن يعتبروا أيضا فى عداد المحترفين ٠

وليس من الضرورى أن يكون هذا الاحتراف والمهارة ثمرة ونتـاج تدريب رتيب منتظم ولكل الخدمات السرية الحكومية هيئات ومراكز تدريب ومعاهد للدراسة ولكن فرق التعليم هذه لا تصنع محترفا فان الذى يوجد الاحتراف هو الاحتكاك المران والتدريب والخبرة على أنه لا يعتبر مثالا اننى أنا نفسى عملت لثمانى سنوات فى عمليـات سرية قبل أن أحضر فرقة تدريب فى أحد هذه المعاهد الخاصة بالعمليات السرية ، ولكن مع هذا فان النجاح الكبير الذى حققه رجال منع ادخال المسكرات الى الولايات المتحدة

فى منتصف القرن التاسع عشر وكذلك المنظمات المختلفة للمقاومة فى أوروبا طوال الحرب العالمية الثانية كل هذه لتدل دلالة واضحة على ما قلته بالنسبة للتدريب والاحتراف ، ففي عمليات المقاومة ضد النازية فى أوروبا لم يكن يتوافر الوقت ولا الوسائل التى تمكن من تيسير تدريب آلاف الرجال والنساء الذين أسهموا بالعمل فى الظلام ، لقد مات كثيرون وهم على علم بصناعتهم ، وتوافرت للبعض موهبة ذاتية ، وقد تعلم البعض وعاشوا ، لقد كانوا كلهم محترفين وبقوا كذلك مهما كان العمل الذى اتجهوا اليه فى الحياة فيما بعد الحرب ، ان الخبرة والتجربة هى التى تصقل الموهبة وتصنع الرجل ولقد قال ذات مرة مدير البوليس السرى الفرنسى وهو يقص على بعض خبراته أيام المقاومة أنه لايعتقد بأن « الرجل » يمكن أن يفهم العصر الذى يعيش فيه حتى يقضى بعض الوقت فى السجن ، وهذه الاشارة فى الواقع تنطبق على العمليات السرية ··· فأن الشدائد هى التى تصنع الرجال ·

والافراد الذين يعملون فى دائرة العمليات السرية يشتركون معا فى شيىء واحد عام « هو الشعور والحس بأهداف أعمالهم ووظائفهم » ثم يختلفون بعد ذلك تبعا لدرجة المعلومات ، فالمعلومات قوة ، والرجل الذى فى القاع يعرف القليل على حين أن الذى فى القمة يعرف الكثير ··· ، أو هكذا تقول من الناحية النظرية البحتة ، **والفكرة فى هذا الترتيب الذى هو أقرب الى تنظيم درجات « السلم الكهنوتى »** هى أن هذه العمليات السرية مع أنها سرية فى توجيهها وفنها ·· فهى تعامل أساسه العلاقات بين المخلوقات البشرية ومن ثم فانها واضحة بالنسبة للادراك الحسى الصحيح ، **والعميل النابه يستطيع بعد تجربة وخبرة لبعض الوقت أن يطور من هذا الادراك الحسى حتى ليعرف من ناحية المبدأ أى العمليات السرية التى تكون فى مرحلة التنفيذ ويستطيع أن يدرك حقائقها وتفاصيلها حتى ولو لم يكن هو مشتركا فيها من الناحية العملية ، ولتلافى هذا ولحماية المعلومات من أن تتوزع على نطاق واحد فالعادة أن يوجد نظام «المقصورات»** Compartments **وهذا التنظيم الذى يقال له** Compartmentalization **ويعنى به التقسيم الى وحدات صغيرة جدا كل منها تعمل وحدها دون معرفة بغيرها أى على ما يقول رجال أركان الحرب** In tight Compartments ، **ويطبق هذا النظام فى كل الخدمات السرية فى العالم كله ، والنظام المثالى فى عمليات المخابرات السرية أن تحدد معرفة أى عميل بعميل آخر واحد فقط وعلى الاكثر بعميلين اثنين ، ويقلل هذا من تعرض « السر » لخطورة الذيوع ، هذا «السر» الذى يجعل «المعلومات» أى المعرفة قوة ، ويجعل هذه**

المعرفة فى أوسع صورها وأبعد مداها قاصرة على حشد صغير نسبيا من الافراد موجودين فى قمة التشكيل ، وفى ضوء هذا فان تشبيه العمليات السرية بالاخطبوط هو فى الواقع تشبيه له صحته وينطبق الى حد كبير على واقع الامر ٠

ويجب ملاحظة أنه لا يوجد فى أى ذراع (مجس – Tentacle) من أذرع الاخطبوط العضــو الذى يمكنــه من معرفة ماذا تفعل الاذرع (المجسات) الاخرى ومع هذا فان هذه الاذرع لا تعمل منفصلة (مستقلة) عن غيرها ، فان عقلا واحدا هو الذى يوجه حركات كل الاذرع (المجسات) وينسق بين عملها بوساطة الاعصاب والعضلات ٠

وعضلات أخطبوط العملات السرية هى جوهر أو عناصر الضبط فى العلاقات البشرية للافراد الذين يسهمون فى العملية السرية ، فاذا كان هذا الضبط غير مؤثر (لا أثر له) كان معنى هذا أن العملية (عمل المجسات) معيبة وناقصة ، ولكن العوامل التى توجــد الضبط المؤثر فى العمليات السرية ليست هى ذات العوامل فى المعنى نفسه التى توجده فى العمليات العسكرية فى الحرب ٠٠ ، وستعرض لعوامل الضبط المؤثرة فى العمليات السرية فى فصل قادم ٠

وفى ضوء هذا التصوير للاخطبوط ٠٠ « وللمجسات » (الاذرع) وللعقل الواحد الذى يوجه حركات هذه الاذرع وينسق عملها بوساطة الاعصاب والعضلات ، فى ضوء هذا التصوير يجب أن تنظر الى «الاعصاب» على أنها سلسلة « مجموعات » من المعرفة ٠٠٠ من العلم بأشيــاء ما ، أى بالمعلومات ٠٠٠ فاذا قدرنا هذا وجب أن ننظر الى الحساسية أو الخفقات الكهربائية التى تدل على أن الاعصاب تعمل فعلا على أنها هى التى تضبط وتحــدد مــدى الالمام والمعرفة لا فى المعنى الحرفى لكلمــة (تحــديد) Limitation بل فى الصورة التى توضحها كلمة Compartmentalization أى فى بســاطة تحــديد ومعرفــة « من هــو الذى يعــلم » ، والواقع أن الشخص الذى يعرف شيئا يســلك ســلوكا مغــايرا اذا لم تكن تتوافر له هذه المعرفة ولهذا أهميته فى العمليات السرية ٠٠٠ فضلا عن هذا فان هذه المعرفة ستجعله يفهم نفسه وموقفه من الحوادث المحيطة به فى صورة أخرى ٠

ولكن قد لا يكون هذا صحيحا بالنسبة لكل أنواع المعرفة ٠٠ ولا حتى بالنسبة لنوع واحد منها ، فالالمام بالمنطق أو الفلسفة الهندية لا تأثير له

فى عميل أمريكي يعمل فى بولندة ٠٠ ، ولكن معرفة هذا العميل الامريكى بحقيقة شخصية كل عميل أمريكى آخر فى بولندة له خطره بالنسبة لامن هؤلاء العملاء الآخرين فضلا عن أن هذه المعرفة تعطه قوة من غير المرغوب أن تكون له ٠

ونستطيع أن نجد مثلا معبرا فى عملية غزو الحلفاء لنورماندى فى السادس من يونيو سنة ١٩٤٤ ، فلقد كان كل فرد فى بريطانيا سنة ١٩٤٤ يعلم علم اليقين أن غزو الاوروبا سيقع ، ولكن عددا قليلا جدا من المسئولين كانوا يعرفون موعد الغزو أو مكانه ولم تتوافر المعرفة بالمكان والموعد أو الزمان أو كليهما وكانت أسماؤهم مسجلة وكان هذا السجل نوعا من السيطرة والضبط ٠

وعندما قرر هتلر غزو الاتحاد السوفييتى بقى السفير الالمانى فى موسكو فى الظلام حتى بدأ الهجوم فعلا ، ولقد أبقى هتلر وريبنتروب السفير فى الظلام لانهما كانا يعرفان بأنه يقف موقف التضاد من هذا الغزو ، وكانا يخشيان أنه لو عرف فلربما قام بتصرف ما يجعل الروس يشكون فى الامر ٠٠٠ وبلا شك أن هذا العمل من جانب هتلر وريبنتروب كان نوعا من السيطرة والضبط ٠

ومع أن هذه الرقابة والسيطرة هى فى الواقع ناحية من نواحى مكافحة الجاسوسية الا أنها يمكن أن تقع وتحدث حتى فى الحوادث اليومية بالنسبة لاى فرد يعمل فى العمليات ، وقد قص على زميل كان يتولى ناحية تنفيذية فى العمليات السرية قصة تدل على مبلغ تأثير هذه المبادىء حتى فى الحياة العامة للافراد ٠٠٠ فذات يوم جاء موظف ما الى مكتبه ولكنه بدلا من أن يضىء المصباح الكهربائى فى غرفته اتجه نحو النافذة التى تطل على الفناء الذى يقع عليه أيضا مكتب صديقى صاحب القصة ، ورأى هذه الموظف مكتب صديقى مضاء ولعل صديقى كان يثق بأن أحدا ليس فى أى من المكاتب التى تطل على الفناء لانه كان يعانق سكرتيرته التى كان بينهما غرام عنيف ، وشهد الموظف المجهول هذا المنظر ودون أن يضىء المصباح أمسك ببوق التليفون وأدار رقم تليفون مكتب صديقى الذى اضطر لان يترك سكرتيرته من بين ذراعه ليلبى نداء التليفون ٠

وفى اللحظة التالية سمع صديقى صوتا أجشا يقول له :

انني صوت الله آلا تخجل من نفسك وأنت تعانق سكرتيرتك ثم أغلق التليفون ٠

ولقد قص على صديقى القصة ٠٠٠ وأسر لى أنه أنهى علاقته مع الفتاة بسرعة وكان كل ما يقلقه دائما هو عدم معرفته : من الذى يعرف ؟! وكم هم الذين يعرفون ؟ ٠

* * *

وليس « الضبط » ولا « السيطرة » هما غرض العمليات السرية على حين أنه لا غرض لتحركات الاخطبوط أكثر من مجرد الحركة ، والاخطبوط يتطلب (**الغذاء**) والعمليات السرية تتطلب (**المعلومات**) ، **والمعلومات المطلوبة ليست بقاصرة على العدو الواضح ولا على العدو المحتمل ، وان كان هذا هو الذى له الاهمية الرئيسية** ، والعلاقات بين الدول حتى فى كتلة منظمة مثل الاتحاد السوفييتى والدول الخاضعة له تواجه دائما عناصر كافية للنزاع والتنافس ومن ثم فان للمعلومات عن كل منها لها قيمتها ، ومن المسائل التى تدل على مدى العلاقات الودية بين الدول كمية ونوع المعلومات التى تجعلها كل منها ميسورة للدول الاخريات ، فحتى بين أقرب الدول المتحالفة معا توجد المعلومات المخفية التى يجرى العمل للوصول اليها والتعرف عليها ، والاصل فى اخفاء هذه المعلومات أنها معلومات مضادة ومن هنا فانها تؤثر فى العلاقات ومن هنا لها نفعها فى الكشف عن العناصر السلبية فى هذه العلاقات ، أما فى حالة الدول الصديقة وان لم تكن متحالفة فان ما يجتذب الانتباه هو أن الصديق المتعاون يمكن أن يقدم لك الكثير من المعلومات عن عدوك حتى لو كان يقوم بالنسبة للعدو بنفس الخدمة التى يؤديها لك ، على أن العمليات السرية بين الدول الصديقة المتحالفة هى فى الواقع قليلة فى الوقت الذى ينفق الجهد الاكبر فى الواقع للحصول على المعلومات من العدو الحقيقى والمحتمل ٠

والمعلومات التى يحاول الحصول عليها عن العدو هى فى الواقع الخاصة بامكانيات العدو ونواياه ، ومن الاسهل أن تعرف ما تريد عن طاقات العدو وامكانياته بأكثر مما يمكن أن تعرف أى شىء عن نواياه ، والخلاف أشبه بالخلاف بين (البوكر) و (الشطرنج) ففى (البوكر) لا تعرف ماذا من الاوراق مع خصمك ومن ثم فانك تجهل قوته ، وليس لنواياه أهمية ، ومن ثم فان الصفة البارزة فى (البوكر) هى (البلف) أى الابهام بوجود قوة

لا وجود لها ، أما فى الشطرنج فان **(قوة الخصم)** بارزة ماثلة على المنضدة واضحة فى **وقعة الشطرنج** ومن ثم فان المعركة تدور حول **(نوايا الخصم)**، والصفة البارزة هى **(اخفاء النوايا)** •

وفى **(البوكر)** يريد اللاعب أن يعرف ماذا هى (الاوراق) التى بين يدى الخصم ، ولكن فى (الشطرنج) يريد اللاعب أن يعرف ماذا هى (التحركات) التى يعتزم الخصم القيام بها مع **(موارده)** الواضحة المكشوفة ، ومن هنا يتضح لنا أن **(النوايا)** أقوى العنصرين وأهمهما ذلك لانه عن طريق النوايا تجىء (الحركة) •

والواقع أنه من الصعب جدا الولوج الى « النوايا » الى حد أنه كان من الواجبات الرئيسية للدبلوماسية تحليل النوايا ، والعمليات السرية تعاون هذا التحليل الذى تقوم به الدبلوماسية بامدادها بحاجتها من المعلومات الدقيقة •

واحد الاخطار الثانية التى يتعرض لها المصير القومى National Destiny — وكذلك يتعرض لها السلم الدولى — هو حقيقة أن العقيدة العسكرية (وكذلك العقيدة اللينينية) تلجأ دائما الى افتراض أن (النية) دائما عدائية ، ومعنى هذا فى بساطة أنك لو رأيت رجلا يحمل بندقية كان من الضرورى أن تفترض أنه سيطلق عليك النيران ، وهكذا فانك ان وجدت **أن جارك لديه بندقية فاما أنك تحضر الى منزلك ببندقية أكبر أو أنك تترك المنزل الذى تقيم فيه فى جواره أو ترغمه هو على أن يترك منزله أو أن تطلق عليه الرصاص قبل أن يطلق هو الرصاص عليك ؛** قد تكون هذه الطريقة هى الطريقة السليمة فى قيادة جيش ولكنها أبعد بكثير عن أن تكون طريقة منطقية لتوجيه مصائر شعب بأكمله •

وهكذا توجه قيمة أكبر للمعلومات الخاصة بنوايا العدو التى يمكن الحصول عليها بالعمليات السرية عن القيمة التى للمعلومات الخاصة بطاقة العدو وامكانياته مع اعتبار أن المعلومات الخاصة بالطاقة والامكانيات فى مستوى معقول مرضى ، فقبل الحرب العالمية الثانية وفى اثنائها كانت احدى المشكلات الطريفة التى تشغل بال الذين يعملون فى العمليات السرية والذين يسافرون فى الخط الحديدى الذى يعبر سيبيريا من الشرق الى الغرب ، هى مشكلة التفكير فيما اذا كان السوفييت قد بنوا أسفل نهر آمور عند (خابور فيسك) نفقا ذلك لان الخط الحديدى كان يعبر النهر

على كوبرى معرض للتدمير بدرجة كبيرة ، وقد جاء الاهتمام من حقيقة أنه لو لم يكن هناك نفق ونجح اليابانيون فى تحطيم الكوبرى اذا ما بدأت العمليات العدائية فان كل الولاية السوفييتية الساحلية بما فيها ميناء فلاديفوستك ستقطع عن أى امدادات أو تموين من الروسيا ، فاذا ما كان فى القطار عدد من المسافرين الاجانب كان من الصعب أن تقرر من منهم يعملون فى عمليات سرية ، ذلك لانه لو اجتاز القطار النهر فى الرابعة من الصباح الباكر فستجد بعض الافراد فى ممرات القطار بجوار النوافذ يحدقون فى المجهول بحثا عن أى درب أو فجوة يمكن أن ترشدهم الى حقيقة الامر ، وعندما قلت أنا فى أحد تقاريرى أن السوفييت قد بنوا نفقا أسفل النهر لم أكن أدرى بل ولا زلت حتى اليوم لا أدرى هل كان ما رأيته حقا أو اننى كنت أحدق فى مدخل زائف مموه هو الذى جعلنى أعتقد بوجود النفق ، وكان السوفييت يعرفون أمر هؤلاء الذين يستيقظون مبكرين ، ولكن على طرافة هذه المعلومات عن النفق فانها بلا شك ليست بأهم مما ذكرته فى أحد تقاريرى سنة ١٩٤٥ عن تغيير اتجاهات المهيجين الشيوعيين فى المصانع السوفييتية كدليل على النوايا السوفييتية المعادية للولايات المتحدة .

* * *

وهنا ننتقل الى مرحلة أخرى من مراحل الحديث ، فعندما يتم جمع المعلومات فان واجب العمليات السرية لا يكون قد انتهى ، فالمعلومات السرية فى الواقع قوة ولكنها قوة فى موقف (نزاع) أو (تنافس) ولكن هذه القوة لا معنى لها فى مثل هذا الموقف الا اذا استخدمت (ضمنيا) أو (مباشرة) لتحقيق أهداف مرغوبة ، وهذه الاهداف فى الحرب السرية هى تحقيق السياسات القومية ، ويتطلب هذا **تكيف الاسلوب الفنى لعمليات المخابرات السياسية تبعا للنزاع السياسى .**

ولكن هذا التكيف يواجه ويجالد encounter عقبات متعددة ، فكل عملية سرية تجىء بمعلومات ويتوقف تنفيذها على معلومات ، وفى الغالبية لا توجد عمليات مخابرات لا تأثير سياسى لها ... أو لا تكملة سياسية لها ، وهذه العلاقة المتداخلة أو بمعنى أدق هذا الارتباط بين المعلومات والسياسة يسبب عدم امكان فصلهما عن بعضهما بعضا حتى لو أريد هذا الفصل .

والغالبية العظمى لعمليات المخابرات السرية تتطلب فى مرحلة من مراحلها استخدام عميل أو عدد من العملاء يكون غرضهم فى العملية غرضا سياسيا ،وهم يعملون ضد أشخاص آخرين أو من أجل الحصول على شىء ما، وفى نفس الوقت فان العميل السياسى بالنسـبة للمعلومات مثله مثل الورق الذى يجتذب الذباب flypaper بالنسبة للذباب نفسه ، وفضلا عن هذا فان تطبيق الاصول الفنية (تكنيك) للعمليات السرية ـ الاصول المستخلصة من عمليات المخابرات ـ وتطبيقها على العمليات السياسـية ليعطل منها لو كان الذى يسيطر أو يتحكم فى العملية هو تكنيك المعلومات من أجل المعلومات نفسها ، ويكون الغرم هنا ـ نتيجة لهذا التعطيل ـ على حساب الاهداف السياسى ، وبالمثل فانه لا محل للارتباط فى عمليـات المخابرات السرية على قواعد أو أسس أو مبادىء سياسية ٠

وعلى سبيل المثال فانه لم يكن من الحكمة Impolitic ـ لو فى عملية كوبا سنة ١٩٦١ وذلك لو أردنا الاعتدال فى الوصف ، لم يكن من الحكمة محاولة اسقاط كاسترو سياسيا بوساطة السياسيين الكوبيين من الجناح الايمن ، وكذلك بالمثل فانه ليس مما يكفى أن تقصر مصادرنا للمعلومات عن كوبا قاصرة على الكوبيين من الوسط ومن الجناح اليسارى ، ففى الحال الاولى تتعرض الاغراض السياسية لخطر كبير ، وفى الحال الثانية تهمل معلومات كبيرة القيمة ٠

ومع ذلك فان المصلحة القومية تتطلب أن نستخدم الثلاثة معا ، فكيف يمكن أن ننسق بينهم ؟ وبخاصة عندما يعترض سياسى من الجناح اليسارى متعاونا فى عملية سياسية ـ يعترض على استخدام سياسى من الجناح الايمن فى عملية مخابرات على أساس أنها تتضمن (تشتمل ضمنا) على تعضيد سياسى للاخير ؛ ان هذه المشكلة فى العمليات السرية مشكلة دائمة لا معدى عنها ولم تستطع خدمة سرية أن تحلها حلا صحيحا بعد ؛ وفى الولايات المتحدة لسوء الجد كان الحل على حساب جانب المعلومات من أجل المعلومات نفسها ، وكان هذا خسارة كبيرة لعملياتنا السياسية ولقوتنا ولمكانتنا وسمعتنا ٠

وسنناقش هذه المشكلة تفصيليا فى صفحات قادمة ٠

٣

الجاسوس وسيده

فى تشبيه العمليات السرية بالاخطبوط يبدو بوضوح أن المجسات هنا Tentacles هى سلسلة من العلاقات البشرية تربط معا كل اتجاهات العمليات حتى الى أبعد عميل منعزل فى مكان سحيق ، والعضلات التى توجه كل من هذه المجسات هى بدورها عبارة عن التطابقية ، التوافقية Responsiveness عن النظام الذى يميز كل واحدة من هذه العلاقات التى فى السلسلة ٠

وفى كل هذه العلاقات التى تتضمن بلا شك عدة خدمات معاونة مثل التموين والمواصلات والادارة توجد علاقة هى فى صلب وقلب العمليات السرية ، وهى علاقة حرجة بل هى التى تقرر فى الكثير من الاحوال نجاح أو فشل العملية ، تلك هى العلاقة ــ التى يقال لها فى « المصطلحات الامريكية » ــ العلاقة بين « العميل » و « ضابط الحالة » ٠

فالعميل هو الذى يعمل وهو الذى يتصل مباشرة بالعدو، «بالمعارضة» والعميل متعرض للانظار ، مكشوف ، وهو يعمل « فى الخارج » Outside أى خارج رياسته فى حقل العمل وميدانه ، « وضابط الحالة » Case Officer هو الذى يوجه العميل ولكنه غير مرئى ، غير مكشوف ويعمل « فى الداخل » inside ، والعلاقة بين الاثنين هى دعامة كل العمليات السرية ٠

ويمكن أن تعرف أغلب الروابط البشرية والتنظيمية فى العمليات السرية وأن تميز أساسيا في حدود هذه العلاقة الرئيسية ، ومن الممكن على سبيل المثال أن ننظر الى كل « الكيان الداخلى » لادارة المخابرات العامة الامريكية CIA على أنها « ضابط حالة » جماعي ، وأن كل أولئك الذين يعملون فى « النطاق الخارجى » على أنهم يكونون فى جملتهم «عميل» واحد جماعي ، ولكن مثل هذا التصور فى الواقع لا معنى له ، وذلك بسبب أن هذا التصور مهما كان دقيقا فان لا يمثل أى فكرة فى تباين وتعقد العناصر الفردية التى تحكم هذه العلاقة ٠

والشيء المتضمن هنا هو قدرة « ضابط الحالة » على ضمان تقدم أعمال « العميل » نحو أغراض العملية ، وان لا يعطل أى عمل من الاعمال التى يقوم بها العميل من ادراك هذه الاغراض ، وان « العميل » يبذل أقصى جهوده وافضلها ، ومن الواضح أن هذا يتطلب سيادة وسيطرة « ضابط الحالة » على « العميل » ، وتدعم امكانيات هذه السيطرة من البداية بحقيقة أن « ضابط الحالة » يمثل السلطة التى تحدد أغراض العملية ، ثم أنه يسيطر على الموارد التى تجعل العملية ممكنة مستطاعة ، ولكن الويل كل الويل « لضابط الحالة » الذى يعتمد فقط على هذين العاملين لتحقيق سيادته وسيطرته ، فهو بعمله هذا انما يسبب أن يفقد العميل ثقته فيه ، كما يقضى على الرغبة فى العمل والتى يجب أن تتوافر فى العميل نفسه ، ان العاملين متشابكين معا فى نطاق هذه العلاقة ، وهى (العلاقة) اذا ما تطورت تطورا صحيحا فى الظروف البشرية فان الاستخدام البين القاطع لهذين العاملين لا يكون ضروريا أو أن يستخدم لاقل ما يمكن ٠

وهنا فى هذه النقطة يكمن الضعف الامريكى ، فلقد رأيت المرة بعد المرة بعض الامريكيين « ضباط الحالة » يلجأون الى قطع النقود عن عملاء لا رغامهم على أن يخضعوا للنظام الذى فرضوه هم ٠

وأحد مؤثرات هذه الوسيلة ــ لو نجحت ــ هو أن تجعل من العميل مجرد شخص يتقاضى « معاشا » ، ومن الممكن فى عمليات الجاسوسية أن تكون النتيجة تلقى معلومات لا يعتمد عليها ، وفى العمليات السياسية تكون النتيجة وبالا خطيرا ، وكما قال منفى كوبى فى غضب عند حديثه عن المخابرات الامريكية بعد عملية كوبا ٠ « ليست لدى هؤلاء الناس أى فكرة عن العمل مع حلفاء سياسيين أنهم يفكرون على أساس الدولارات فقط » ٠

وفى الغالبية يسمح بأن تكون المرتبات هنا مبطلة Irritant للعلاقات بين ضابط الحالة وبين العميل بسبب شكوك الامريكان من ناحية المال ولخوفهم دائما من أن يكونوا بقرة تستحلب ، ومهما كانت فكرة عامة الشعب عما تفعل المخابرات فى الميزانية الضخمة التى لها والمبالغ التى تنفق (دون فواتير) ، فالحقيقة أن وراء كل « ضابط حالة » عدد من رجال الحسابات يدسون أنوفهم بشغف للوصول الى سنت واحد يكون قد وجه توجيها خاطئا ٠

ومنذ سنوات كان أحد العملاء المهرة ذوى الكفاية يعمل فى عمليه سياسية أمريكية معقدة ، وكانت العملية تتطلب ارسال الكثير من البريد وقد أعطى ميزانية خاصة لتغطية نفقات البريد ، وكان مركز رياسة هذا العميل فى مؤسسة أمريكية للتغطية ، وفى بداية العملية وقبل أن يتسلم هذا العميل الميزانية التى وعد بها اضطر للتغيب عن مركز رياسته لمدة عشرة أيام ، فأمر سكرتيره بالابقاء على سير المراسلات مستخدما آلة ختم الطوابع التى فى المؤسسة على أن يحصى عدد الطوابع التى كان يجب لصقها على المراسلات ويسجل هذا حتى عودته ، وفى أثناء غيابه هذا شكا رجل الحسابات فى المخابرات من أن هذا العميل يستخدم آلة ختم الطوابع فى المؤسسة دون أن يكون هذا من حقه ، وفور هذا ودون أن يطلب منه تفسير سبب عمله ، طلب رجل الحسابات من (ضابط الحالة) أن يلغى العملية ٠

وعندما قص على العميل هذه القصة بعد ما يقرب من عام كان لا زال يسدد الديون التى احتملها نتيجة لهذه العملية ، ولم يكن الرجل متحمسا بحال ما للتعامل مع الامريكيين ، ولقد قال الرجل معبرا عن وجهة نظره : « كل كاتب حسابات فى تنظيمكم انما هو بمثابة القيم Comptroller × ، وكل عميل يجب أن يكون كاتب حسابات » ٠

وفى الغالبية فان الصعوبة الامريكية أيضا فى العلاقات بين « العميل » و « ضابط الحالة » لتعكس فى بساطة الاقتراب الوظا تفىء للمشكلة ، وللنفوذ المتفاوت Disproportionate « لسحر الصنم » Fetish الذى للادارة فى العمليات الامريكية ٠

ولقد كنت ذات مرة متوليا لعملية مشتركة انجليزية ــ أمريكية تماثل فى طبيعتها عملية كوبا ولكنها كانت أصغر وأكثر تحديدا فى المدى والسعة (ولقد فشلت هى الاخرى بخسارة بعض الارواح ولكن فشلها على الاقل لم يخرج علانية للناس) وعندما كنت لا أزال أفكر فى الاشخاص الصالحين للعمل فلقد كانت المنطقة غريبة بالنسبة للامريكيين وكان القليلون منهم هم الذين يعرفون شيئا عنها ، وقد دعيت لحضور مؤتمر عنها فى واشنطون ٠

× تهجئة أمريكية خاطئة لكلمة *Controller* وهى تهجئة القيم ـ المراقب ـ مفتش الحسابات ٠

وعندما دخلت الغرفة التى سيعقد فيها المؤتمر لاحظت لوحة كبيرة على الحائط رسم عليها تنظيم كبير ضافى الذيول ، ووقف زميل لى لم أكن أعرف أنه معنيا بالمشروع، ثم بدأ حديثه بعد أن أشار الى اللوحة بأصبعه :

« لقد وضعت هذا التنظيم وسترون أننا فىحا جة الى ٤٥٧ شخصا للعملية » ٠

ثم راح يتحدث لمدة ٤٠ دقيقة دون أن يذكر لمرة واحـدة شيئا عن البلاد التى ستجرى فيها العملية ، وقد اكتفيت بأن ذكرت أننا لن نستطيع الوصول الى ٤٥٧ شخصا وأنه ليسعدنى لو استطعت العمل مع ستة عقول فقط ٠

ولابراز الفرق فى التفكير ، فلقد ذهبت الى لندن بعد أسبوع واحـد من أجل هذه العملية جلسنا حول منضدة نتباحث لساعة أو ساعتين وفجأة قال أحد الانجليز لماذا لا تستدعى هنرى الشيخ أنه يعرف الكثير عن هذا البلاد ، وبعد يوم أو يومين جاءوا بهنرى من قرية فى « ساسكس » وعندما عرضت عليه المشكلة وافق على تولى العملية ولكنه قال بأنه سيتولاها على شريطة الاستعانة بستة أشـخاص فقط ذكر أسـماءهم وأن يكون هؤلاء مسئولين أمامه وحده مباشرة ٠

* * *

وفيما عدا العناصر البشرية فى العلاقة فان احدى الآلات الرئيسية التى فى يدى « ضابط الحالة » لايجاد السيطرة على « العميل » وللمحافظة على هـذه السـيطرة هى : « المعرفة » ، فضـابط الحالة تتوافر لـه موارد من المعلومات يجب أن يستغلها وأن ينتفع منها ، والمعرفة (المعلومات) قوة وهى بلا شك تعطه اليد العليا على العميل ٠

ومن الواضح أنه لا يجب أن تتصـادم سـلطتا « ضابط الحالة » و « العميل » ومعنى هذا ــ فى هذه المرحلة من الحديث ــ أن اتصـالات « العميل » بالمنظمة يجب أن تقف عند حد « ضابط الحالة » وحده ، والواقع أن هذا مستطاع فى عمليـات الجاسوسـية ولكنه صـعب فى العمليـات السياسية ، **وفى الكثير من العمليات السياسية الامريكية يتصل العملاء ــ**

وهم فى الغالبية حلفاء سياسيين الا أنهم من ناحية الاصطلاح الفنى الصحيح عملاء فى عملية سرية ـ يتصل هؤلاء بعدة آفراد فى المخابرات الامريكية بل وبعدد آخر من موظفى وزارة الخارجية ٠

واحتمالات الخطورة فى مثل هذه المواقف لا حصر لها ٠

ومهما كانت الصعوبات الاخرى الخاصة بهذا فان المرء ليجب أن يعطف على موقف ريتشارد بيسيل Richard Bissell نائب مدير المخابرات الامريكية والذى تولى عملية كوبا سنة ١٩٦١ ومعاونيه عندما وضح أن أعضاء مجلس الثورة الكوبية كانوا يستطيعون فى سهولة ويسر الاتصال بادولف بيرل Adolf Berle فى وزارة الخارجيـة وبارثر شـلسنجر Arthur Schlesinger من رجال البيت الابيض ٠

وفى عملية تختلف تماما عن هذه شعرت وكأن الارض تميد من تحت قدمى بسبب تعدد الاتصالات ، فبعد محادثة استكشافية مع عميل يحتمل استخدامه لم يتقبل العميل شروطى لعقد اتفاق معه ، وبعد عدة أيام ذهب الى وزارة الخارجية وذكر لموظف كبير هناك اسمى وحدثه بما تبادلناه من أحاديث ، وبسرعة قال هذا الموظف الكبير : « ان المحادثة التى دارت بينك وبين مستر فليكس محادثة غير رسمية لم يكن مكلفا بها » ٠

ولم أعرف بعد هل قصد الموظف أن يوهم العميل بأنه لا يعرف بمثل هذا الامر السرى ويلومه لانه حدثه به أو أنه أراد أن يخرب العملية ، وعلى أية حال لم يكن أمامى الا أن انفض يدى من العملية تماما ٠

ومهما كانت الحاجة الى أن يسيطر « ضابط الحالة » على العلاقة مع العميل فان هناك عدة عوامل رئيسية تعطل هذا وذلك لشىء واحد هى أن العلاقة ليست علاقة بين مستخدم وصاحب عمل وبخاصة فى العمليات السياسية ولا هى علاقة عسكرية بين رئيس ومرؤوس ، وانمـا هى من الناحية النظرية البحتة علاقة بين السيد وخادمه ، ويكون « ضابط الحالة » هو السيد والعميل هو الخادم ٠

« فضابط الحالة » هو الذى يحـدد الاغراض ، فيطيع العميل هـذا التحديد دون أى جدل من جانبه ، ويضع العميل مهارته كلها تحت تصرف « ضابط الحالة » ٠٠ ، ولخدمة تحقيق هذا الاغراض التى حددها الضابط ،

ومن الواضح أن لا علاقة بشرية يمكن أن تحقق مثل هذا التجرد العقيم المجدب .. أو أن تحرر هذا الطابع المتناهي الاصالة من سلامة الطوية ، وقد يكون النظام العسكرى محاولة لادراك مثل هذه العلاقة ، ولكن كل ضابط جديد على الخدمة العسكرية لا يلبث أن يتعلم بالمران والتجربة أن اصدار الاوامر ليس وسيلة كافية للقيادة لتكون قيادة حقة مؤثرة .

ولكن الى أى مدى أكبر يمكن أن يكون هذا حقيقة فى العمليات السرية التى تتواجد فى مجال غير معترف به والتى هى نوع من عالم منغمر فى الظلال يدرك بالاستنتاج Tacitly وان كان هو مع ذلك حقيقة كاملة الا أنه لا تطبق فيه القيود المقبولة والقيم التى للعلاقة التقليدية ؛ بل والى أى مدى تكون أكثر حقيقة فى العلاقة بين « العميل » وبين « ضابط الحالة » مع تقدير ما لم يمكن تجاهله من أن « العميل » هو الذى يعمل ، ومع تقدير أنه الى هذا الحد يكون « العميل » حرا طليقا فيمـا يعمل فلا يسـتطيع « ضابط الحالة » أن يتواجد ليسهم فى العملية التنفيذية بنصيب ما ولا أن يقوم بالاشراف الفعلى على العميل فى منطقة العمل فعلا ، واعتماد رجل على رجل آخر الى هذا الحد لا يجعله هذا الاعتماد فى موقف جيـد حقـا لسيطرة على العلاقة فيما بينهما .

ان هذه المشكلة القاعدية basic problem لتثبت ولتقوى بحقيقة أن الاتصالات بين ضابط الحالة وبين العميل هى فى الغالبية قليلة ضعيفة الى حد كبير highly tenuous ، فقد تكون الفواصـل الزمنيـة بين اجتماعهما معا طويلة ، وقد تكون وسائل الاتصال بينهما ليست أكثر من اشارات عارضة بالراديو ، وفى الكثير من الاحوال عندما يكون الاتصال أكثر مباشرة من الراديو فان الاتصال الشخصى بين « ضابط الحالة » وبين « العميل » اما أن يكون نادرا واما أن يكون « غير موجـود » ، فاذا كان لا وجود له كان الاتصال بينهما يتم عن طريق « الوسطاء » Cut-outs

« والوسيط » أى أل (Cut-out) هو شـخص ويكون هو الآخر (عميل) يعمل كوسيط بين « ضابط الحالة » وبين « عميله » .

ويخدم هؤلاء « الوسطاء » واحدة من أوكلا وظيفتين كبيرتى القيمة ، ويمكن هؤلاء الوسطاء من تيسير « الاتصال الشفوى » Oral Contact بين ضابط الحالة وبين العميل عندما يكون فى التقائهما خطورة ، ويكون من غير المرغوب فيه تبادل المكاتبات ، ويسـتخدم الوسـطاء أيضا فى

المواقف التي يراد فيها أن لا يعرف العميل حقيقة ولا مظهر شكل وسمات ضابط الحالة أو العميل الرئيسي ، وأن لم تكن العادة الغالبة أن لا يعرف العميل الشخصية الحقيقية لضابط الحالة أو العميل الرئيسي ، وفي احدى أعمالي أمكن تجنب الكثير من المضايقات نتيجة لان العميل لم يكن يعرف شخصيتي الحقيقية كضابط للحالة ... بل ولم يعرف كذلك الشخصية الحقيقية للوسيط الذى كان يعمل فيما بيننا ، فبعد بضعة أشهر من الاتصال به واعطائه بعض النقود وتحديد مهمته له وذلك كله عن طريق الوسيط ... بعد أشهر قليلة من هذا تحول هو الى جانب الروس ، وكل ما كان يستطيع أن يقوله لهم ، هو أن رجلا اسمه « مايك » قد اعطاه تعليمات ونقود للقيام بمهمة نيابة عن رجل آخر اسمه « راى » لم يراه قط ، ولم تكن هذه خسارة جسيمة .

وعندما تسنح الظروف فان « الوسيط » قد يكون « مكان اسقاط للرسائل » فى الطابع الذى توضحه كله Drop ، **وكلمة** Drop **تعنى الشخص أو المكان الذى يمكن فيه تبادل المكاتبات فى سلامة وأمن دون حدوث اتصال شخصى** ،(العادة أن يقال له Mailbox أو Postbox × وهذه الوسيلة فى الواقع فرصة لابراز الابتكار ، **وأحسن وسيلة حديثة هى ارسال تذكرة فى مسرح أو سينما للعميل ، ويكون الجالس الى جواره هو نفس ضابط الحالة أو عميل آخر ولكن العادة أن الذى يكون فى المقعد المجاور هو « الوسيط » ، ويتم تبادل الوسائل فى الصالة المظلمة أثناء التمثيل أو العرض دون أن يتبادلا أى كلمات .**

وعندما يكون فى الاتصال الشخصى خطورة أو يكون من غير السياسة اجراء هذا الاتصال فان خير وسيلة ايجاد «ملجأ آمن» Safe House ، **وكلمتا** Safe House **تعنيان المكان الذى يمكن أن يتم فيه الاتصال الشخصى تحت الظروف والاحتياطات التى تقلل من الخطر ؛ ولقد كانت المواخير أصلح مكان لهذا ، بل جاء وقت كانت هى المكان التقليدى ولكنها اليوم تعتبر من الناحية العملية شباك للاصطياد ذلك لان صاحبات هذه المواخير والفتيات اللاتى تعملن فيها قد أفسدن بوساطة البوليس حتى تحولن الى مرشدات ومبلغات .**

× راجع ص ٦٢ من كتاب « صناعة المخابرات » بقلم آلان دالاس اصدار الهيئة فى اكتوبر ١٩٦٣ .

وتنشأ صعوبة أخرى عن عملية « التجنيد » للعملاء Recruiting ، والحقيقة أنه في الغالبية تجيء المبادأة من « العميل » ، فهو يقترح برنامج للعمل يكون هو ــ أو يزعم أنه هو ــ قادرا على القيام به ، ويكون بهذا يعرض مهارة خاصة متوافرة له وكنتيجة لهذا يكون فى وضع يمكنه من المساومة ، ويستطيع أن يتفاوض ولو فى حدود صغيرة ٠

وفى « العملية فى المجر » × كانت سلسلة تهريب اناس من اقتراح عميل واحد هو الذى اقترح على تنظيمها فى وقت كان من الممكن له أن يحذر وأن يدرك من ملابسات الحال اهتمامى بانشاء مثل هذا التنظيم ، وكان بهذا يستطيع أن يتفاوض معى على الشروط التى يستطيع تبعا لها القيام بالعمل معا ، وكان كل ما في استطاعتى أن أساوم على أساسه هو قدرتى على اسقاط اقتراحه وهذا أمر ضد مصلحتى ولا شك ، على حين أن العميل باعتباره هو صاحب الاقتراح كان طاقته كامنه فى قوة الابتكار والمبادأة وما هــو له ٠٠٠ أو ما يزعمه لنفســه ٠٠٠ من ميزة الصلاحية للعمل دون غيره ٠

ومن جهة أخرى لو جاءت المبادأة من جانب « ضابط الحالة » والذى يكون قد توافرت له الفرصة فى اختيار أصلح شخص موجود للقيام بهذه المهمة فان ميزة العميل بالصلاحية دون غيره للعمل تكون شيئا مسلما به ولا سبيل للنقاش فيه ؛ على أنه لو سمح « ضابط الحالة » لنفسه أن يشعر بضجر وقلق تجاه هذه الحقائق القاعدية وحاول أن يعمل بخرق وحماقة لكبتها فان العلاقة بينهما تتعرض للنفاق والرياء من البداية بدلا من توافر الثقة بينهما الطابع الذى يجب أن يسود العمل والتعاون بينهما ، ويواجه ضابط الحالة والعميل خطر أن يسلكا مسلك زوجين ثائرين كل منهما يحاول جعل الآخريشعر بأنه لا غنية له عنه ، ويشغلهما هذا الامر العارض عن الاغراض الحقيقية لمهمتهما فى الحياة ٠

وتوجد بلا شك وسائل للتغلب على بعض هذا الافضليات الاولية التى تكون فى جانب العميل ، وقــد حقق الاجراء الامريكى لونا من ألوان « الغش » ، ولا معنى آخر غير هذا يصلح لما كانت تقوم به ادارة المخابرات المركزية الامريكية لتجنب هذه المشكلة ٠

× هى « المسافر السابع والخمســون » بقلم كريستوفر فليكس وسننشرها ضمن هذه السلسلة ان شاء الله ٠

فعندما يكون أمام المخابرات الامريكية مهمة لها طابع خاص فانها تبحث عن أفضل رجل للقيام بهذه المهمة ... فاذا ما انتهت الى اختياره بدأت دراسة شخصيات أصدقائه وفي الغالبية أن تصل الى أحد أصدقائه فان لم يقم هذا الصديق بعملية التجنيد فان الموظف الذى قام بالبحث يقوم بعملية الاقتراب منتفعا بهذا الصديق ، وتستخدم كذلك تكتيكا آخر فيقوم بعملية الاقتراب « موظف كبير » وقيام هذا الموظف الكبير أن لم يكن يعتبر نوعا من المداهنة والمراءاة فهو على الاقل دليل على الثقة .

ولكن من سوء الحظ أنه في الاغلب الاحوال لا يتم التنفيذ ... ولقد قص على صديق أنه ضحى برفض القيام بأى اتصال نيابة عن المخابرات ذلك لانه لعدة مرات قد طلب منه الاتصال ببعض أصدقائه ذوى المكانة ولكن المخابرات لم تتابع هذه الخطوات وتترك الناس فى انتظار تعليماتها التى لا تجىء .

وقص على صديق آخر سندعوه « فرانك » تجاربه فى هذا الميدان ، فلقد عمل مع المخابرات لسوات طوال ثم تركها قانعا عن هذا الترك ، وبعد ثلاث سنوات اتصلوا به ليكون عميلا للمخابرات فى مهمة كان من الضرورى أن تقلب رأسا على عقب تخطيطا هاما لعمل سيقوم به ، وقد أوضح لرجال المخابرات هذه الصعاب ولكنه مع هذا قال بأنه يود القيام بمعاونتهم لو اخطروه برأيهم النهائى فى مدى أسبوعين بسبب الاهمية التى يعلقونها على معاونته لهم .. ولكنه لم يسمع منهم أى شىء بعد ذلك .

وبعد سنتين كان فى حفل كوكتيل وكان يتحدث الى أحد الوزراء عندما دخل آلان دالاس مدير المخابرات العامة فقال له الوزير : آلان ألا تعرف فرانك ؟ .

وهنا قال آلان دالاس :

« بلا شك أعرفه ، لقد كنت أحاول الوصول اليه طوال السنوات الخمس الماضية ليعود للعمل معنا ولكنى لم أوفق لمعرفة أين هو ؟ » .

وقد قص على صديقى القصة ضاحكا وهو يقول :

ان المخابرات المركزية ادارة كبيرة والناس هناك فى شاغل بالاحداث المتلاحقة وآمل أن لا يكون الأمر أسوأ من هذا ..

* * *

وناحية أخرى من الصعاب الرئيسية فى العلاقة بين « ضابط الحالة » وبين « العميل » **هى مسألة « الاغراض »** Objectives

فضابط الحالة يتلقى «أغراضه» من سلطة أعلى ، وتكون الاغراض عادة (نواحى) من السياسة القومية أو من المصالح القومية ، وفى ضوء هذا فانها عرضة للتغيير ، ولكن العميل من جهة أخرى قد حدد أغراضه ، ومساهمته أو اشتراكه فى العملية على أساس تحقيق أهداف معينة تتوافر له الموهبة الشخصية للقيام بها فأى تغيير يربك العميل ثم أن الاغراض أو الاهداف التى يعرف العميل قدرته على القيام بها هى عادة أقل مرونة .

والعميل قد **أختير** لعملية خاصة بسبب قدرته على ادراك أغراض « ضابط الحالة » ، **ولكن من النادر أن تكون الاسباب التى رضى العميل لاجلها بالقيام بالعمل متماثلة تماما مع الاسباب التى لدى « ضابط الحالة » .**

وقد يحدث بعض التوافق ولكن يجب أن يقدر ضابط الحالة اذ ذاك بعناية ما اذا كانت الاسباب التى لدى العميل والتى لا تتوافق ولا تتطابق مع الاسباب التى لديه يمكن أن لا تكون مصدرا للنزاع مستقلا فى لحظة حرجة .

وقد تتوافر مصلحة مشتركة ، ولكن هذه الكلمات نفسها تعنى أن يزن « ضابط الحالة » امكانيات تحقيق غرضه بالرغم من حقيقة أنه توجد أحيانا فى المصلحة المشتركة بعض اتجاهات يجب أن تمر بمرحلة المفاوضة ، ولكن هذه المفاوضة يجب أن تجرى فى الغالبية على حساب قدرة « ضابط الحالة » للسيطرة على العملية ، والسيطرة على العلاقات التى بينه وبين العميل ، وكل ما يجب أن يعمل له « ضابط الحالة » الحكيم العاقل هو أن يصل الى توافق (وتهادن) بين الاسباب الدافعة وراء اشتراك العميل .. والاسباب الدافعة الموجودة لديه هو ...

ولتحقيق هذا فان « ضابط الحالة » يجب أن يعرف أكثر ما يمكن من المعلومات عن العميل وأهدافه ، ولكن الناس لا يعلنون صراحة وفى وضوح عن أغراضهم وأهدافهم ـ وبخاصة اذا كانوا هم أنفسهم يجهلونها ،فقد تكون الدوافع وراء العميل نفسه مجهولة منه لايدرك كنهها وان كان يتأثر بها ، ويستطيع «ضابط الحالة» أن يدرك كل هذا من دراسته لتاريخ العميل، ماضي حياته ، اتجاهاته فى الحياة ، العوامل التى أثرت فيه بضغط البيئة الاسرية أو الظروف العاطفية أو المعيشة ، وهذه المعرفة الدقيقة كما أنها تعاون فى السيطرة على العميل، فانها تعاون على التدبر فى التخطيط والتنفيذ للعملية عندما يستطيع « ضابط الحالة » أن ينسق ما بين اتجاهاته وأهدافه والعوامل المؤثرة فيه هو ونفسه ، وبين هذه الاتجاهات والاهداف والعوامل التى عرفها عن العميل ٠

وتترتب الاغراض التى يعمل لاجلها العميل فى ترتيب تصاعدى هى :

المال ـ الاكراه أو الغصب ـ الكسب الشخصى ـ الاطماع ـ التعضيد السياسى ـ الشعور بأن العمل واجب ٠

والعملاء الذين يعملون من أجل المال وحده تجدهم على التحقيق فى مدن مثل : فينيا ـ بيروت ـ هنج كنج ـ زيورخ ، المدن التى تعتبر مراكز للمعلومات ولمناورات الحرب السرية بين الجانبين المتضادين ، وهذه المدن مليئة بالناس الذين يكسبون عيشهم من بيع خدماتهم لكل من يستطيع أن يستخدمهم دون أى تفكير فى جنسية من يخدمون ، وهم كعملاء يجب أن نعرف على التحقيق أنهم أما أن يصلوا حقا الى ما يطلب منهم من معلومات واما أن يزوروها ويدلسوها عن قصد متعمدين هذا الخداع والتضليل ، والاهم من هذا أنه يجب أن يفترض بأن العميل الى جانب من بدفع أكثر ، وكذلك من الضرورى أن يفترض بأن الذين يدفعون أكثر هم المعارضة ، وفى الفترات التى تصحب الاضطراب أو الانتقال العنيف على مثال ما حدث فى أوروبا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية فان العملاء الذين يعملون من أجل المال كانوا قادرين على النجاح فى عملهم، فالشبكات التى كانت موجودة أيام الحرب قد تبعثرت والعلاقات القديمة قد تغيرت وطوابع الحركة والاتصالات قد تفككت وفى مثل هذه الظروف تضطر الخدمة السرية ـ لنقص كل شىء أن تبتاع أى عميل ٠

وكذلك الحال فى العمليات المحدودة جدا التى تحتاج مهارة خاصة أو التى تحتاج معرفة محلية مثل دليل فى منطقة جبلية أو فى القابات أو القيام برحلة سرية فى قارب أو عند محاولة اجتياز حدود سياسية أو عند الرغبة فى الحصول على وثيقة خاصة من ملفات سرية ففى كل هذه الاحوال يجب استخدام عميل مأجور ، ولكن العادة أن الخدمة السرية تتجنب الى غاية ما يمكن استئجار العميل الذى يعمل من أجل المال فقط ، ومن النادر أن كشف محاكمة أى عميل سوفييتى فى الغرب عن أن مبالغ كبيرة قد دفعت (كانت قضية فاسال وحدها شاذة عن هذا الحكم العام) ـ وليس هذا لان السوفييت بخلاء Penuriou **فى مثل هذه الشئون وانما بسبب أنهم يلاحظون بدقة المبدأ القائل بأن العميل المأجور هو آخر من يجب الرغبة لاستخدامه .**

واكراه الفرد بالقوة والغصب ليكون عميلا سريا له عدة صور واحدى هذه الصور « **التهديد بالتشهير** » والسوفييت يحبون هذا النوع من الوسائل ، **وليس الامر وقفا على المسائل الجنسية الشاذة أوغير الشرعية منها** ، والحقيقة المؤسفة أن السوفييت يعرفون أن الامريكان وبدرجة أقل الانجليز يخافون هذه الفضائح ومن ثم يستسلمون ، وقد قص على زميل أمريكى أنهم عندما عرضوا عليه عدة صور له مع امرأة غير زوجته فى أوضاع فاضحة ، الهمته أعصابه القوية لأن يقابل التهديد بأن طلب شراء دستة من هذه الصور ، وكانت النتيجة أنه لا هو ولا أى فرد من أسرته قد سمع ثانية بقصة الصور مع المرأة المغواه .

وفى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية مباشرة استطاع السوفييت أن يجندوا عددا من العملاء فى أوروبا من بين الفاشيين أو المتعاونين مع الالمان اما بالتهديد بالكشف عن ماضيهم واما بالوعد بتأمينهم ضد الاعتقال والمحاكمة والاعدام وذلك تبعا لمدى امتداد سلطة الشيوعيين الى البلد الذين يعيشون فيه .

ومن الوسائل المفضلة لدى السوفييت « الرهائن » hostages ، ويرغمون العميل على العمل فى خدمتهم بتأثير احتفاظهم بأسرته فى أيديهم وراء الستار الحديدى ، ومن المسائل الغريبة فى سلوك السوفييت أنهم ينفذون وعودهم تجاه الرهائن من اطلاق سراحهم من السجون أو المعتقلات أو منحهم امتيازات خاصة أو حتى اخراجهم من وراء الستار الحديدى على حين أنهم لا ينفذون أى وعد يقطعونه على أنفسهم تجاه من يستخدمون بالغصب نتيجة لتهديده بالتشهير به .

والاكراه ليس وفقا على السوفييت ففي كثير من دول غرب أوروبا حيث يعيش لاجئون أجانب في حاجة ملحة للمعاونة أو على الاقل للايواء ، فان هؤلاء يفهمون أن تيسير العمل لهم والسماح لهم بالعيش والبقاء في البلاد موقوف على قيامهم بانتظام بما يصل اليهم من معلومات .

والفكرة فى تفضيل السوفييت لهذا الاجراء هو أن الشخص الذى يخاف العقاب يفتقر على التحقيق دائما لقوة المبادأة أو الابتكار ، ولكن الواقع أن هذه الحال النفسية تجعل هذا الشخص دون ما شك لا يستطيع أن يستخدم ذكاءه وامكانيته الى أقصى ما يمكن ، **والنقص الهام بالنسبة لهذا العميل الذى كان يستخدم بالاكراه والغصب هو نقص الثقة به والاعتماد عليه ، ومن الممكن دائما أن يتحول هذا العميل لخيانة من يستخدمه ، بل من المؤكد أنه عندما يكشفه الجانب الآخر فانه يتحول للعمل معه ضد من يستخدمونه .**

أما العميل الذى يكون الدافع له هو الكسب الشخصى فانه أشبه ما يكون بالعميل الذى كل ما يهمه هو المال ، وهو يشبهه فى أن الثراء الشخصى هو الهدف المطلق ، ولكنه مع هذا يختلف عنه فى أن مرماه أوسع مدى وذلك لانه يعرف ويعمل على أساس أن المعلومات قوة ، وهو يقصد ويعتزم أن يحول هذه القوة الى نفع شخصى ، ولكن من النادر جدا أن يكون هذا النوع من العملاء (غشيما) خاما الى حد أن يأمل فى الحصول على الكسب نتيجة لاحتمالات الاغتصاب بالتهديد لما تمنحه له العمليات السرية من فرصة لاجراء هذا ، وهو فى الغالبية يعتمد على اشتراكه فى عملية سرية قد تمكنه من الوصول الى معلومات غير ميسور الحصول عليها الا بهذه الوسيلة أو أن تضعه فى وضع اجتماعى يمكن أن يحصل منه على نتيجة طيبة ، وهذه النتيجة الطيبة تقاس عادة بالنقود ، ولكنها قد تقاس أيضا بالنفوذ أو الوضع أو حتى مجرد الفرص ، ومن النادر أن يكون قصده هو الكسب من العملية نفسها بل على النقيض فهو عادة يقوم بعمله على أكمل وجه أما كسبه الشخصى فيجىء عن طريق جانبى بالنسبة للعملية ، أى أنه كسب « على الهامش » .

والقيود أو التحديدات على مثل هذا العميل من ناحية السيطرة ومن ناحية الصلاحية للاعتماد عليه « الاعتمادية ــ التواكلية Dependability واضحة جلية ، وذلك لان الكسب الذى يجىء على الهامش انما يعتبره هو الناحية الاهم فى الاتفاق وان كان هو لا يعترف أبدا بأن هذا الكسب هو

الارفع والاعلى أو أنه له الصدارة على كل ما عداه ، واشتراكه فى العملية لا يخلو من عامل الزور والبهتان ولهذا فان عدم ادراك « ضابط الحالة » لهذا الموقف ـ وتعويض العميل عن هذا الكسب ـ قد يؤدى الى أخطاء خطيرة ، هذا عدا أن مرونته أو خفة حركته قد تتأثر من هذا بسبب حقيقة تقيده وارتباطه بأغراض ليست هى أغراض العملية ، والاهم من هذا أن درجة الوثوق به والاعتماد عليه ـ ان لم يكن من الضرورى أن تقول اخلاصه وولاءه ـ لموضع التساؤل أيضا لنفس هذا السبب .

وقد يبدو لاول وهلة أن الطمع أو الطموح لدافع غريب يمكن أن يصحب عملية سرية ، وليس من الواضح ما اذا كان من الممكن أن يكون العمل فى ميدان مختفى عن أنظار الناس ودون مكافأة جمالية أو فلسفية يمكن أن يكون كافيا لارضاء الطمع أو الطموح ، ومع هذا فان هذا أو ذاك يلعب دورا طيبا فى الامر بسبب التطورات التى حدثت فى العشرين السنة الاخيرة ، فقبل الحرب العالمية الثانية كانت الحرب السرية محدودة المدى ، وكان محترفوها رجالا يؤدون خدمات كبيرة القيمة لحكوماتهم ، ولكن تأثيرهم كان محدودا الى حد كبير ، فالموظف الكفء يحترم وتطلب مشورته فى مشكلات مختلفة الطابع ، ولكن كحديث عام فان محترف العمل فى العمليات السرية لا يلعب دورا فى عملية اصدار قرار ، أما اليوم فقد تغير هذا كله فى كل العالم وعلى كلا جانبى الستار الحديدى ، والقوة الحقيقية تتركز فى التشكيل الاعلى للعمليات السرية ولا يقلل من تقديرها وأهميتها أنها لا تعلن لجمهرة الناس .

وفى البلاد الشيوعية يتولى الرجال الذين يسيطرون على العمليات السرية الوظائف الكبيرة فى الحزب ويشتركون فى كل القرارات الرئيسية. ومما يستحق الذكر أنه مع مرور الوقت سيحصل هؤلاء الرجال على المراكز الاعلى فى الحزب عن طريق تقدمهم فى جهاز العمليات السرية وليس العكس، لقد تحولت العمليات السرية لتكون عملا للحياة وطريقا مقبولا للسلطة فى الحكومة ، وجابوربيتر Gabor Peter رئيس هيئة أمن الدولة فى المجر A.V.O والرجل الذى نال شهرة كبيرة عندما كان يتولى حكما بالارهاب أدى الى أن وصل عدد ضحاياه الى عشرات الآلاف كان هو صاحب السلطة الكبرى فى الحكومة المجرية حتى سقوطه ، ولقد انفق كل سنى شبابه فى جهاز العمليات السرية للحكومة السوفييتية ، وحتى عشر سنوات قبل سقوطه كان « عابر خطوط » Line Crosser سوفييتى أنه كان يقوم

باتصال سرى مستمر بين « ضابط الحالات » السوفييت فى الاراضى التى يسيطر عليها الشيوعيون وبين العملاء الشـيوعيين فى الاراضى التى يسيطر عليها العدو ٠

على أن الوصول المطلق الى السلطة والقوة ليس محـدودا بوسـيلة ما بالسيطرة على العمليات السرية نفسها ، واثنان من رجال العمليات السرية الانجليز الذين تعاونت معهما فى عمليات سرية فى فترة ما بعد الحرب هما الآن من أعضاء مجلس العموم ذوى النفوذ ، واحد الذين عينهم الرئيس كنيدى فى مراكز السفراء كان قد برز فى واشنطون لعمله عدة سنوات فى المخابرات العامة الامريكية ، ولا يمكن لاى فرد له دراية بواشنطون فى الحقبة السادسة من القرن العشرين (١٩٥٠ وما بعدها) يستطيع أن يسقط من حسابه ثقل ضغط المخابرات الامريكية طوال هذه السنوات ٠

ولا يمكن لاى فرد على دراية بواقعية ما قال عنه س٠ رايت ميلز C. Wright Mills « زمرة أو صفوة القوة » ، أو ما لمسه ريتشارد روفر Richerd Rovere فى رفق لما وصفه « المؤسسة الامريكية » ، لا يمكن لاى فرد على دراية بهذا أو ذاك أن يسقط من حسـابه الضغط والنفوذ الذى تستطيع المخابرات العامة الامريكية أن (تضعه) تمارسه فى القطاع الخاص من المشـهد الامريكى ، ومن الممكن فى الولايات المتحدة أن ينقل « العملاء » الذين يعملون « فى الخارج » الى مراكز « داخلية » فى المخابرات العامة والعكس بالعكس مع مسير حياة الناس من هؤلاء وهؤلاء ٠

ولهذا فان الطمع أو الطموح قد صار دافعـا حقيقيـا للاشتراك فى العمليات السرية ، ومن الواضح أن هذا دافع (يعتمد عليه) لعميل أو لضابط حالة ، ولكن الشىء الوحيد الضار هو الطابع الضار فى كل نظام البيروقراطية الا وهى أن الرغبة فى التقدم تميل لتغطية دقة الحكم بسجف من الضباب ، كما أنها تعطل من قوة المبادأة والابتكار ، وأن تطفىء شعلة الرغبة فى المخاطرة والعمل دائما فى الطريق الاقل مقاومة ٠

والتعضيد السياسى عامل يركن اليه ويعتمد عليه بقدر كبير ولكنه فى الواقع دافع معقد تتباين صوره وتختلف ، فهو يعلو ويسمو (يبرز ويفوق) transcends صفات ومؤهلات القومية ، وهو محرك رئيسى فى الحرب السرية ذلك لانه (**التعضيد السـياسى**) لكى يوجد دافعـا يجب أن يكون هناك « **الاقتناع السياسى** » الذى يتم الوصـول اليـه فى اسـتقلال كامل

ونتيجة وعى شخصى ، وهذا يجعله يختلف بدرجة ملحوظة عن الوطنية (**حب الوطن**) Patriotism وان كان حب الوطن قد يكون عاملا فى الوصول الى **الاقتناع** السياسى ٠

والعميل أو ضابط الحالة الذى يعمل بدافع من حب الوطن لا يقال أنه يعمل على أساس اقتناع سياسى مستقل ، فهو حصيلة النظام الذى نشأ فيه ، وهو يتقبل فى جزء أعظم أو أقل ودون أى شك أو تحدى المبادىء أو المذاهب، هذا النظام وهو معد للعمل على أساسها ، أما الرجل الذى يعمل **لاعطاء أو للحصول على تعضيد سياسى** من جهة أخرى فانه يعمل على أساس اقتناع سياسى قد وصل اليه بشخصه وحده مستقلا عن أى فرد آخر ، والغرض الذى يهدف اليه غرض سياسى ولكنه هو الذى عرفه وهو الذى حدده ٠

وفى سنة ١٩٦١ اكتشف الانجليز أن موظفا فى وزارة الخارجية البريطانية كان فيما سبق قنصلا فى سيول أيام غزو قوات كوريا الشمالية لارض كوريا الجنوبية ، واكتشفوا أنه قد عمل لعشر سنوات متوالية عميلا للسوفييت ، كان الدافع له « التعضيد السياسى » الذى نشأ عن اقتناعه عندما كان معتقلا فى كوريا الشمالية بأن النظام السوفييتى يستحق النصر ٠

ولكن كان الامل الجدى ـ وان كان لم يكمل ولم يتم ـ هو الذى جعل جنرالات وعقداء الجيش الفرنسى فى الجزائر حتى قبل فورة أبريل سنة ١٩٦١ يعقدون علاقات مع المخابرات الامريكية ، كان الدافع لهم هو الحصول على تعضيد سياسى سرى من أمريكا ، ولقد حاولوا فى الواقع جهدهم أن يجعلوا الامريكان يؤمنون بأن أى حل لمشكلة الجزائر غير الحل الذى وضعوه هم يضر بمصالح الولايات المتحدة اضراره بمصالح فرنسا ، ولكن حتى قضاة المحكمة التى حاكمت الجنرال شال Challe وانصاره قد اعتبروا أن هؤلاء مواطنون فرنسيون مخلصون ٠

وأغلب الفرص التى تعرض للخدمات السرية للدول العظمى لانشاء شبكات جاسوسية نشطة فى دول أجنبية انما تجىء عن طريق مواطنى تلك الدول الذين يطلبون فى مقابل هذا تعضيدا لاغراضهم السياسية الوطنية ، وأغلب العملاء فى الشبكة التى كنت أتولى ادارتها فى المجر أثر

الحرب العالمية الثانية مباشرة كانوا يعملون بأمل معاونتهم فى الحصول على تعضيد أمريكى مؤثر ضد الشيوعيين المجريين وضد السوفييت الذين يشدون أذرهم ٠

ولكن التعضيد السياسى كدافع ليس من الضرورى أن يعنى تعاونا كاملا ، بل على النقيض فان ضابط الحالة الذى يستخدم عميلا كل دوافعه للعمل هى الحصول على تعضيد سياسى يجب أن يعرف تماما ، بل وأن يفهم بوضوح كامل ماذا يمكن أن يقدم هذا العميل ، وماذا يطلب كمقابل لعمله ٠

وعلى سبيل المثال لا الحصر فان الهيئة البولندية المضادة للهجرة الشيوعية تتكون من عدة هيئات سياسية مختلفة لها وجهات نظر متباينة فى الشئون البولندية الداخلية ، فالبعض يرون التعضيد الامريكى حاسم الاهمية لمصالح بولندة ومن ثم فهم يعانون فى العمليات السرية الامريكية ، وللبعض وجهة نظر مضادة بدرجات مختلفة ، وحتى أولئك التواقين جدا الى التعضيد الامريكى لا يتعاونون فى أى مشروع أمريكى يتضمن الموافقة على السياسة الامريكية تجاه مشكلات ألمانية معينة وبخاصة مشكلة الحدود بين بولندة وألمانيا ، ومن هذه الناحية فان كل المنفيين البولنديين يتفقون مع شيوعيى وارسو فى الاصرار على الاعتراف الكامل بخط الحدود (الاودر — نيسى) وهى مشكلة تقف الولايات المتحدة منها علانية الى جانب تأجيل اقرار هذه المسألة فى معاهدة صلح ٠٠ وبذلك فانها تبدو لكل البولنديين وكأنها تعضد فى الواقع مطالب ألمانيا الغربية لاعادة النظر فى الحدود ٠

* * *

وبالرغم من مثل هذه التحديدات والتعقدات التى تنتج استقلالا مؤكدا فى العميل فان العميل الذى يكون الدافع وراءه هو تطلب التعضيد السياسى هو العميل الذى يمكن الاعتماد عليه الى درجة كبيرة ، ثم أنه هو العميل الاكثر فراهة وحذقا والاكثر صلاحية وذلك لان عملية التحديد الشخصى لاغراضه تجىء بكلا الامرين : الاعتماد على النفس ، والحصافة والحذق ، ولهذا الدافع قيمته بخاصة عندما يكون العميل يعمله فى الخدمة السرية لوطنه اذ يتوافر فيه ما يقول عنه السوفييت : «الوعى السياسى» ٠

وفى خضم النزاع الدولى فى العصر الذى نعيش فيه تعتبر «القومية» عاملا جيدا للشعور بالواجب ، والشعور بالواجب من الدوافع عالية المستوى بالنسبة للعميل ، فهو يؤكد الاعتماد عليه ويزيل أى ضرورة للمساومة على الاغراض ، ولما كان تحقيق واتمام ما يتم فى نطاق الشعور بالواجب يجىء بالجزاء المرغوب فان العميل الذى يعمل فى ضوء هذا الدافع يتجرد من أى خداع فى موقفه ٠

ان الشعور بالواجب هو النفع الكبير الوحيد فى خدمة المخابرات الحربية ، وفى المدة التى سبقت الحرب العالمية الثانية كانت منظمة المخابرات الامريكية قاصرة على الجيش والاسطول وعلى عدد قليل من الضباط فى خدمة وزارة الخارجية ، ان هؤلاء الناس غير معروفين اليوم ، وكان ولاءهم للعمليات السرية معناه تضحيتهم بمستقبلهم كضباط فى الجيش أو الاسطول أو السلك الدبلوماسى ٠

ولكن هؤلاء الضباط ولا شك قد قاموا بخدمات جليلة كبيرة القيمة لوطنهم ، واتمام ما أحسوا أنه واجبهم قد تركهم عدا القليل جدا منهم قانعين راضين ٠

والعميل الذى يعمل فقط بدافع من الشعور بالواجب يواجه عاملا معطلا (معجزا) واحدا ، فهو تبعا لتقبله ـ دون سؤال ـ الاغراض التى عليه أن « يخدمها » ، فالذى يحدث أن لا يتوافر له تفهم أصيل لهذه الاغراض ، والى هذا المدى فانه فى بعض الاحيان يكون مفتقرا الى الشعور، كما يفتقر الى التفهم الافضل الكامل للظروف التى يجد نفسه فيها ٠

ولا ينغمر أى فرد فى عالم العمليات السرية كالطائر (الدالوع) يقصد اللهو والمرح ، فان المطالب أكثر صرامة وتزمتا ، والموضوعات أثقل وأكثر تعقدا من أن يكون الامر مجرد مغامرة ، ان بعض الرجال الذين يعملون فى العمليات السرية يتوافر فيهم شعور قوى بالمخاطرة والبعض يعملون ويتمتعون بشعور أنهم يطلعون على الاسرار Privy to Secrets ، والبعض يستمتعون بالرضى الشخصى نتيجة قدرتهم على العمل لخارج نطاق النظام العادى والمجتمع ، ولكن هذه شيم الحياة ، فهى كلها لا تعتبر أساسيا كافية لاتخاذ هذا السبيل ، وبعض الرجال والنساء ينغمرون فى العمليات السرية دون وعى أو ادراك ، فان سلسلة من الاحداث توقعهم فى الشباك دون ادراك صحيح أو قرار من جانبهم ، ولكنهم عاجلا أو آجلا

يتصلون الى التفهم لطبيعة عملهم ، وهم عند هذه النقطة اذا ما تابعوا المسير فانهم يسيرون مدركين لحقيقة الامر استجابة لدافع من الدوافع السابق الاشارة اليها ٠

على أن هذا البقاء للدوافع لا يتماثل أو يتناظر مع التعقد الذى يبدو فى كثير من البشر ، وعندما يحدث هذا فانه فى العادة يحـدث لاسـباب خاصة والعادة أن يحدث لفترات قصيرة وغالبا ما ينتج نوعا من التعصب وهى خاصية غير مرغوبة فى ميدان يعتبر الهـدوء العقلى وسـعة الافق من الصفات الاساسية الضرورية اللازمة ، وفى الغالبية العظمى للحالات فان الدوافع تختلط وتمتزج معا ، ولكنها اذا ما فهمت فهما صحيحا بوساطة « ضابط الحالة » فانها يمكن أن تؤدى الى نفع العميل وفائدته ، وعلى سبيل المثال كانت قيمة أحد العملاء الامريكان النافعين فى أمريكا اللاتينيـة فى قدرته على الاختلاط بكبار الاثرياء فى البلاد ، والحقيقة أنه كان بطبيعتـه مزهوا بنفسه مترفعا عن مخالطة من يظنهم دونه مرتبة ، وكان تبعا لهذا تواقا للحياة فى مستوى يتطلب موارد مالية شخصية لم تكن متوافرة له ، فكان عمله كعميل يعتبر الى حد ما مثلا للعميل الذى يعمل لكسب شخصى، وفى هذه الحال أمكن توافر الموارد التى يحتاجها مستوى المعيشة والاتصالات التى يتوق اليها والتى كانت بدورها الغطاء اللازم لعمله ٠

ومع هذا فقد كان لديه أيضا شعور قوى بالواجب وكان هذا معوضا عما فيه من نقص ولولاه لكانت حياته مجرد حياة طفيلية مثله مثل الاشجار المتسلقة التى تعيش بالاستناد الى غيرها ، ولهذا الشعور القوى بالواجب لم تكن مسألة الاعتماد عليه موضع تساؤل بحال ما ، وفى نفس الصورة كانت مصلحته فى نوع الحياة التى تؤدى به للاسهام بالنفع والنجاح الى حد أنه من المحتمل أن لا يتوافر لعميل كل القوة التى تدفعـه هى الشـعور بالواجب وحده ٠

وبالنسبة للدوافع المختلفة المركبـة ، فان السوفييت لا يترددون فى محاولة تجربة المركبات المستحبة وان كانوا يبحثون فى أغوار من يبحثون أمر استخدامه لمعرفة ما اذا كان بين الدوافع التى تحثه عن العمل لحسابهم دافع الرغبة فى الحصول على التعضيد السياسى ٠

ففى سنة ١٩٤٥ أعطى السوفييت وعدا بالامان لستة عشر زعيما من زعماء المقاومة السرية من غير الشيوعيين وذلك بقصد تشجيعهم على الذهاب الى موسكو لاجراء مباحثات مع الحكومة السوفييتية ، وسافر هؤلاء الزعماء

مستندين الى هذا الوعد ، ولكنهم عندما وصلوا موسكو اعتقلوا ونقلوا الى سجن لوبيكانا Lubianka في موسكو ، وفى النهاية حوكموا بتهمة القيام بنشاط مضاد للسوفييت •

وقبل أن يصدر القرار النهائى ببدأ المحاكمة كانت هناك مراحل الاستجواب الطويلة ، ويوضح زجيجنيف ستبلكوسكى Zgygniew Stypulkowski أحد الزعماء الستة عشر فى الفقرة التالية من مزكراته عن الاستجواب خليط الدوافع المختلفة التى اقترحها الرجل الذى قام بالاستجواب •

يتلاحظ أن الكلمات بين الاقواس هى من كتابة المؤلف •

قال زججتيف فى مذكراته :

أعتقد أن المستجوب كان يهدف في المرحلة الاولى من الاستجواب الى ثلاثة واجبات ، كان الاول أن يحصل منى على تفاصيل عن حياتى وحياة أسرتى ليحصل على معلومات كافية عنى ويعرف مواطن الضعف فى وما فى نفسى من مطامع ثم تقدير قوة عزيمتي ، وكان الواجب الثانى أن يدخل فى عقلى فكرة أن أهم واجب على هو أن ادافع عن نفسى وان أعمل لاطلاق سراحى بأى ثمن (وأن هذا كان واجبى نحو نفسى ونحو اسرتى ونحو وطنى الذى قال عنه أنه فى مسيس الحاجة الى خدماتى وتعضيدى) وكان الواجب الثالث أن يحطم توازنى العقلى بأن يلقى بى بسرعة من وضع التفاؤل الى وضع اليأس والقنوط (ولقد عبر عن أسفه على أسرتى ولكنه أصر على أن يعرف أين ابنى) ولقد أخبرته بأننى لا أعرف أين يوجد ولدى (ولقد حاول أن يقنعنى بأن واجبى كوالد صالح أن أبحث عنه) وأنه سيساعدنى فى البحث عن ولدى •

وفي الساعة الرابعة صباح أول يوم تحدثنا عن الكتب وقد حاول أن يسرى عني وأن يهدىء من ثائرة نفسى ، وقد نجح فى هذا ثم أخذ بذراعي وحدق بعيني وهو يقول : اننى آسف من أجلك ، اننى آسف جدا لأن أراك فى هذه الحالة السيئة تجلس هناك فى سجن لوبيانكا ، ولكن يسرنى أن أخبرك بأن حكومتى لا مصلحة لها فى قطع رأسك أو فى أن تضعك فىأحد معسكرات العمل فى سيبيريا (بل على النقيض فنحن فى حاجة اليك لأن واجب الروسيا التاريخى هو أن تحكم أوروبا كلها) •

ومن الحديث الفج أن يقول الفرد بأنه فى حالة ميسو ستوبلكوسكى لم تنجح هذه الطريقة فهو اليوم من أشهر زعماء بولنده المنفيين ولكنها مع هذا قد نجحت فى عدد كبير من الحالات ٠

ودوافع العميل ليست فقط هامة فى انشاء وفى الاحتفاظ بالعلاقة بين العميل وضابط الحالة بل انها لتلعب دورها فى استكمال أو انهاء Terminating تلك العلاقة ٠

ويوجد اعتقاد عام بأن من يعمل كعميل سرى يظل دائما عميلا سريا ، وليس هذا بصحيح ، فهناك دائما الاشخاص الذين يستدعون من وقت الى آخر للقيام بعمليات خاصة ، ولدى ادارة المخابرات الامريكية العامة كشفا بمثل هؤلاء الاشخاص ، ويظل هذا الكشف دائما مليئا بالمعلومات الحديثة عن هؤلاء الاشخاص ، ولكن هناك أيضا الاشخاص الذين ينتهى الانتفاع بهم بعد عملية خاصة معينة ، وقد يسبب هذا مشكلة اقتصادية للعميل ، ولكنها على أية حال تفرض ــ على الاقل ــ مسألة خاصة بالامن من جانب ضابط الحالة ٠

ومن الواضح أنه فى تقدير درجة الخطورة بالنسبة للتصرف فى عميل ما تلعب دوافعه وشخصيته دورا فى هذا ، وهذه واحدة من المسائل التى يكون الاهم فيها هو :

كيف نفعل ! ٠٠ لاماذا نفعل ؟ ٠٠

فأسلوب التصرف أهم من التصرف نفسه وفى ايجاز فان بعد النظر والكياسة من الاهمية بمكان ٠

وهذا صحيح بخاصة فى العمليات السياسية حيث قد تبدو معقبات الانهاء منغمرة فى خضم موضوعات سياسية هامة مثل انغمارها فىمسائل خاصة بقوام حياته هو نفسه ، ومع هذا فانه حتى فى هذه الحالات لا يعنى

أغلب الناس بكلمة (لا ٠٠) No بقدر ما يعنون بالكيفية التى تقال بها ، **ولكن أسوأ صورة تكون فيها هذه الكلمة (لا) هى الصورة التى لا تقال فيها على الاطلاق ×**

وكذلك فى ميدان التجنيد للعملاء فان البيروقراطية الامريكية معيقة معطلة ، وفى الغالب تلغى كل الترتيبات دون ايضاح أو تفسير على مثال حالة الرجل الذى كان من الحماقة الى حد استخدام آلة ختم طوابع البريد أو الذى أخفق فى الاحتفاظ بدفتر لقيد النفقات على ما ذكرت فى أول هذا الفصل ٠

على أن الاقل عدالة هو الاتجاه الى اساءة سمعة شخص كوسيلة للتخلص منه ومن أمثلة هذا ما حدث منذ بضع سنوات عندما اتهم عميل أمريكى ورث ثروة طائلة بأنه قد أنفق بعض ما أعطى له لنفقات العملية لشراء سيارة خاصة له ، ودون أى بحث ودون التحقق من الثروة التى ورثها الرجل فانهم طردوه بطريقة مهينة ، ولقد أشار زميل فى ذلك الوقت **الى أن الروس ينتظرون على الاقل الى أن يهرب الرجل الى الغرب قبل أن يبدأوا تشويه سمعته ٠**

ولكن المخابرات الامريكية تستخدم كثيرا وسيلة تشويه السمعة والاساءة للشخص وقد ترك كثيرون من العملاء خدمتها بعد أن أضرت بهم ضررا له خطورته متكدرين يحسون بالمرارة ٠

وعلى حين أن هذه الاساليب « للتخلص » من العميل قد تكون هى الاستجابة المتوقعة من الاشخاص المستقيمين تجاه مظاهر واضحة من الخلاعة والفجور الا أن هذا ليس بعذر للبلادة والتفاهة imeptitude

وأحد الذين وجهوا نقدا عنيفا كتابة للمخابرات العامة الامريكية كان رجلا قد عمل لاكثر من ثلاث سنوات فى خدمة (الوكالة) المخابرات فى موضوعات كبيرة الاهمية ، وكان «ضابط الحالة» أحد كبار ضباط المخابرات

× الترجمة هنا حرفية ، ولعل المؤلف يقصد أن أسوأ صورة هى أن يترك العميل فى حيرة لا يعرف وضعه (المترجم) ٠

ولكنه كان يلقى صعوبة فى التعامل معه وأخيرا قرر الضابط أن ينفض يديه من العملية ولكنه بدلا من أن يتفاهم معه على هذا بعث اليه بورقة صغيرة ينبئه فيها بفصله ، ولقد دفع هذا الضابط كما دفعت المخابرات الامريكية العامة الثمن غاليا جدا ذلك لان الرجل قد هاجمه كما هاجمها بعشرات المقالات الافتتاحية الضافية مما أساء الى سرية وأمن بعض العمليات التى كانت تقوم بها •

على أن شيئا من هذا لا يعتبر عذرا للعميل للقيام بهذه المشاكسة ولكن مسئولية عدم التخلص منه فى هدوء لا تقع على عاتقه ، لقد كانت مسئولية ضابط الحالة •

ولقد بسط سكرتير السير فرنسيس ولثنجهام الامر الى درجة كبيرة عندما قال :

« ان هناك ما هو أهم من مجرد الخروج الى الطريق واستئجار مخبر » ×

× راجع السطور الاولى من الفصل الثانى من هذا الكتاب (المترجم) •

٤

فن الغطـــاء (١)

تعتمد الحرب العلنية على الاســلحة وكذلك تعتبر الحرب السرية على (الغطاء) الساتر ، والاسلحة ليست فى حد ذاتهــا غرضا فى الحرب ، ولكنها تغطى الجندى بدرع وتمكنه من التقــدم نحو الغرض أو هى تحمى تقهقره ، والغطــاء يحمى العميل السرى من المقــاومة ، تضعه فى موقف يستطيع منه أن يتم مهمته وينفذها ، ومن الناحية المثالية يجب أيضا أن تحمى مهمته ــ على الاقل ــ ضد أسوأ العقبات للعميل لو لم يكن مستورا ، وفى ضوء أن هــذا « الغطاء » يســتخدمه أناس من البشر ٠٠ كان هــذا الاستخدام فنا له أصوله ٠

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية كان يعيش فى طنجة انجليزى نستطيع أن ندعوه جيوفرى ــ وليس هذا هو اسمه الحقيقى ــ وكان جيوفرى مع وداعته يبدو شاذ الطبع ، وهو كرجل أعزب مكنه دخله القليل من أن يحيا الحياة التى يرتضيها لنفسه ، وكان قد عاش لسنوات طوال فى طنجة أيام السلم قبل الحرب لا يختلف عن غالبية الرجال فى الجالية الانجليزية ، ولم يكشف أحد فى مظهره وحياته ما يدل على أنه عميل انجليزى ٠

ولكن اعلان الحرب غير من هذا كله ، فلقد صارت المشــكلة مشــكلة عكسية ، فلقد كان من الضرورى أن يبقى جيوفرى فى طنجة وأن يقيم هذه الصلات التى يريدها بأفراد دول المحور ومن أجل ذلك فهو فى حاجة الى غطاء يعزله عن بنى جلدته من الانجليز ، وهو غطاء يمكن أن يوضح علة بقائه فى طنجة وفى نفس الوقت يكون غطاء مقبولا من الالمان والطليــان والاسبان ، فلا يكفى أن يخرج على أنه انجليزى يميل الى دول المحور ، ولا يكفى أن يقلب (جاكتته) ليتقبله العدو بل ان هذا سيدفع به الى حظيرة الشك ، ويوجد دائما فى كل مكان ضابط من جماعة مكافحة الجاسوسية واجبه أن يشك حتى فى أخلص أفراد العدو الذين ينقلبون على أوطانهــم وأن يعتبرهم جواسيس مزدوجى الاتجاه (الجواسيس ذوى الوجهين) ٠

وهنا كان من الضرورى أن يبدو جيوفرى فى صورة شخصية من الشخصيات التى رسمها سومرست موم لابطال قصصه فى بحر الصين ولكن تكون هذه الشخصية فى هذه المرة فى شمال أفريقيا ، وتكون هذه الحياة هى الغطاء على ما يمكن أن يقال لهذا من الناحية الرسمية ٠

وقد فعل جيوفرى هذا فانصرف من صحبة النساء الى صحبة الرجال ٠٠ ومن احتساء الخمر الى تناول المخدرات وانتقل من سيىء الى أسوأ ، وحقق جيوفرى الطابع الذى يستهوى الالمان طابع الظهور بمظهر رجل انجليزى انحطت بهم القيم والاوضاع وانفصل عن أبناء وطنه الذين يمتهنونه لسوء حاله ٠

وفى لندن كان رؤساؤه يعرفون مدى نجاحه فى الغطاء الذى يتخذه لنفسه من الرسائل التى كانت تصلهم مليئة بالهجوم عليه ، وكان بعضهم عملاء فى الخدمة السرية ولكن لم تتوافر لهم الموهبة لمعرفة حقيقة جيوفرى، واستطاع جيوفرى أن يقوم بمهمته ولكن عندما انتهت الحرب لم يقلع جيوفرى عن الطابع الذى فرضه عليه عمله حتى مات ، ولم تقتله الخمر ولم تقتله المخدرات ولكن الذى قتله الكراهية التى كان يشعر بها نحوه مواطنوه الذين لا يعرفون حقيقة عمله ، وهذه الكراهية ليس من السهل أن تحتمل ٠

على أن كل أنواع الغطاء ليس لها طابع المأساة وليست محطمة قاتلة على مثال الغطاء الذى اختفى وراءه جيوفرى ، ولكن كل ألوان الغطاء الجيد يرجع نجاحها الى العامل الذى جعل غطاء جيوفرى مؤثرا بقدر كبير ، انه يصل الى عقل الخصم ويفكر كما يمكن أن يفكر العدو ثم يخرج بخليط من الحقيقة والخيال يكون عقل الخصم على استعداد لتقبله ٠

وفى كل صور النزاع البشرى يكون الرجل الاقوى هو الرجل الذى يستطيع أن يفكر كما الخصم أو بمعنى أدق فيما يفكر فيه الخصم أى على مانقول نحن (أن يقرأ ما فى فكره) والرجل الذى ينتصر هو الرجل الذى يمسك بفرصة النفع الذى يعطله له هذا ، هكذا كان هانيبال فى كانى ، ونيلسون عند مصب النيل ، وتوجو فى معركة تسوشيما ، وبرادلى فى نورماندى ، كل هؤلاء قد توافرت لهم القوة على استغلال هذا القدر فى طابعها الدرامى ٠

وقيمتها فى العمليات السرية مثلها مثل قيمتها فى المنافسة التجارية ، فى العمليات السرية ، وفى الحرب العلنية ، ولا يمكن الوصول الى الغطاء الجيد بدون هذه القدرة ، والعميل الكفء يعرف هذا ، يعرف أن الغطاء الجيد هو علاقة وثيقة بين الخادع والمخدوع ، بين من يقوم بالخداع ومن يكون هدفا للخديعة ، وفى عالم متغير غريب للعمليا تالسرية والذى فيه تتغير مواقع الصحيح وغير الصحيح ، الحقيقى وغير الحقيقى من ساعة الى أخرى فمن الضرورى أن يكون هذا المخدوع صديقا أو عدوا على السواء ، أى أن من يتخذ لنفسه غطاء ما يجب أن يكون هذا الغطاء دقيقا بالقدر الذى يمكن أن يخدع به وأن يجهل حقيقة الاصدقاء والاعداء على حد سواء •

* * *

و (الغطاء) متغير الصور والاشكال ، والطغاء العادى الذى يستخدم بكثرة خارج ميدان العمليات السرية المكتومة Covert Operations بما فيهم المصرفيون والسفراء والمحبون هو دعوات الكوكتيل وحفلات الاستقبال الدبلوماسية ، وفى مثل هذه المجتمعات فان القنابل أو المحادثة التى قد لا تكون مستطاعة فى أى وقت أو أى مكان آخر ، تكون ميسورة مستطاعة لو رتب الامر من قبل فتجىء عرضا وتدور تحت غطاء السبب المعلن للاجتماع •

وميزانية حكومة الولايات المتحدة تستخدم هى نفسها كستار تختفى وراءه ميزانية وكالة المخابرات العامة ، هذه الميزانيـة التى لا تعلن قط ولكنها تجىء مبعثرة وهناك وسط ميزانية الدولة •

* * *

والغطاء قد لا يكون أكثر من قصة أكثر من تاريخ حياة ، والقصة الساترة تستخدم فى الغالبية لتوضح الادلة المرتبة لعملية خفية غادرة Clandstine أو تستخدم لتقديم ايضاح عندما تقابل العملية أى صعاب •

وطلعات الطائرات ى ـ ٢ على سبيل المثال خرجت من قواعدها تحت ستار القيام بأعمال البحث للارصاد الجوية ، وعندما احتج الاتحاد السوفييتى على ما وضح فيما بعد أنه اختراق باورز لحدوده أعلنت قصة

كانت معدة من قبل وجاء فيها أن الطائرة كانت تقوم بأعمال لبحث طبقات الجو العليا وان الطيار قد ذكر أن هناك خلل فى أجهزة الاكسوجين وانه كان يطير فى مثلث داخل تركيا وقد وصل به هذا الى حدود الروسيا ، ثم تابعت القصة هذا المسير بافتراض أن الطيار قد غاب عن الصواب لنقص الاكسوجين ومن ثم فانه اجتاز حدود الروسيا وهو فاقد الوعى .

وفشل هذه القصة يصور بين أشياء كثيرة أخرى عدة نقاط عن قصص الساتر بعامة ، فهى لا يجب أن تكون موجزة ولا يجب أن تكون ضافية الزيول ، ولا يجب أن تعلن لفورها ولا تكون بحيث يمكن الكشف عن نتائجها بسرعة .

فعندما قام بولجانين وخروشوف بزيارتهما الرسمية لبريطانيا على الطراد الروسى الثقيل ، كان هناك اهتماما من جانب كل دول الغرب بالسفينة نفسها .

وفى أثناء الزيارة احتج الروس من أن السفينة قد هوجمت بوساطة رجل من رجال الضفادع البشرية ، ومهما كانت حقيقة مهمة الكومندور كراب اخصائى الادميرالية البريطانية فى الاعمال أسفل سطح الماء فانه يتضح من احتجاج الروس فى ذلك الوقت ومن اختفاء الكومندور كراب فى نفس الوقت يتضح أن الروس قد أمسكوا به ، وقد استغرق الاعلان الانجليزى الرسمى عن الموضوع بعض الوقت .

فاولا أعلن عن الاختفاء الغامض لرجل سجل اسمه فى أحد فنادق يورتسموث ومرت عدة أيام قبل أن يصدر بلاغ آخر يذكر فيه اسم الرجل على ما سجله فى الفندق ، ثم كشف أحد مخبرى الصحف عن أن هذا الرجل عندما جاء الى يورتسموث كانت معه معدات الغطس ، وعند هذا الحد صدر اعلان رسمى بان التحقيق أثبت أن الكومندور كراب كان يقوم بصفة عرضية بأبحاث تحت الماء للاميرالية البريطانية ، ثم صدر بعد أيام أخرى بلاغ فيه انكار تام من أن الكومندور كراب كان فى أى مهمة رسمية عندما زار بورتسموث ، وفى كل هذه البيانات كانت هناك صورة عامة مهمة وكأنه ليس هناك من وجود للكومندور كراب أو كأنه قد ذهب الى بورتسموث برغبته وحده للقيام بهوايته المفضلة لعدة أيام .

وهنا يجب أن نلاحظ :

⊙ **تقديم قصة موجزة يزيد من الفرصة لانكارها من ناحية (النوع)** Qualitatively •

⊙ **تقديم قصة طويلة ضافية يزيد من الفرصة لانكارها من ناحية الكم** Quantitatively •

⊙ **اطلاق الحديث بسرعة يسبب كشف كل الاوراق التى فى اليد قبل أن يكون واضحا ماذا فى أيدى العدو من أدلة قد تكون مضادة لما تقول •**

⊙ **ذكر القصة كلها مرة واحدة تضيع الفرصة لتعديلها مع** تطورات الموقف •

والواقع أن تريث الانجليز وتجاهل كل شيء فى اتزان جعل الزيارة السوفييتية تسير طبقا للجدول الزمنى وفيما عدا الاحتجاج الروسى الاول فان شيئا لم يثر من جانب الروس •

وبين الامثلة التى تجمع بين الدراما والطابع الساخر فى العمليات السرية أنه فى نفس الوقت الذى اكتشف فيه جندى الحراسة على ظهر الطراد « سفردلوفسك » الروسى فى ميناء بورتسموث الكوماندوز كراب كانت حلقة جاسوسية روسية تعمل فى هدوء على ساحل بريطانيا فى منشأة البحرية ببورتلاند (٣)

Britisih Underwater Detectioin Establishment

وكان العميلان الرئيسيان هما زوجان يديران عملها تحت ساتر مكتبة لبيع الكتب القديمة وكانا محبوبين من كل جيرانهما فى المنطقة ، وقد أمكن رفع الستار عنهما واعتقالهما بعد سنوات أى فى سنة ١٩٦١ وعندما حدث هناك كان الشك يحيط حقيقتيهما بل حقيقة جنسيتهما ، بل قد بقى الساتر الذى يستتران وراءه على أنهما من رعايا كندا قائما لبعض الوقت بعد اعتقالهما ، حتى تدخلت الولايات المتحدة بدليل قوى وأوراق تحقيق

---

(٣) راجع « مدرسة للجواسيس » ص ١٠٨ – ١١٦ و « أسرار الجواسيس » ص ٨١ – ١١٠ •

شخصية ايجابية تثبت أنهما من رعاياهما وأنه كان لهما نشاط شيوعى فيما مضى فى الولايات المتحدة وعاش هذان الزوجان « كوهين » المعروفان باسم « كروجر » فى منطقة سكنية هادئة ، وقد ضبط فى منزلهما بعد اعتقالهما جهاز ارسال لاسلكى وعدة معدات أخرى للعمليات السرية ، والواقع أن الدليل الوحيد على انغمارهما فى مشكلة الجاسوسية كان الاشارات اللاسلكية من المنزل الى منطقة موسكو ، وهما لم يتسلما قط أى وثائق من عميلى قاعدة بورتلاند ، فهذه كانت تصل الزوجان عن يد وسيط Cut-Out ، وضعت خدمة الامن البريطانية هذا الوسيط تحت رقابتها ، وحتى بعد اعتقالهما فانهما قدما قصة للتغطية هى أنهما كانا قد أجرا منزلهما فى عدة مرات أثناء غيابهما عنه ، وقد أجراه لبعض المعارف بينهم هذا الرجل الوسيط ، وانكرا علمهما بهذه الاجهزة والادوات التى وجدت مخبأة فى المنزل ، كما أنكرا معرفتهما بنشاط هؤلاء الاصدقاء ٠

وكانت هذه القصة محكمة الى حد بعيد حتى تطلب الامر وقتا طويلا لبحثها ، وحتى بعد أن كشف نشاطهما بوساطة السلطات صاحبة الشأن فى الولايات المتحدة فقد بقى المحققون طويلا يشكون فى حقيقة الادانة (ولم يكشف عن نشاطهما الحقيقى حتى كان قد مر شهر على اعتقالهما ، ولم يتم الكشف عن جنسية الوسيط ــ وهو مواطن سوفييتى ــ حتى كانت قد مرت عشرة شهور على اعتقاله) ٠

على أنه لم يكن النقص فى الغطاء هو الذى حطم العملية ، والواقع أن تأثير القصة النهائية للغطاء لا يقاس بحقيقة أن المحكمة التى أدانتهما وحكمت عليهما قد رفضتها ، ولكنها تقاس بمدى حمايتها للعملاء الآخرين ونشاط جماعتهم وما سببه هذا من اضطراب ، ثم من يعلم من هم هؤلاء العملاء الآخرين وماذا كان نشاطهم ؟ ٠٠ لقد كانت موسكو تعرف ولكن لندن وواشنطون لم تعرفا شيئا ، ثم من يعلم بمدى الهزيمة التى سببها اعتقال الزوجين كوهين ؟ موسكو وحدها التى تعرف ومن ثم فان قصة التغطية كانت قصة محكمة جيدة ٠

و « الغطاء » لا تجده فى أدوات المسرح، والتخفى من النادر أن يستخدم وان كانت هناك حوادث شاذة ، واذكر فيما مر بى من تجارب أن جنرالا انجليزيا حليق الشارب كان يقوم دوريا بعدة عمليات متخفيا فى ثياب امرأة ، يعمل بطابع امرأة وتفكير امرأة وكان نجاحه كبيرا ، لان المسألة لم تكن مجرد التأنق فى ثياب امرأة والتخطر فى السير ٠

وفى العمليات السرية بما فيها عمليات الغطاء والساتر نفسها يقال لما هو زائف منها « عمليات قومية » National وشبكة الجاسوسية التى لا وجود لها ، والتقارير الزائفة التى ترسل للرؤساء على مثال ما صور جراهام جرين فى روايته : « رجلنا فى هافانا » Our Man in Havana لهى عملية قومية ومن النادر أن تحدث فى عمليات الجاسوسية ، ولقد حدث مرة أن نظمت عملية أمريكية بوساطة مليونير من رجال البترول كان شاذا فى تصرفاته حتى أنه كان يرفض مقابلة أولئك الذين يزودهم بالمال ، ولكن هذه مسألة نادرة لا وجود لها ·

على أن الشىء الحقيقى فى أى مرحلة من مراحل العملية يقال له : Legitimate (٤) أى شرعى : قانونى : حقيقى ولقد امتد هذا الاصطلاح حتى كان رجال المخابرات الامريكية يستخدمونه بوصف الناس الذين ليسوا فى الخدمة السرية بقولهم : Oh, he's legitimate ·

وأفضل « غطاء » هو « الغطاء » الذى يحتوى على أقل ما يمكن من «الزيف» وأكثر ما يمكن من « الحقيقة » ، وربما تكون أعظم عملية تغطية فى العصر الحديث هى عملية شبكة الجاسوسية السوفييتية التى كانت تعمل فى منشوريا واليابان قبل الحرب العالمية الثانية والتى كان يتولى رياستها سورج (٥) والذى كان يعمل كصحفى ألمانى ·

فلقد كان كل شىء حول سورج وعنه حقيقى شرعى لا زيف فيه ، والظاهرة الواحدة الزائفة هى تفسيره وايضاحه لعمله ومكان تواجده عندما كان فى الواقع يقوم بالتدريب فى الاتحاد السوفييتى ، ولقد قدم سجلا حافلا مليئا بالادلة على النجاح فى الاحتفاظ بالغطاء الذى يستتر وراءه دون أن تشوبه أية شائبة لتسع سنوات طوال ، وفى قضيته كما كان فى قضية الزوجين كوهن ، لم يعتقل بسبب الكشف عن حقيقة الغطاء الذى يستتر وراءه بل بسبب رسائله اللاسلكية الى الاتحاد السوفييتى ·

---

(٤) الكلمة اصلا من *Legitimacy* أى الشروعية ، شرعية البنوة الحلال (المترجم) ·

(٥) راجع (الرجل ذو الوجوه الثلاثة) اصدار الهيئة ·

على أنه عدا المهمة نفسها والظروف التى تتم فيها ، فان أهم عامل فى ايجاد الغطاء هو ، التاريخ والمواهب وشخصية العميل نفسه ، **والعميل الذى لا خبرة له بشئون الصحافة لا يمكن أن يستخدم غطاء يستتر وراءه كصحفى ، واصطلاح « لا ترسلوا صبيا ليقوم بدور رجل » له معناه الحرفى فى فن الغطاء والساتر .**

وفى أثناء احتلال المانيا أرسلنا رجلا كان الغطاء الذى يستتر وراءه أحد الاعمال الكثيرة المتوافرة فى مكاتب حكومة الاحتلال والاهم من هذا أنه كان من الضرورى لمهمته أن يبدو وكأنه موظف صغير مغمور بالرغم من أنه فى الحقيقة موظف كبير في العمليات السرية وله سلطة واسعة (هو الآن موظف كبير في حكومة الولايات المتحدة ويعمل فى الميدان الحقيقى لا فى العمليات السرية) .

ولم نكن نريد أن نوجه اليه الانظار التي قد تجذب نحوه العملاء السوفييت فيبدأون بالتقصي عن نشاطه أو قد يسبب هذا صعوبة اتصال عملائنا به ، وفى ايجاز فاننا قد تركنا له هويته الحقيقية ، وكان فى هذا كل الخطأ ، فلم تمر به أشهر قليلة فى المانيا حتى وضح الخطأ الكبير الذى تنكبنا فيه ، فهو لم يلبث أن كان عقد كل المجتمعات الامريكية على الراين، كان رئيس الناديالامريكي للانزلاق ورئيس لجنة رعاية الكنائس الامريكية، وكانت زوجته رئيسة نادى السيدات الامريكيات ، وكان مكتبه واحدا من أجمل المكاتب فى ألمانيا ، وكانت داره ملتقى الناس من كل الطبقات ، لقد أردنا أن نستخدم رجلا مجهولا يعيش في عزلة من الناس فتخيرنا رجلا من رواد المجتمع ، ولقد كان من الممكن أن نتجنب هذا الخطأ لو كنا قد عرفنا ما فى حياته وانه كان رئيس اتحاد الطلاب فى الجامعة التى تخرج فيها .

والغطاء الكامل عمل مثالى ومن النادر أن يتحقق من الناحية العملية ، وقد تفرض الحاجة شيئا أقل من الكمال وهكذا فان الضرورة تقضى أحيانا باللجوء الى اجراء خطر بترك شخص فى هويته الحقيقية ، ويتوقف العملمع استخدام « **الشخصية الحقيقية** » على قدرة العميل على أن يعتقد ويفكر ويأكل وينام فى طابع « **الشخصية الاخرى غير الحقيقية** ؛ وسورج بالرغم من أنه كان يعمل فى ضوء شخصيته الحقيقية المكشوفة توافرت له هذه الطاقة بدرجة كبيرة ، وهو كرجل سكير حدثأن اصطدم ذات ليلة بدراجته البخارية (موتوسيكل) بجدار السفارة الامريكية فى طوكيو ، ونقل الى المستشفى ، ولم يفق من الاغماء الا بعد أيام وبقى مهتز الادراك لعدة أيام

أخرى ، ومع هذا فانه لا فى ساعات اغمـائه ولا فى لحظات اهتزازه نطق بحرف واحد يمكن من الشك فيه وقد أشارت الى هذا السلطات اليابانية فيما بعد عندما استطاعت الامساك به وبشبكته ٠

* * *

على أنه فىدنيا اليوم ، والعصر الذى نعيش فيه ، تتوقف « **الشخصية الحقيقية** » التى تعطى للفرد **على التزوير الدقيق** ، وفى كل الخدمات السرية للدول الكبرى مكاتب خاصة باعداد الوثائق المزورة والاختام من كل نوع ولكل دولة (وهذا هو السبب التى تضيق به وزارة الخارجية الامريكية عندما يفقد السياح الامريكان جوازات سفرهم) ٠

وفى المدة التى تلت الحرب العالمية الثانيـة **قبـل أن تنشىء الولايات المتحدة ادارتها الخاصة بأعمال التزوير** كانت العمليات الامريكية تعتمد على المكاتب الخاصة ، **وكنت أعرف فى روما رجل يعـد لك مقابل خمسمـاية دولار جواز سفر فنزويلى ويقول فى زهو وخيلاء : « سنيور ان هذا الجواز يصلح فى كل مكان فى العالم عدا فنزويلا بالطبع !! »** ٠

وعرفت لاجئا مجريا فى سالزبورج قدم لى عنـدما أعطينـاه « فيزا » للسفر الى الولايات المتحدة عدة وثائق وعدة أختام لحرس الحدود فى كل دول شرق أوروبا عدا بولندة والاتحاد السوفييتى ، ولسوء الحظ أننى لم أستطع الاتصال بهذا الرجل عندما كنت فى حاجة لان أرسل أحد رجالى الى المنطقة السوفييتية فى النمسا ٠

وليس من الممكن اعداد هذا الغطاء الساتر فى الطابع المرغوب بسرعة ، ومن الضرورى الالتجاء دائما الى العملية التى يقـال لها « بنـاء الساتر » Building Cover والتى لا تزيد عن الاشتراك فى عمليات تزيد من « استصواب الساتر » The Plausibility of the Cover
ولقد أرسلت مرة رجلا ليتجول على غير هدى فى أوروبا لمدة ثمانية شهور بلا عمل غير البحث عن المكان الذى يناسبه للاقامة فيه ، وذلك حتى يكون اختياره النهائى وكأنه ليس معدا من قبل ٠

و « **الغطاء** » **أو** « **الساتر** » ليس **سلعة دائمة** ، ولـكن كلما كثر عـدد الناس الذين يعرفون حقيقة ما وراء هـذا الغطاء كلما ازداد خطـر كشف

السلطات المختصة له وكلما قل العارفين به كلما ازداد عمقه وكلما كانت نتيجته ناجحة ، **والقاعدة الاساسية هى أنه اذا ما تعرض الغطاء للخطر يجب تأجيل العملية حتى يمكن بناء غطاء جديدة ولقد ارغمت مرة على أن أفقد خمسة أسابيع حاسمة الاهمية اطاعة منى لهذه القاعدة ٠**

كنت قد اخترت للقيام لمدة موقوتة بعمل فى عاصمة أجنبية وكان عملى يتطلب تواجدى فى مكتب ما على حين كان الغطاء الذى أستتر وراءه يتطلب تواجدى فى مكتب آخر ، وقد أمكن حل هذا عن طريق كشف الغطاء لاحدى السكرتيرات التى كان عليها أن تتلقى الاتصالات التليفونية الخاصة بى بعد أن تقول بأننى فى عمل خارج المكتب ثم تتصل بى حيث أعمل حقا وتبلغنى الحديث التليفونى ، ولكن عندما حدث مالا سبيل لتجنبه وأصيبت هذه السكرتيرة فجأة بمرض أقعدها الفراش جاءت فتاة أخرى للعمل مكانها ولاول محادثة تليفونية تطوعت وحدها لتتظرف فتقول : « أوه ٠٠٠ انه لا يعمل هنا ، انه يجىء فقط عرضا من حين لآخر لاستلام البريد الذى يصل باسمه » ٠

ولما كان هذا المتحدث دبلوماسى بلجيكى ، فقد اضطر الموقف لتأجيل العملية الاخرى وقتيا واعادة بناء « العمل الساتر » بأن أقضى وقتا طويلا فى المكتب المفترض من أجل التغطية الذى أعمل فيه ، وهكذا قضيت خمسة أسابيع فراغ ، تناولت أثناءها طعام الغداء مع الدبلوماسى البلجيكى وفى المرتين كان يحضر الى المكتب ليأخذنى فى سيارته لنذهب الى حيث نتناول معا طعام الغداء وكل هذا بسبب اشارة خاطئة من احدى السكرتيرات لم يطلبها أحد منها ٠

على أننى مع هذا كنت أحسن حظا من زميل آخر كان يعمل فى تركيا المحايدة أثناء الحرب العالمية الثانية ، وكان الرجل يعمل أصلا بالصحافة ولكنه كان يعمل اذ ذاك فى منظمة الجنرال دوفان (٦) فى أيام تكوينها الاولى عندما كان لا تزال تدار من مكتب منسق المعلومات " Office of the Co-ordinator of Information " ٠

---

(٦) راجع كتاب (صناعة المخابرات) اصدار الهيئة ٠

وفى الصباح التالى لوصوله الى « اسطمبول » الاستانة عندما نزل الى بهو الفندق لتناول الافطار وجد رجال البوليس التركى فى انتظاره واقتادوه الى ركن القاعة فى بساطة ثم سألوه : « ماذا هى صلتك بالجنرال دنوفان ؟ » .

وبعد أن أفسحوا له صدرهم وتركوا له العنان ليحتج بأنه صحفى ، وأنه قد نزل تركيا مرة قبل هذه فى عمل صحفى وأنه لا صلة له بالجنرال دنوفان ، عندئذ قدموا له برقية طويلة مرسلة باسمه كلها عبارة عن مجموعات كودية كل منها من خمسة حروف ، وفى نهايتها سطر غير كودى كل ما فيه : الامضاء : « دنوفان منسق المعلومات » .

وفى مدى ساعة واحدة كان صديقى فى القطار ينهب به الارض نحو الحدود السورية مع الوقت الكافى ليصور لنفسه ماذا يمكن أن يفعل من أجل هذا السكرتير الاحمق فى سكرتارية دنوفان الذى كان يريد أن ينقد أمر رئيسه بحرفيتها عندما قال له : « أرسل هذه البرقية فورا اليه فى اسطمبول » ، ووضع السكرتير اسمه دنوفان كمرسل للبرقية دون أن يفكر لحظة واحدة فى هذا الخطأ الذى يرتكبه .

ولا يمكن اطلاقا أن يلام الاتراك لتيقظهم أو بمعنى أدق لقلقهم ، فقبل ستة شهور كان الوزير المفوض الانجليزى فى بلغاريا قد وصل الى نفس الفندق أثر قطع العلاقات بين بريطانيا وبلغاريا ، وقد جاء الوزير وسكرتيريه وموظفوه ومعهم امتعتهم ، وبعد أن رؤىأن الامتعة كاملة لم ينقصها شىء ، **كان أحد الموظفين قد أخطأ فى وضع بعض الاجهزة ولخطأ فنى لم يبدو له ساعتئذ ، فانفجر أحد الاجهزة الخطرة التى كانت فى امتعة الوزير المفوض ودمرت جزءا من بناء الفندق كان بالكاد قد تم استصلاحه عندما وصل صديقى الى اسطمبول .**

ولكن فى بعض المناسبات قد يكون تحطيم الغطاء الساتر هو جزء من الساتر نفسه ، وأذكر أننى كنت فى اليونان أثناء الحرب الاهلية التى قامت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وشككت فى رجل انجليزى قابلته فى حان الفندق وقدرت أنه يبدو كعميل وفى نفس الوقت شك هو بى .

ولقد ذكر لى أنه يعمل فى مصرف وعندما سألته فى أدب عن اسم المصرف ترك الغرفة متعجلا وقد بدا الاضطراب فى وجهه .

وفى المساء التالى جاء الرجل الى الحان ، وعندما رآنى اقترب منى ثم نظر فى ورقة في يده ثم قال فى زهو وكأنه يجيب على ســـؤالى بالامس وذكر أنه يعمل فى البنك الملكى لكورتيثيا أو شيء مثل هذا •

وضحك كلانا لاننا أدركنا معا أننا نعمل فى الواقع فى مهنة واحدة •

ولكن اذا كانت مهمته هى أن يكتشف حقيقـة عملنـا والتبليغ عن نشاطنا فان كشفه لغطائه والافصاح عن حقيقة عمله لهو جزء من غطائه لاكتساب ثقتنا •

أن مثل هذا التفكير ضرورى فى فن اختيار واستخدام العمل الساتر أى الغطاء الذى يختفى وراءه العميل •

ولكن على أية حال فان العميل الفاشل هو الذى يكشف عن غطائه •

٥

فن الغطاء (٢)

على أن العميل الذى يعمل وحده تحت ستار شخصى على ما يصوره الروائى فيليبس أو بنهايم فى قصصه الطويلة وفى رواياته لم يعد له من وجود فى الواقع ، وقد صار بسرعة شيئا مستحيلا ، وفى عالم يعمل فيه الناس عادة فى منظمات فان أحسن غطاء ساتر هو أن يكون الفرد فى منظمة ما ، **ولقد تحول المستكشف المغامر الذى يعمل وحده الى منفذ فى وكالة سفريات كبيرة ، والكاتب الذى كان يعنى بالتقاط الاشخاص والحوادث لرواية قد أضحى مديرا اداريا فى بعثة تعليمية كبيرة فى الخارج، والرجل الثرى الذى كان لا عمل له الا الائتناس باصحابه ورفاقه فى حفلات ورحلات قد صار نائب رئيس مؤسسة كبيرة ، وحتى ماتا هارى قد صارت مساعدة الابحاث تعمل من التاسعة صباحا الى الخامسة بعد الظهر ضمن هيئة محررات مجلة دورية ٠**

وهذا التطور السوداوى الملانخولى (مناخولية) Melancholy يعرف باسم « غطاء المجموعة » أو على ما يقول الاصطلاح الانجليزى Organizational Cover « الغطاء الذى يقدمه الانتساب الى مجموعة » ، على أنه يجب من البداية اصدار قرار هام **هو ما اذا كان استخدام المنظمة كساتر سيكشف عنه لواحد أو أكثر من كبار موظفى المنظمة نفسها أم لا ،** وهذه المسألة عملية ، ذلك لان أى عميل مرتبط بعمل لكل الوقت فى مؤسسة أمريكية فان طاقته أو جهده لن يمكنه من القيام بأى عمل آخر ، ثم ان هذا فى الواقع **يعتبر دواء للوقاية ضد أى مضايقة مستقبلا وهذه مسألة أعرفها من تجاربى بخاصة ٠**

وأذكر أننى بعد أن قضيت عامين فى أعمال مجهدة رتبت أن أترك لاقوم بعمل فى أحد مكاتب الحكومة باوروبا لمدة ستة شهور ، ويبدو أن رئيسى فى ذلك العمل قد أحس لاول وهلة بكراهية تحوى وقد اكتشفت فى مناسبة ما أنه يخشى أن أكون أقوم بالرقابة على عمله ، واستطعت بالصبر وبعض التظاهر بالبساطة أن أقلل من هذا الشك دون أن أزله تماما ٠

ولكن حدث لسوء الحظ أن الرجل الذى خلفنى فى العمليـة الاولى واجـه بعض متاعب وأحس بضرورة استشارتى فى موضوع ما فبعث الى برسالة برقية معنونة باسمى عن طريق رئيسى وكانت البرقية مكتوبة بالشفرة ، وكان جو الغرفة عندما تسلمت منـه هـذه الرسـالة أشبـه بالصقيع ، واستأذنته فى الانصراف الى مكتبى وحللت شفرة الرسالة ثم أعدت الرد متضمنا أن أترك دون أى اتصال بى وحولت ردى الى الشفرة ثم رجعت الى مكتب رئيسى طالبا ارسال البرقية بالرد ، وقد شرحت لى فى ايجاز ما حدث وأكدت له أن هذا لن يحدث مرة ثانية ، ولكن الذى حـدث لسوء الحظ أن عملى بعيدا عن ميدان الخدمة السرية قد أربك قدرتى الآلى فعلى حين أننى احسنت حل رموز الشفرة فى الرسالة الواردة اخطأت فى تحويل ردى الى شفرة ومن ثم لم يكن ردى مقروءا وبالتالى لم يكن مفهوما وجاءت رسالة أخرى بنفس الطريقة وأكدت براءتى ونزاهتى ولكنى مع هذا فقدت كل عوامل الراحة التى كنت قد بدأت أشعر بها ٠٠

ان الكثير يمكن أن يضيع عندما يصل عميل الى لحظة حرجة فى عملياته نتيجة كشف رؤسائه فى المنظمة للغطاء الذى يسـتتر وراءه ، ذلك لانهم سيشعرون بأنهم خدعوا فيه ومن ثم تكون حقيقته أو عمله الحقيقى مهما كانت الظروف ليس موضع ترحيبهم ٠

صحيح أن الكثير من المنظمات قد عاونت فى هذا النشـاط واحتملت مسئوليات جسام بسببه ، ولكن هناك مؤسسات أخرى بسبب طبيعة عملها أو بسبب ما قد تتعرض له أعمالها نتيجة للاتهامات أو بسبب أنها لاتقر العمليات السرية من ناحية المبدأ لا ترضى ولا تقر الاشتراك فى مثل هذه الترتيبات ٠

ويواجه الروس مشكلات خطيرة فى هذا الميدان نفسه ، ولما كان كل النشاط السوفييتى فى الخارج تتولاه الحكومة فلا يمكن أن تقدم أى وكالة سوفييتية الغطاء الصالح للعميل ، ومن ثم فانهم فى الغالبية يستخدمون المنظمات الاجنبية دون التفاهم معها على تغطية العملاء ، وقد يفسر هذا لنا عدم استطاعتهم مقاومة الاغراء الذى تقدمه لهم الامم المتحدة ليستخدموا وكالاتها كأماكن عمل ساترة يختفى عملاؤهم بين موظفيها ٠

« والغطاء » ليس وقفا على مشكلات فردية أى مشكلات خاصة بالافراد العملاء ٠٠٠ أو لعمليـات الجاسـوسية ، أو « بتركيب مـادة » صيـاغة

Concoction القصص التى تفسر الكوارث التى تحدث ، والواقع أنه يبذل الجهد اليوم ـ على الاقل بوساطة الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة لاعداد « منظمات للتغطية » وليس غطاء لعميل فرد ، ومن الضرورى أن نفرق هنا بين :

« غطاء يدعمه التواجد فى منظمة » Organizational Cover

وبين ...

« منظمة للتغطية » Cover Organization

فعلى نقيض الغطاء الذى يدعمه التواجد فى منظمة ما فان « المنظمات للتغطية » هى منظمات تنشأ وتقام وتؤسس فقط للامداد بالغطاء وهى تمكن من الامداد بالوقاية بخاصة فى العمليات الكبيرة الواسعة المدى ، **والنفع الكبير الذى لهذه المنظمات يكمن فى اعطاف أنه بمجرد أن تتكون مثل هذه المنظمات لا يكون من سبب لاعداد غطاء آخر لاى عميل تضمه المنظمة ، والحقيقة الاهم هو أن عددا كبيرا من الافراد الذين يمكن ضمهم للمنظمة يمكن أن يسهموا فى العملية دون أن يفهموا بحال أنهم عملاء ، والغرض فى بساطة من قبل هذه المنظمات هو جعل العمليات تتابع مسيرها مستقلة دون أن تبدو لها أية صلة بالحكومة ، ودون أن تكون الحكومة مسئولة فى وضوح عما تقوم به من نشاط ، ولهذا فان نشاط المنظمة لا يكون هو الشيء المغطى المستور ، بل يكون الشيء المستور هو حلقة الصلة بين المنظمة وبين الحكومة .**

« ومنظمات التغطية » فى العادة عملية كبيرة النفقات ثم أنها من أكثر نواحيها صالحة فقط للعمليات السياسية وليس لعمليات الجاسوسية ، وبالتبعية فانه يحتفظ بها للنشاط الذى هو تعبير مباشر عن السياسة الخارجية للحكومة ، **وهى أكثر تعقدا من المحاولة الضعيفة التى حاولت بها الحكومة الاسرائيلية فى سنة ١٩٦٠ أن تخفى مؤسسة للنشاط النووى بمجرد القول بأنها مصنع للنسيج .**

ومنظمات التغطية ليست عملية جديدة ، ويستطيع الامريكان أن يتصوروا الحقيقة التاريخية من أن استقلال أمريكا انما يرجع الى حد بعيد لعبقرية ونجاح منظمة فرنسية للتغطية ؛ ففى سنة ١٧٧٧ حث وزراء فرنسا لويس السادس عشر على أن سياسة فرنسا يجب أن تكون تعضيد القتال الذى تقوم به المستوطنات الامريكية للاستقلال عن بريطانيا العظمى ، ولكن

الحكومة الفرنسية مع هذا لم تكن مستعدة لان تضع مثل هذه السياسة موضع التنفيذ علانيه ، ولقد تطوع لافاييت وحفنة من الضباط الفرنسيين الشبان للخدمة فى جيش الثورة الذى أطلق عليه اسم (Continental Army) ، ولكن لم يكن هذا بحال ما هو المعاونة ذات القيمة التى تحتاجها المستوطنات الثائرة على الوطن الام ، ولا هى كذلك بالمعونة التى تسهم بها الحكومة الفرنسية فى مثل هذه المعركة .

ونجد الاجابة على هذا فى شخص « بيير اوجست كارون دوبومارشية » Pierre Auguste Caron de Beawmarchais وهو شاعر وكاتب مسرحى ومؤلف رواية « فيجارو » وهو رجل قد عرف بتعضيده للآراء التحررية الواعية ثم أنه رجل ثرى ، وقد منح بورشية خطابات اعتماد لانشاء شركة تجارية فى باريس تحت اسم « هورتاليز وشركاه » Hortalez & Coy. ، وقد اسهمت هذه الشركة بقدر كبير فى النهوض بتجارة أمريكا الشمالية ، وكانت مستعدة متأهبة للعملية وبخاصة لانه كان بين كبار رجالها سيلاس دين Silas Deane وكانت أهم خاصياته بالاضافة الى كونه أمريكى الرعوية أنه كان عميلا لمجلس الكونجرس الذى كونته المستوطنات الثائرة Continental Congress ، وفتحت أبواب خزانة فرنسا وأبواب مصانع الاسلحة والذخائر فيها فتحت لشركة هورتاليز وشركاه ، وقدمت الشركة للمستوطنات الامريكية كميات لا حصر لها من الاسلحة والذخائر والمنسوجات والنقود ، وكان بين الكثير الذى قدمته تسعة أعشار ما استخدم من الاسلحة والذخائر التى استخدمها الامريكان فى معركة ساراتوجا ، (ومن المؤسف أن اضطر لان أضيف هنا أن بومارشيه الذى لم يكن لديه من المال ما يكفى لتغطية كل هذه النفقات بعد أن انتهت معونة فرنسا وأرغم على أن يرفع دعوى للحصول على حقوقه ، وقد انتهت القضية سنة ١٨٣٥ عندما انتهى الكونجرس الامريكى الى قرار بسداد كل هذه الديون لورثته) .

ومدى عمل منظمات التغطية واسع فسيح ، **فهو يحتضن كل صور النشاط فى كل ركن من أركان العالم فيما عدا المنطقة التى لا تصلح للحرب الباردة الا وهى القارة القطبية الجنوبية Antartica ، وتتواجد هذه المنظمات فى كل ميادين الحياة الدولية : الحركات السياسية ، منظمات الشباب ، الجماعات الدينية ، الفنون ، دور النشر ، ومؤسسات التعليم والعمل ، والجمعيات المهنية من كل الانواع ، والمصارف والمؤسسات ، وجمعيات الصداقة .**

وبعض هذه منظمات كبيرة جدا تلعب دورا رئيسيا أصيلا فى ميادين تخصصها ، والبعض الآخر مجرد وكالات للتعضيد والمعاونة ، تعمل فى الغالبية للتمويل ، ولما كان الناس فى كل مكان يهتمون بأمر النقود من أين جاءت وما مقدارها وفيم تنفق ومن ثم فان عملية الامداد بالمال من أعقد المراحل فى العمليات السرية ، وبعض منظمات التغطية لها الآن قدم ثابتة على المسرح الدولى ، وبعضها قد تكون فقط لاغراض محدودة ثم حل عندما انتهى الغرض من تكوينها ٠

وبعض هذه المنظمات قد نجحت نجاحا ملحوظا فى الاحتفاظ بالغطاء الذى تستتر وراءه ، والبعض تحمل فى اعطافهـا رائحة (عبير) الزور والبهتان Aura of falsity ، على أن الظاهرة البارزة فى الموقف الحالى هى أن (رائحة الزور والبهتان) هذه لا تؤثر فى قيمة المنظمـة ، وحتى القوة المعارضة التى تقف منها موقف التضاد تتقبل اسطورة الغطاء ما دامت تتمشى مع مصالحها ، واحدى منظمات التغطية الامريكية الكبيرة والتى قامت منذ بضع سنوات ولا تزال قائمة تعمل يعرف كل فرد فى الميدان أنه منظمة حكومية وان كان لم ينجح أحد فى اثبات هذا ، ولقد تقبلها الجانب الغربى على أساس أنها تقوم بوظيفة تنسيق نافعة كما تقبلها الجانب السوفييتى على أساس اعتبارها مثل « منظمة غربية قبيحة الشكل » ولكن القضاء عليها يتطلب انفاق بعض المال مما يحسن أن يستثمر فى اتجاه آخر ، وهكذا نرى أن المشكلة فى كلا الجانبين هى تقدير المبلغ الذى ينفق لتعضيدها من جانب، أو القضاء عليها من الجانب الآخر ٠

والتعرض العام للشفافية أو الوضوح بالنسبة لمنظمات التغطية لهو دليل على التوتر الدولى وعلى وجود أزمة ، وفى أثناء الحرب الاهلية اليونانية ذهبت الى بحيرة بريسبا Prespa وهى منطقة من المياه تتقاطع وسطها حدود اليونان والبانيا ويوجوسلافيا ، وفى ذلك الوقت ذى الطابع البارز فى تاريخ العالم يوم ذاك كان اليوجوسلاف يعاونون الشيوعيين اليونانيين كما كان الالبانيون يساعدونهم أيضا ، ولكن كان اليوجوسـلاف والالبانيون يقفون من بعضهم بعضا موقف العـداء والخصومة بسـبب القطيعة بين ستالين وتيتو ، ثم أنه كانت هناك فى الواقع التواءات فى صفوف الشيوعيين اليونان على أساس أن عملاء اليوجوسلاف وعملاء الكومنيفورم كانوا يحاولون اجتذاب شيوعيى اليونان كل الى جانبه فى النزاع القـائم بين سـتالين وتيتو ٠

وفى ضوء النهار كانت المنطقة حول البحيرة تبدو منطقة جبلية رائعة خلابة المنظر ، والمياه الهادئة تظل صامتة الا من ارتجاج غير ملحوظ بسبب بعض الاهوية الضعيفة ، وكانت الجبال ترتفع فى لون أزرق جميل تحت أشعة الشمس ، ثم لا حركة بعد ذلك ، فاذا اما أسدل الليل سجفه على المنطقة بدت وكأن الارض قد انشقت وأن الجحيم قد فتحت أبوابها تسأل خزنتها هل من مزيد ...

ومن الحواف الشمالية للبحيرة يمكن أن تسمع صوت تقدم قارب يوجوسلافى متجها الى اليونان أو الى البانيا ، وبعد ذلك يمكن أن تسمع من الساحل الالبانى الغربى صوت المزيد من القوارب ، وأخيرا تنشط الحركة ، ويبدأ صوت طلقات الرشاشات الآلية والبنادق من كل اتجاه ومن على سطح الماء وتدلك أضواء الطلقات المضيئة على اتجاه الرصاصات ولكنك لا تستطيع أن تعرف من الذى يطلق الرصاص وعلى من يطلقه ، وقد يمكن أن تدلك أضواء الطلقات على وجود قارب أو أكثر ولكنك لا تستطيع أن تميز من فيه ، وقد تدرك من فترة صمت على أن عملية ناجحة قد تمت وأن بعض القوارب قد رست على الشاطىء اليونانى ، ثم تبدأ من جديد فترة مليئة بأصوات القوارب وأصوات الطلقات النارية .

وكانت بحيرة بريسبا محطة مركزية كبيرة لحركة العملاء فى جنوب شرقى أوروبا ، وكانت المشكلة هى أن كل الذين يشتركون فى الصراع هناك يحملون الاسلحة النارية وكلهم قد ثارت أعصابهم الى حد أن أصابعهم دائما موضوعة على الزناد (التتك) .

* * *

وفى خضم هذه الحالة المضطربة من السلم والحرب أرادت الخدمة السرية البريطانية أن تدلى بدلوها فى المعركة فأرسلت جماعة من رجالها ولعلها استهدفت أن تقوم بنصيب ما لحسابها الخاص ، ولسبب غير واضح قررت لندن أن يمثل رجالها قنصلا وموظفو قنصلية انجليزية فى بلدة قريبة من البحيرة ، وأن يكون هذا العمل القنصلى هو الغطاء الذى يستتر وراءه رجالها ، وكانت رحلتى الى البحيرة تتطلب أن يكون جواز سفرى مختوما بخاتم هذه القنصلية الوحيدة فى المنطقة ، وذهبت الى دار القنصلية بعد الظهر وبقيت طويلا ولكنى لم أجد أحدا ، وفى اليوم التالى ذهبت وبقيت هناك حتى جاءت فى المساء المبكر سيارة من سيارات الجيب تحمل رجال

القنصلية ولعلهم قد جاءوا لاستعواض حمولتهم من الذخيرة ، وعندما نزلوا من السيارة كانوا مسلحين الى غاية ما يمكن أن يتسلح به جندي مقاتل في ميدان الحرب ٠

وعندما أوضحت طلبي للقنصل بدا لي وكأنه لا يفهم ما أقول ، ولكنه مع هذا فهم مني بعد وقت أن المسألة تتطلب ختم جواز السفر بخاتم القنصلية وهنا صاح القنصل بصوت عال :

ـ جارفس اين هذا الخاتم الملعون الذي يحمل اسم القنصلية ؟

وجاء جارفس وهو يلتهم بعض اللحوم وقال :

ـ لقد رأيته من أسبوعين في ذلك الركن وسط ذخيرة الرشاش ستن
وذهب الرجل الذي عرفت أن اسمه جارفس الى ركن الغرفة يبحث وسط بعض الصناديق الخشبية ٠

وبعد أن ختم جواز السفر ، وبعد أن أزلت ما كان يتساقط عليه من اللحم المحفوظ الذي يمضغه جارفس هنأت القنصل على هذا الغطاء الذي يستتر وراءه ٠

وقهقه القنصل ثم قال :

ـ ليس لدينا وقت للتفكير في هذا في خضم هذا الاتون ، ولقد أحسنوا صنعا عندما حولوا من هذا المكان الى فرع لمكتب الملحق البحري وجاءوا لنا بقارب مسلح ومصابيح كاشفة ٠

ومن هذا القارب ومع استخدام هذه المصابيح الكاشفة كان القنصل ورجاله يقومون بدورهم في العمليات الليلية عند البحيرة بصورة أو بأخرى ، والواقع أن القنصل كان محقا فان الحرب السرية قد تحولت الى حرب علنية ولم يكن لاحد أن يهتم بالغطاء أو بالساتر ، وهذه اللامبالاة بالنسبة للساتر تبدو واضحة في أعمال الغرب في أوقات ومناطق الازمات، والشيء الذي يبدو متناقضا هو أن الرأي العام العالمي لا يسمح بمثل هذا التحول من جانب « منظمات التغطية » السياسية التي تتبع دول الغرب على حين أنه لا يبالي في الغالبية بمثل هذا التحول من جانب منظمات التغطية السياسية السوفييتية ٠

ويبدو للكثيرين أن هذه « اللامبالاة » بالنسبة للكشف عن الغطاء السياسى السوفييتى ليس بمساواة فى الحكم تجاه أعمال السوفييت وأعمال الامريكان ، وعلى أحسن الصور فانهم يرون أن هذا كدليل وأثر على عقول مخدوعة اسيىء توجيهها ، أو أنها عقلية الحمقى الذين غرر بهم الشيوعيون، والواقع أن هذه هى الحال فعلا فى بعض الاوقات ، الا أننى شخصيا أعتقد على أساس تجارب ليست بالقليلة أن وجهة النظر هذه وجهة نظر انهزامية بالنسبة لموقفنا نحن ، ولو كان من الصحيح أن الملايين الذين يعضدون حركة السلام الشيوعية كلهم أو حتى غالبيتهم من هؤلاء الحمقى الذين غرر بهم الشيوعيون ، أو لو كان كل أولئك الذين يعارضون الحرب النووية واجراء التجارب النووية هم أيضا من الحمقى لكان من الضرورى أن نلقى بقفازاتنا فى أوجه باقى العالم فان هؤلاء الحمقى يزيدون علينا عددا ٠

ولكنى لا أعتقد أن هذه هى الحال ، فلقد بدأت حملة السلام سنة ١٩٤٨ كمنظمة سوفييتية للتغطية تستهدف تدعيم السياسة السوفييتية الخاصة بالدفاع الغربى ، وقد قامت الولايات المتحدة برد فعل من جانبها فأصدرت البيان تلو البيان تقول بأن هذه الحركة انما هى ابتكار سوفييتى لتعضيد السياسة الخارجية السوفيينية ، ولكن هذا الجهد لم يؤت ثماره ، ونجحت الحركة الى أبعد حتى مما قدر الروس الى حد أنهم عندما أرغموا على التدخل فى المجر كان عليهم أن يدفعوا الثمن غاليا لما فقدوه من مكانة بين أولئك الذين كسبوهم من قبل فى هذه الحملة ، وهكذا أستطيع أن أقول فى ايجاز أن الناس قد وقفوا بلا اكتراث ولا مبالاة ان لم نقلوا موقف التسمح تجاه رفع السجف عن أن « **حملة السلام** » انما هى ابتكار شيوعى ٠

ولست أعتقد بأن هذا كان بسبب أن كل هؤلاء الناس حمقى غرر بهم الشيوعيون ، بل أعتقد أن الناس قد وقفوا هذا الموقف تجاه هذه الحملة بسبب أن ما يعرض عليهم فى هذا الموضوع بخاصة ألا وهو السلام والهدوء والإطمئنان قد استهواهم واجتذب انتباههم وتقديرهم ٠

وفى المناطق الكبيرة من العالم حيث لا تغلق كلمة « الشيوعية » آليا عقول الناس عن التفكير فى أى شىء غير ما يقال لهم ، فى هذه المناطق الكبيرة من العالم نجد أن المسألة الاساسية هى .

ماذا هو الامر الذى يعرض على الناس ؟

وفى ضوء هذا وتبعا لعدم تفهمنا هذه الحقيقة استطاع السوفييت أن يكسبوا المناورة من الغرب ٠

وقد نستطيع أن نقول هنا ولكن لماذا تطلب منا الولايات المتحدة فى نفس الوقت أن نكون أكثر عناية بغطائنا ؟ ان الاجابة على هذا السؤال فى تقديرى لهى اجابة ذات شقين ، ففى الشق الاول اننا فى بساطة لو أننا قد وصلنا الى فكرة طريفة مثل فكرة « حملة السلام » فاننا لا نكون مضطرين لان نعنى كثيرا بمثل غطائنا ، والشق الثانى ـ على ما أعتقد ـ هو حقيقة أن عددا أكبر من الناس أكثر مما نقدر يحكم على الاتحاد السوفييتى وعلى الغرب بعامة وعلى الولايات المتحدة بخاصة تبعا لتقديراتنا نحن لانفسنا ٠

والسوفييت لا يعنون بالفرق بين الفكر أو المبادأة أو الاحتكار فى الميدان العام أو فى الميدان الخاص فى الشئون الخارجية ، والناس يتقبلون هذا ويسألون فقط ماذا هو الشىء المعروض ؟

أما فى الغرب فان الدول الغربية تزعم بأن هناك ـ أو يجب أن تكون هناك ـ سعة وفسحة للمبادأة والابتكار أو الرأى الخاص فى أى ميدان بما فى هذا العلاقات الخارجية وفى أوسع صور هذه العلاقات كدليل للمجتمع الجيد التنظيم ، والناس يفترضون أننا نعمل بما نبشر به ، وفى تقديرهم لمشكلاتنا واحتياجاتنا يدركون أننا لا نستطيع دائما أن نغفل فى هذه الفترة من فترات النزاع أن نغفل هذا ٠٠ أى أن نقوم فعلا بعمل ما ينشر به وبما ندعو اليه ٠

والناس من ذوى النوايا الطيبة يلوموننا لاننا نحسر القناع عن غطائنا الذى نستتر وراءه ، وأصحاب الاراء السفوسطائية Sophisticated المزيفة يتوقعون دائما أن نكون ترتيباتنا فى جملتها ـ أو مع تقدير كل اعتبار ـ بقصد الاغتصاب ، والواقع أننا فى ايجاز نقاسى الكثير فى الحرب السرية دون ما عدالة وذلك لاننا انما ندفع ثمن ما نقول اننا نؤمن به ٠

على أنه من الممكن أن تكون منظمات التغطية اليوم فى الغرب أكثر بكثير مما هو موجود منها فى الاتحاد السوفيتى ، ولا يؤخذ هذا على أنه دليل على أنه حيلة أو أحبولة Skullduggery **من جانبنا ، بل على النقيض فان « التغطية »** prolifcration **(أى النمو بظهور الاعضاء على التوالى)**

أو التعدد والاكثار من هذه المؤسسات فى الغرب لهو دليل على عنف الحرب الباردة وثقل الاعتداء السوفييتى ، ان هذه المنظمات هى (البارومتر) الذى تقاس به استجابتنا فى هذا النزاع ٠

ويعتقد بعض المراقبين أنه من وجهة نظر العلاقات الدولية فان الحكومة السوفييتية هى الغطاء للحزب الشيوعى الروسى أى (البولشـيكوف) Vsesoyuznaya Kommunisticheskay a Partiya وليس المقصود بهذا الغطاء ـ على ما يرى الاخصائيون ـ اكساب الحزب الشيوعى الروسى سرية بل القصد هو الحصـول على فائدة دولة وعلى حصـانة وعلى سـلطات لم تعرف من قبل لاى حزب سياسى ، أو بمعنى آخر جعـل الحزب الشيوعى الروسى على المسرح الدولى فى مصاف الحكومات ٠

ولما كانت الاحزاب السياسية هى فى الواقع آلات لتقديم وجهات نظر معينة فى تنظيم المجتمع فان الحكومة التى تكون مجرد ساتر لحزب سياسى لتتحرك فى علاقاتها الدوليه لتتدخل فى تنظيم مجتمعات جيرانها ٠٠ وهذه هى الحرب الايديولوجية ٠

وفى الامم التى يكون فيها أكثر من حزب سياسى واحد فان الحـكومة المنتخبة انتخابا صحيحا مناسبا هى وحدها التى تستطيع أن تعمل قوميـا ودوليا ، وبالتبعية فان جمع الرأى العام الديمقراطى لعمل أقل من الحرب لهو عملية صعبة ، وهذا يمكن تحقيقه فى الواقع اليوم على القيــاس الضرورى فقط بوساطة الحكومات ٠

والاكثر من هـذا هو أنه فى عالم يتوافر فيـه التوتر العنيف فان المنظمات الخاصة لا يمكن السماح لها بالقيام بأعمال دولية تؤثر فىالعلاقات بين الدول وتؤثر فى توازن القوى ، ان مثل هذه الاعمال يجب الاحتفاظ بها للحكومات ، ومع هذا فان كثيرا من مثل هذه الاعمـال وبخاصـة السياسية منها تفقد تأثيرها دوليا لو عرف أن العمل الذى تقوم به توجهه حكومة أجنبية ، أو أن العمل لو تولته علانية الحكومة فانه قد يؤدى الى مغامرة نتيجة اشراك قوات متعارضة متضادة قد تسبب هزيمة العمليـة أو أن تغير بدرجة لها خطرها من التوازن السياسى الدولى ، والحل لهـذه (الورطة) المسألة المحيرة بالنسبة للغرب هى منظمـات التغطيـة ، وهى وسيلة لتنظيم واستخدام الرأى العام ذى القيمة الكبـيرة برغم توزعه ، واستخدامه فى المصالح القومية والدولية ٠

وبمجرد أن تكون هذه المشكلة مفهومة فان حاجة الغرب لمنظمة التغطية ومدى انتفاعه بها يبدو واضحا ، ويمكن أيضا أن يرى أن الغرب أفضل اعدادا لهذه المباراة من الاتحاد السوفيتي وذلك بسبب التباين الكبير فى وجهات النظر والمصالح ، ومع هذا فليس من الضرورى أن تكون هذه الحقيقة نبأ يبعث على الارتياح ، وذلك لانه **مهما كانت مشكلات الروس بالنسبة «للغطاء عن طريق المنظمة» بل وبالنسبة للمنظمة نفسها فان الروس لا يقاسون أى عجز بسبب هذا وذلك لقدرتهم على استغلال نوع آخر هام من أنواع الغطاء للعمليات السياسية ذلك هو « منظمة الجبهة »** Front Organization .

ووجه الخلاف بين « **الغطاء** » وبين « **منظمات الجبهة** » يعتبر موضوعا يثير الجدل والنقاش بين المحترفين ، ويتفق خبراء « الغطاء » أن أوجه الخلاف قائمة موجودة ولكنها تضيع عند الاستخدام العملى لها . ويحتوى الكثير من المنظمات على مظاهر لكلا الامرين ، وبعض منظمات التغطية تنمو الى جبهات والعكس بالعكس ، ومع هذا فاننا نستطيع أن نقول فى ايجاز بأن « منظمة الجبهة » تسير لخطوة أو خطوتين الى ما وراء « منظمة التغطية » من ناحية التعقد والتركيب ؛ **وعلى حين أن « منظمة التغطية » تقوم لاخفاء انغمار حكومة في نشاط ما فان « منظمة الجبهة » لا تخفى انغمار الحكومة فحسب بل وتخفى أيضا الغرض الحقيقى وراء هذا الانغمار من جانب الحكومة .**

ولنفترض أنه فجأة وصل نبأ من القارة القطبية الجنوبية Antarctica **بأن طيور « البطريق »** Penguins **تستطيع أن تتكلم وأن « هؤلاء » البطارقة لهم رأى فى مستقبل قارتهم ، وأن وفدا منهم سيتقدم الى الامم المتحدة ، اذ ذاك ستتفق الدول ذات المصالح فى « الانتراكتيكا » أنه الى أن تتم مباحثات مع البطارقة فان المعاهدة الحالية التى تنكر أى مطالب اقليمية فى (انتراكتيكا) يجب أن تنفذ بعناية .**

على أن كل ما سيحدث ، بل وسيحدث فى وقت واحد هو انشاء :

١ ـ جمعية للصداقة السوفييتية ـ البنجوانية .

٢ ـ فرع انتراكتيكا الذى يتولى رياسته أربعة من البطارقة الشيوعيين الذين دربوا فى المحطة السوفييتية بالقطب الجنوبى فى ميرنى Mirny .

٣ ـ **الجمعية الملكية لمحبى طيور (البنجوان) البطريق تحت رياسة ليدى فلورابيلا فينش ـ هايد عالمة لغات الطيور المشهورة •**

٤ ـ **مؤسسة تعليم وتطوير البطارقة وهى مؤسسة غير تجارية مركزها نيويورك ويتولى رياستها أميرال بحرى أمريكى متقاعد هو الذى قام بالرحلات الاربعة الاخيرة الى القارة القطبية •**

٥ ـ **الجمعية الفرنسية لنشر الثقافة بين الطيور الناطقة** La Société Francaise pour la Diffusion de la Culture parmi les Oiscaux Parlents.

تحت رياسة مسيو جى باميلوموسى الاشتراكى والحاكم العام السابق للهند الصينية ومن هواة جمع الطيور •

وكل هذه منظمات للتغطية •

ولما كان الاهتمام بالقارة القطبية الجنوبية على أشده فان كلا من هذه المنظمات تعمل من وراء ظهور الاخريات للاتصال بالبطارقة ، وهنا اتفق على عقد مؤتمر قمة لابقاء الحرب الباردة بعيدا عن القارة الجنوبية ، وفجأة يخرج رجل من **أورجواى** اسمه **شميدت** يصدر بيانا يدعو فيه الى انشاء اتحاد دولى لمحاربى انتراكتيكا (I.U.A.V) ، واغراض هذا الاتحاد تقديم معاشات ومساعدات مالية لمحاربى انتراكتيكا ونشر المعلومات عن هذه القارة الجديدة فى العالم ، ويتكون الاتحاد ويعقد أول مؤتمراته السنوية فى « تاهيتى » ويرسل الاتحاد تحية لاصدقائه البطارقة ويدعو الامم المتحدة الى عضوية الاتحاد ، ثم يقرر اصدار كتيبات عن الحياة فى القارة القبطية الجنوبية بأربع عشر لغة من اليونانية الى التاميل Taemi والسواحيلى والجورانى Guarani (٧) ، وفى الاجتماع السنوى الثانى الذى سيعقد فى أكرا بغانة يلقى شميدت الذى اختير سكرتيرا عاما للاتحاد خطابا يذكر فيه

---

(٧) التأميل . شعب ولغة الدراويديين فى جنوب الهند وشمال سيلان •

السواحيل : لغة البانتو الشماليين وهى لغة الناس فى وسط شرق افريقية •

الجورانى : قبيلة من هنود أمريكا الجنوبية تعيش بين نهرين جواى والاطلنطيق •

الاوردو لغة مسلمى الهند وهى خليط من الهند ستانية والعربية (المترجم) •

أن موضوع المعاشات لم ينفذ بعد وأن الكتيبات قد بيعت باعداد كبيرة ومن ثم فمن المقترح تقسيم أرباح على المؤسسين ويقابل الخطاب بتصفيق وهنا تعرض توصية بابقاء القارة الجنوبية بمنأى عن الحرب الباردة ويوافق على الاقتراح بالاجماع ثم يعلن اصدار ٥٨ كتيبا جديدا وقد أضيفت لغات أخرى منها الاردو ولغة التبت الى عداد اللغات التى تصدر بها الكتيبات ٠

وفى المؤتمر السنوى الثالث الذى سيعقد فى احدى واحات بلوخستان يلقى شميدت خطبة الافتتاح ويذكر أنه من الملاحظ أن عضوية الاتحاد قد ضعفت اللهم الا من الاتحاد السوفييتى ومن دول الديمقراطيات الشعبية ثم يجلس دون أن يذكر كلمة واحدة عن الكتيبات ولا عن الارباح ، ويتبعه فى الحديث نرويجى من صائدى الحيتان ويلقى خطبة باللغة السواحلية تحية للاعضاء الافريقيين وتدل الترجمة على أنه يحمل حملة شعواء على امبريالية الولايات المتحدة فى القارة الجنوبية ، وهنا يثب شميدت الى المنصة ليقرأ تقريرا عن حركة بيع الكتيبات وعن الانصبة التى ستوزع ٠

وتمر التوصية وسط التصفيق وتكون هى النبأ الاول فى كل صحف اليوم الثانى ، وتصدر جريدة « برافدا » نسخة باللغة البنجوانية وقد جاءت التوصية فى الصفحة الاولى وتوزع هذه الطبعة بالمجان بوساطة جمعية الصداقة السوفييتية ـ البنجوانية فى (انتراكتيكا) القارة الجنوبية ٠

وتنشر النيويورك تايمز الى جانب التوصية التى جاءت فى ص ٤ تنشر فى صفحة ٩٧ أن أغلب الاعضاء الانجليز والفرنسيون والامريكان فى الاتحاد قد تركوا الاجتماع ، وانهم قد اقترضوا أجور عودتهم الى بلادهم ، وأنهم قد أنشأوا **(الاتحاد الحر لمحاربى انتراكتيكا)** F.I.U.V.A **مع اختيار مركز رياسته فى اركنساس ٠**

ويجىء فى النيويورك تايمز أيضا أن البحث دل على أن شميدت ولو أنه من أورجواى الا أنه ثبت أن جدته سويسرية وانها كانت تغسل ثياب لينين فى زيورخ سنة ١٩١٢ ، وأنه فيما عدا مبيعات ثمانى مكتبات وثلاث صفقات خاصة من الكتيب المطبوع باللغة اليونانية فان كل النسخ وعددها ١٫٤٨٠٫٠٠٠ نسخة قد اشتراها الاتحاد السوفييتى وبعث بها الى اسوان لتلقى فى أساسات السد العالى ، ثم يتهم (الاتحاد الحر لمحاربى انتراكتيكا) ـ الاتحاد العام الاصلى بأنه احدى منظمات الجبهة للسوفييت ٠

* * *

وهذه القصة التصويرية لو نزعنا عنها مسألة طيور البطريق فانها توضح الفرق الهام بين « منظمات التغطية » و « منظمات الجبهة » ، ففى « منظمة التغطية » يعرف أكثر الاشخاص المسئولين حقيقة طبيعة المنظمة وحقيقة الصلة التى بينها وبين الحكومة ولو أن هذه الصلة تكون مستورة مخفية ٠

ولكن فى منظمة الجبهة فان عدد الاشخاص فى المراكز القيادية الذين يعرفون بالصلة بين المنظمة وبين الحكومة يكون أقل نسبيا ، وتكون صلتهم بالحكومة مخفية بوساطة غطاء من الاشخاص ، ويقوم هؤلاء الناس بدورهم الصحيح وراء ستار أغراض المنظمة المعلنة للناس ووراء « الجبهة » التى يكونها أعضاء المنظمة الذين لا دراية لهم اطلاقا بحقيقة المنظمة ٠

ولا يرضى بعض الاشخاص عن هذا ، وأعرف بعض مديرى « منظمات تغطية » استقالوا عندما عرفو بصفة رسمية أن منظماتهم تمول من الحكومة وأنها تستهدف أغراضا محددة لها بالرغم من أنهم فى الاجتماعات التمهيدية كانوا قد وافقوا على أغراض المنظمة وعلى أوجه نشاطها ، **وكل ما غير من الموقف هو معرفة أن الحكومة تقف وراء المنظمة تمولها وتوجهها ٠**

ومع تقديرى للمبادىء الدافعة وراء استقالة هؤلاء المديرين الا أننى أرى عن ايمان بأن وجهة نظرهم هذه وجهة نظر لم يعد لها من مكان فى ضوء الحوادث اليوم ، وأنا شخصيا قد مررت بهذه المرحلة «مرحلة تفضيل العمل المستقل الخاص فى الطابع المثالى الذى عرفه القرن التاسع عشر ولكن هذا الطابع المثالى نفسه هو الذى نظم ثورة بنما الثورة التى أوجدت جمهورية بنما وقناة بنما التى دفعت حكومة الولايات المتحدة من أجلها ثمانية ملايين من الدولارات لكولومبيا ، وكانت الثورة تدار من مؤسسة سوليفان وكروموبل للمحاماة بأجر تدفعه حكومة الولايات المتحدة قبل قيام وكالة المخابرات العامة ٠

اننا نعيش فى فترة صراع عنيف ، والقوى الدافعة فى الوقت الحاضر هى قوى مركزين عظيمين من مراكز القوى ، وكل من الدولتين القويتين تعلن صراحة رغبتها فى تجنب النزاع المكشوف الذى يؤدى الى استخدام الاسلحة النارية ، ولكن كلا منهما تشعر فى الوقت الحاضر بأنها مرغمة على أن تتابع خطاها للاحتفاظ أو للحصول على كل ما يمكن الحصول عليه من كسب عسكرى ٠

ولكن هناك بعض الخطوات مثل الاختبارات والتجارب النووية تعتبر خطوات رديئة سيئة بقدر كبير ولكنهـا فى الواقع تعتبر خطوات عدائية بطريق غير مباشر ٠

وخطوة مثل المحاولة السوفييتية لاقامة قواعد اطلاق صواريخ لها فى كوبا سنة ١٩٦٢ لهى صورة من صور العمل المكشوف ولون من ألوان العداء المباشر ، كما يمكن أن يقال عنها أنها عملية تآمر أوقفت البشرية عند حافة الصراع الذى يؤدى الى التدمير ٠

ان هذا النوع من المواجهة بالقوة علانية ومباشرة سواء فى كوبا أو فى برلين أو فى أى مكان آخر من العالم هو النوع الذى يحاول العالم تجنبه ٠

ان العالم ليتجه الى العمليات السرية والى العمليات التى يحسن اعداد الغطاء الساتر لها ٠

٦

الأمريكى الواضح الوجه

(الأمريكى ذو الوجه الصريح الأمين)

وعلى حين أن « الغطاء أو الساتر » يعتبر فنا الا أنه أيضا نقطة ضعف أمريكية ، والضعف ضعف وعيىConscious وضعف لا وعيى(لا شعورى) Unconscious ، ويمكن أن أقدم طابعه الوعيى فى رد الفعل من جانب أحد الشبان القادرين خريجى هارفارد عندما استخدم لعملية سرية فى منطقة البحر المتوسط ، كان غطاءه أن يبدو ككاتب صغير فى مصنع للسفن ، وعندما شرحت له هذا أجاب فى صوت واضح الاحتجاج : « أعتقد أنه يجدر أن تعطى الفرد عملا يستطيع أن يفخر به ويزهو حتى ولو كان عملا للتغطية » ٠

ومن هذه الناحية (ناحية الضعف الوعيى أو الشعورى) يجب أن نقدر التأثير لهذا الوعى ٠٠ أى وجهة نظر الفرد نفسه عن طريق وعيه وحسه حتى لو حاول اخفاءه ، فالنجاح ليس هو العامل المؤثر الوحيد هنا ، بل ان هذا النجاح يجب أن يكون مرئيا ظاهرا واضحا ، وأغلب الأشخاص الامريكيين الذين يعملون فى ادارة المخابرات العامة الامريكية C.I.A ينظرون الى عملهم على أنه حرفة للحياة ، والجائزة الكبرى بالنسبة لهم ليست بالجزاء المالى المادى ، بل ان ما يعنيهم هو الارتقاء والتقدم ، أى الوصول الى السلطة والنفوذ كموظفين فى الحكومة فى درجات كبيرة ، والقليلون جدا من الرجال هم الذين يرغبون فى أن يقضوا السنوات الطوال خارج الحكومة يعملون فى أعمال للتغطية ، ان مثل هؤلاء القلة يستحقون التقدير عن جدارة) ٠

والواقع أننى أحجم عن تقدير عدد الامريكان الذين يمكن أن يرغبوا فى القيام بدور مثل دور « رودولف ايفانوفيتش آبل » العقيد (الكولونيل)

× العنوان هنا رد على كتاب : *The Ugly American*

فى الجيش الاحمر ، الذى كان يتولى بعد نجاحه فى دخول الولايات المتحدة بطريقة سرية ـ رياسة شبكة ناجحة للجاسوسية السوفييتية فى نيويورك، لقد عاش الرجل لسنوات فى أمريكا منفصلا عن زوجه وأولاده الذين يعيشون فى الاتحاد السوفييتى ، وبقى الرجل لسنوات فى الولايات المتحدة مغمورا يعيش حياة دون المتوسط من الأعمال الصغيرة التى يقوم بها كمصور فى مستوى متوسط وما شابه ذلك ، وعندما تم اعتقاله أنكر كل شىء وتلقى الحكم الذى صدر ضده فى سكون (وكان استبداله سنة ١٩٦٢ بباورز قائد الطائرة ى-٢ ليس من اقتراحه هو ، بل من عمل محاميه الامريكى) ٠

ولقد أشرت الى سؤال : كم أمريكى يمكن أن يتقبلوا القيام بمثل عمل العقيد آبل ٠ ولكن هناك مسألة أخرى هى كم أمريكى يمكن أن تتوافر لهم المقدرة للقيام بمثل هذه المهمة ، والواقع أنه من الناحية اللاوعية (اللاشعورية) نجد الحقيقة المحزنة وهى أن **العملاء الأمريكان** فى الغالبية يبدون ويعملون فى الطابع التقليدى للعملاء الامريكان ٠

وأى شخص يقيم فى مدينة عندما يصل الى سن الخامسة والعشرين أو حتى قبل هذا أحيانا يستطيع لأول وهلة أن يعرف رجل البوليس أو مخبر البوليس وهو فى ثيابه المدنية ، بل ان بعض الناس فى مدن أمريكا يستطيعون بالغريزة أن يفرقوا بين مخبر البوليس وبين المخبر الخاص ٠

وبالمثل فى دنيا المخابرات والأمن فان عملاء مكتب التحقيقات الفدرالى أولئك الذين تخرجوا من أكاديمية مكتب التحقيقات يمكن تمييزهم عن العملاء الآخرين التابعين للمكتب ولكنهم يعملون من الخارج مأجورين له ، بل ان هذا التمييز يتم فى سهولة ويسر كما يمكن تمييز وردة القرنفل من مجموعة من الورد الأحمر ، ولربما كان انتشار التعليق على أنهم يفضلون ارتداء البدل الجبردين هو الذى جعلهم الآن يرتدون « بذلات » أقل ظهورا كثياب رسمية ، ولكن التجربة تدلنى على أنه لم ينجح أى منهم قط فى أن يغير من مظهر وجهه الجامد الصموت غير المعبر ٠

ومن سوء الحظ أن هذا حقيقى أيضا بالنسبة للعملاء الامريكان خارج أرض الولايات المتحدة وان رجع هذا الى أسباب أقل وضوحا ، ونحن الامريكان لعلنا لا زلنا نسير فى مرحلة النضوج كأمة ، ولكن مع هذا فان الشخص الامريكى قد بات طابعا مميزا معروفا فى أى مكان لخارج أمريكا

وليس هذا لمظهره ، بل لسلوكه وخلقه وسماته ولهجته ، ثم ان هذا الكثير من المسائل المعقدة الاخرى مثل رد الفعل السيكلوجى ، وأسلوب الاقتراب من الحقائق والمواقف ، والاقتناع بالمحادثات التافهة العديمة الجدوى ، وأخيرا بالعادات اليومية ، ولقد كان الكثيرون يعتقدون أننى انجليزى وبلا شك أن هذا لم يكن قط وأنا أعيش فى بريطانيا ولكن فى أى مكان من القارة كانوا يعتقدون أننى انجليزى وكان الناس لا ينزلون عن هذا الاعتقاد الا عندما أؤكد لهم أننى من ويلز وليس من انجلترا ٠

واللغة فى الواقع تعتبر « عقب آشيل » (أى المنطقة الاكثر تعرضا) بالنسبة للعميل الامريكى وللموظف الامريكى خارج الولايات المتحدة ، وفيما عدا اللغة فان شيئين اثنين آخرين لهما أثرهما ضده ، أولهما أن الامريكى الذى هاجر اليها من دولة صغيرة يمكن بسرعة تعقب أثره ومعرفة سابق حياته ولهذا فان موقفه يكون بلا شك أفضل فى خارج وطنه الذى جاء منه أصلا ، ولكن فى هذه الايام مع المواصلات السريعة ومع الملفات والدوسيهات والبطاقات الميسورة لملايين الاشخاص فان القصة التى تعد له للتغطية والتى يختفى وراءها تشتمل الكثير من العقبات التى يصعب التغلب عليها سواء بسواء كأى مواطن أمريكى آخر ولد فى الولايات المتحدة ونشأ فيها ٠

وعلى سبيل المثال فان أى شخص منفى من احدى دول أوروبا الشرقية يمكن أن يقابل بترحاب فى الهند أو فى أجزاء أخر من جنوب شرقى آسية ، ولكن من السهل وبسرعة تستطيع سلطات الامن المحلية وسلطات مكافحة الجاسوسية أن تعرف الكثير عنه من موطنه الاصلى ٠

على أن هذا يجب أن لا يؤخذ ــ من ناحية المشكلة التى يفرضها الغطاء ــ على أن الامريكى لا يمكن أن يؤخذ على أنه من جنسية أخرى ، بل أن المسألة فى الواقع أعمق وأكثر تعقدا عن هذا ، فمن ناحية الغطاء لا خطأ فى اعطاء أى أمريكى خارج الولايات المتحدة أى غطاء أمريكى لستر حقيقة عمله ، وقد يكون هذا هو الحل العملى الوحيد ولكن وجود أمريكى خارج بلاده انما يعنى بالنسبة للأجانب أشياء كثيرة وذلك على الاقل بالنسبة للفكرة التى لدى الاجانب ــ عن خطأ أو عن صواب ــ وهى أن الأمريكى يشعر بكبرياء اعتدائى واعتزاز بنفسه على أنه أمريكى ومن ثم فهو لا يغيب عن وطنه طويلا ٠

وهناك مسألة أخرى لا تخطر لاى شخص من أى جنسية أخرى سواء أكان الشخص هولنديا أو نرويجيا أو سويسريا أو يابانيا ، هذه المسألة هى وجهة نظر الامريكان أنفسهم فى الامريكى الذى يبقى طويلا خارج بلاده ، وأذكر أنه فى سنة ١٩٥٨ كان أحد قادة الفرق الامريكان موجودا بفرقته فى نيو أورليانز بفرنسا ، وقد أصدر الجنرال الامريكى قرارا بأنه لا يريد فى قواته أى أمريكى قضى خارج بلاده أكثر من أربع سنوات ذلك لانه يشعر أن الامريكى الذى تطول به المدة خارج بلاده لا يكون أمريكيا صالحا تبعا لتعرضه الطويل للنفوذ الاجنبى ، وقد حافظ الرجل على رأيه حتى انه هو نفسه عاد الى الولايات المتحدة فى تمام الاربع سنوات له خارج البلاد ٠

وسواء أكان الجنرال الامريكى يعنى ما يقول أم لا ، الا أنه حدث أن اختلف معى أحد مستشارى الرئيس على رأى من الآراء وعندئذ قال : « المشكلة هى أنكم أنتم الامريكان الذين عشتم طويلا خارج البلاد لم تعودوا ٠٠ أمر ٠٠ »

وتوقف الرجل دون أن يكمل جملته أو بمعنى أدق كلمته ، فهو يقصد أن الذين يعيشون طويلا خارج أمريكا لا يعودون أمريكان الى غاية ما تعنى الكلمة من معنى ، ذلك لانه يرى أنهم يتكيفون كثيرا مع الظروف التى يعيشون فيها ٠

ولكن هنا مسألة أخرى قد تكون أقوى من هذا كله ٠٠ فالامريكى الذى يعيش خارج أمريكا يجب أن يكون هناك السبب القوى الذى يجعله يفعل هذا ، والناس يعرفون حتى فى أعظم البلاد تحضرا أن حياة الامريكى فى بلادهم مجهدة له من الناحية البدنية والسيكلوجية والثقافية ٠

والعلاقة بين : ما ذا هو « الامريكى » فعلا ، وما يظنه الاجنبى فيه ، ثم ما يفكر فيه الامريكى من وجهة نظر الاجنبى فى شأنه ، لهى كلها عوامل متقاطعة تنتج نتائج غير متوقعة ٠

وعلى سبيل المثال حدث أن المسئولين قد انتهوا الى أن مصرفا ما فى أحد المدن الاوروبية هو منظمة سوفييتية للتغطية ، ولما كانت العمليات الامريكية فى أوروبا قد نمت وزادت وصار تمويلها مشكلة من أعقد المشكلات خطر للمسئولين أن نتبع نفس النموذج السوفييتى وأن نجعل مصرفا من المصارف الاقليمية فى أحد مدن أمريكا (وهو مصرف كان نشاطه قد توقف) يستعيد نشاطه وأن يفتتح فرعا له فى أوروبا ولو

تركنا جانبا أن مجلس الادارة الذى أعلن عن أسماء أعضائه الذين اختيروا لهذا الفرع الاوروبى ضم أشخاصا لا يمكن أن يصدق اجتماعهم معا لرياسة فرع مصرف لان أحدهم وحده يكفى لتدعيم مصرف قوى جم النشاط ، فيما عدا هذا فقد فشلت العملية كلها لسبب واحد هو أن الرجل الذى اختير ليذهب لوضع أساس عمل الفرع الامريكى فى هذه المدينة الاوروبية قد أفرط فى استخدام الغطاء ٠

ولكن كيف حدث هذا ؟

الذى حدث هو أن الحكومة المحلية فى ذلك البلد الاوروبى لم تكن فى ذلك الوقت تصدر (تراخيص) مراسيم بانشاء مصارف جديدة ولهذا كان من الضرورى شراء مصرف قائم فعلا ، وكان هناك مصرف صغير يريد أن يبيع ترخيصه بمبلغ معقول ولكن عملية البيع كانت تتطلب موافقة وزارة مالية ذلك البلد ، ولسوء الحظ كان هذا المبعوث من أمريكا ثرثارا كثير الكلام ، وبدلا من أن يقول ان رؤسائه فى أمريكا يريدون أن يسهموا فى عمليات المصارف للكسب تحدث كثيرا وعلى نطاق واسع كيف أن الفوائد التى تتقاضى على الاعمال المالية أشبه بعمليات الربا ، وقال ان قصده هو أن يدخل نظما مصرفية جديدة للقروض تجعلها فى متناول كل فرد ، وأن هذا لصالح الاقتصادى المحلى ، وكان يتحدث بهذا الحديث فى كل مكان وكان الكثيرون من مستمعيه من رجال المصارف وسرعان ما ذهب هؤلاء الناس الى وزارة المالية يحتجون على عملية البيع قبل أن تتم ومن ثم فشلت العملية ٠

والعناصر « الوعيية واللاوعيية » فى الخلق الامريكى والشخصية الامريكية قد أدت على الاقل فى ميدان « الغطاء للعميل » الى نوعين من النقص ٠

الأول ـ الاكثار من استخدام غطاء الحكومة فى الخارج ٠

والثانى ـ وضوح معين لترتيبات الغطاء الشخصى ٠

* * *

وليس من الضرورى أن يكون استخدام المؤسسات والادارات الحكومية فى الخارج كغطاء للعملاء هو فى حد ذاته خطأ فالمسألة مسألة نسبية ،

وهنا توجد أهمية كبرى بين نسبة العملاء المختفيين وراء الغطاء الى عـدد الموظفين الحقيقيين فى المؤسسة، وكذلك نسبة هؤلاء العملاء المختفيين فى هذه المؤسسة الى نسبة كل الشخصيات المختفية التى تخص هذه الدولة فى المنطقة كلها ·

واخفاء عدد كبير من العملاء وراء ستار الزعم بأنهم موظفون فى خدمة الحكومة يزيد من مغامرة انكماش الحقيقة وما يصحب هذا من مضايقات ، وبالاضافة الى هذا فانها تعرض المخابرات العامة لاتهامات من مصلحتها ـ بل ومن مصلحة كل العمليات السرية الامريكية ـ أن تتجنبهـا ، وأهم ما فى هذه الاتهامات **القول بأن المخابرات تسيطر دون أن يكون هـذا من اختصاصها ـ على سياسة الحكومة** ، هذا فضلا عن أن وجود عدد كبير من العملاء الذين يعملون تحت ستار غطاء الحكومة يسبب اضطرابا فى مدى نطاق العمليات السرية الخفية ·

ولقد وصف تايير والدو Thayer Waldo الصحفى الامريكى الذى كتب فى جريدة (سان فرنسسكو كرونيكل) عن عمليات كوبا :

« لقد قضيت ـ أنا الصحفى ـ النصف الاول من عام ١٩٦٠ فى كوبا وفى ذلك الوقت كان فى السفارة الامريكية ٨ من عملاء المخابرات العامة و ٣ من مكتب التحقيقات الفدرالى ولكل سلاح من اسلحة القوات المسلحة من فرد الى خمسة أفراد يعملون كلم فى أعمال المخابرات » ·

« ولم يكن الامر يتطلب جهدا خاصا لمعرفة هذه الحقائق والكشف عن حقيقة هؤلاء الافراد ، ففى مدى ثلاثين يوما من وصـول الى هافانا كانت أسماؤهم وأعمالهم فى وكالات المخابرات قد ذكرت لى بوساطة الصحفيين الآخرين أو بوساطة موظفى السفارة »

» وقد ذكر لى موظف السفارة الذى يعمل فى المخابرات متطوعا أسماء ودرجات الرجال الثلاثة الذين يتبعون ادارة التحقيقات الفدرالية وحدثتنى موظفة الاستقبال فى السفارة وهى كوبية تتحدث دائما ممتدحة كاسترو عن ستة من الرجال التابعين للمخـابرات ، وقد أثبتت تحرياتى صـدق معلوماتها «

« وبالاضافة الى رجال المخابرات العامة الذين يختفون وراء وظائف وأعمال فى السفارة كان للمخابرات عدد كبير فى العمليات هنا وهناك وأعرف أنا أسماء أربعة عشر منهم ولا شك أن عددهم أكثر من ذلك بكثير ، ومن بين رجال الاعمال فى الجزيرة أمريكى عاش فيها منذ السادسة من عمره عدا المدة التى خدمها مع الجيش الامريكى أيام الحرب العالمية الثانية وقد خدم بمكتب المخابرات الحربية ، وكان عمله هذا مدعاة لان يكون دائما تحت رقابة رجال كاسترو بمجرد اضطراب العلاقات بين كوبا والولايات المتحدة ، كانوا يتبعونه كظله ليل نهار وأى اتصال له بأى فرد يبلغ فورا ، ومع هذا فان المخابرات العامة عينته عميلها رقم ١ فى كوبا »

وفى أثناء عمليات سنة ١٩٦١ ضد كوبا أنشىء مكتب تجنيد للقوات المضادة لكاسترو فى نيويورك ، وفى نفس الوقت كشفت الصحف عن هذا المركز ، وعندما ظهرت أول مقالة عن المكتب فى الصحف أغلق المكتب أبوابه وان كان قد قيل ان السبب هو قرب المكتب من مركز منظمة هيئة الامم المتحدة ولم تذكر مسألة الكشف عن الساتر .

على أنه فى نفس الوقت كانت المقالات تملأ الصحف عن تدريب الافراد فى فلوريدا وجواتيمالا وفى كل مكان آخر حول البحر الكاريبى ، ومع هذا استمرت العمليات دون أى تعديل ليجيئوا فيما بعد ليقولوا بأن الصحافة تنشر المعلومات دون أى تقدير للمسئولية .

وكان الدرس الذى تلقيته بعد ذلك مفيدا فذات صباح أمسكت صحيفة أمريكية كبرى ولدهشتى وجدت واحدا من أعظم مراسلينا قد كتب مقالا ضافيا عن حملة كوبا ، وقد غطى عدة صفحات من الجريدة مبتدئا بالصفحة الاولى ، وعندما قابلته بعد ذلك ناقشته فى هذا وكان رده :

« اسمع يا صديقى ان هذه المعلومات لم تصلنى من أى مصدر رسمى واذا كنت استطعت أنا وحدى أن أجمعها معا قطعة من هنا وقطعة من هناك لاصل الى معلومات الى هذا القدر من الدقة فان الروس أيضا يستطيعون أن يفعلوا هذا ولهذا لا تلومنى بل وجه اللوم الى رجالكم أنتم وراجعوا سير الاجراءات فى مكاتبكم » .

وكان الرجل محقا فيما يقول ..

والمعلومات عن عمليات كوبا لم تعطى ولا شك للصحفيين الامريكان ، ولكن من أين جاء الدكتور راؤول شقيق كاسترو ووزير خارجيته بالمعلومات التى أدلى بها أمام الامم المتحدة ؟ هل يمكن أن نصدق بأن مصادر راؤول كاسترو كانت هى فقط الصحف الامريكية ؟ وهل من الممكن أن نصدق بأن الذين يعجبون بكاسترو من المراسلين الاجانب فى وسعهم فى سهولة ويسر أن يصلوا الى هذه الحقائق مع هذا الغطاء الرقيق الشفاف الذى يستتر وراءه كل العاملين فى العمليات السرية ؟

أن المسئوليةفى الواقع ليستمسئولية الصحفيين الامريكان بقدر ماهى مسئولية الموظفين الامريكان الذين يعرفون أن هذه العمليات سرية بالنسبة لنصحفيين وبالنسبة لغيرهم ومع هذا عندما انحسر الغطاء لم يأبهوا لهذا وتابعوا تنفيذ العملية ٠

والقول بأن موظفا ما يعتبر مسئولا ليس معناه بأنه كان مخطئا ٠

وقد نجد تصويرا جيدا فىحادث الطائرة ى-٢ وان كان فيه عدد قليل من نقاط الضعف ٠

فلقد كانت الحكومة تواجه بعض الصعاب فى عملية التغطية وعينت فى سنة ١٩٥٤ بدراسة الوسائل التى تمكن من تحقيق الحصول علىحاجتنا من المعلومات عن الاتحاد السوفييتى ، وكانت الطائرة ى-٢ هى واحدة من نتائج هذه الدراسة ، وكان من أولى القوى المعضدة لاستخدامها دقة المعلومات التى نستطيع الحصول عليها بوساطتها ٠

والى غاية ما أعد للتغطية من توزيع الطائرات على القواعد الجوية الأمريكية وقواعد الحلفاء والى ما أذيع من أن هذه الطائرات تقوم بالابحاث فى طبقات الجو العليا ٠

ولكن لم يكن هناك أىأ غطاء يمكن تقبله لتواجد الطائرة على مسافة ألف ميل داخل حدود الاتحاد السوفييتى مع وجود آلات للانذار وآلات للتصوير فيها ، وهكذا كان الغطاء الوحيد لمثل هذه الطائرات هو الطاقة الفنية ، أى أن تكون لها طاقة للارتفاع الى أبعد مما يمكن أن تصل اليه المقذوفات المضادة للجو ، ثم أن تكون سريعة بالقدر الذى يجعلها أسرع من أى طائرة مطاردة ٠

على أن هذا اللون من الوقاية كان عرضة للمخاطر ، مثل حدوث تلف آلى ·· أو أن يصل الروس الى تقدم كبير في تطور القذوفات المضادة للطائرات ، وحتى الآن ليس من الممكن معرفة أى من هذين العاملين هو الذى كان له النصيب الاوفر فى اسقاط الطائرة ى-٢

وعلى أية حال فان الجنرال أيزنهاور قد قال في بيانه ان العملية عملية كانت ضرورية وأنه كان من الضرورى تقبل المغامرة على أساس ان الفوائد والمنافع تزيد على الاخطار ، وما حققته هذه الطائرات فى الاربع سنوات التى عملت طوالها ليدل على أن هذا القرار كان قرارا سليما ·

على أن تغطية هذه العملية لم يكن وقفا على هذه الاعتبارات المحدودة ، كان من الضرورى أيضا التفكير فى الخطوات التى تتخذ فى حالة التدخل ضد الطائرة ، ومن الواضح أن هذا قد وضع فى الحسبان فى عملية الطائرة ى-٢ ، ولكن الى أى مدى وضع هذا موضع التقدير هو فى الواقع مسألة أخرى ·

وعندما تجاوزت رحلة باورز موعدها صدرت نشرة بقصة التغطية ، وقد صدرت عن الادارة المعنية بالابحاث الخاصة بالظواهر الجوية فى الفضاء مع تأكيد أن هذه الرحلات رحلات لابحاث علمية ، وقد اشتملت القصة أيضا على أن الرحلة كانت فى منطقة مثلثة الشكل يقع أضلاع المثلث على الحدود السوفييتية ، ومع نشر رسالة على أنها استقبلت من الطيار بأنه يواجه الصعاب من أجهزة الاكسوجين ·· وهنا برزت قصة أنه فقد الوعى وأنه لابد وأن يكون قد اجتاز حدود الاتحاد السوفييتى أثناء فقده لوعيه ·

وكانت القصة الى هذا الحد سليمة صحيحة ولكن كان هناك عامل ناقص له أثره لكى يجعل هذه القصة سليمة مقبولة وهو أن تكون الطائرة قد حطمت تماما وأن يكون الطيار نفسه قتيلا ، ولكن حتى مع تحطم الطيارة وحدها فانه كان من الممكن أن يرى فى اتهامات الروس مبالغة اذ لا يوجد أى دليل على أن الطائرة كانت تقوم بأعمال الاستكشاف ·

ولكن أضعف من هذا وجود الطيار حيا ولكن لو كان هو قد تمسك بالقصة التى ذكرتها ادارة البحوث فانه مع تحطم الطائرة كان من الممكن أن يكون الامر موضع الشك والحدس والتخمين ومن ثم فان قدرة السوفييت على استغلال الحادث تقل بقدر كبير ·

وكان هذا هو ما يمكن أن يسمى « الحفرة الاخيرة فى الغطاء » •

ولكن باورز تكلم ، ومن بيانات باورز العلنية فى موسكو ومن رسائله الى زوجته التى نشرت يبدو أن الدافع له على ذلك العمل هو أن يستطيع أن يقتصد ما يكفى من النقود ليشترى منزلا لها •

وتوجد أدلة على أنه قد حدث تفكير سابق فى الطيار وفى الطائرة ، فالروس يزعمون أن الطائرة ى-٢ كانت مزودة بزرار يحطم الطيارة والطيار بمجرد ضغطه وأن باورز قد قيل له فقط بأن ضغط هذا الزرار يسبب اطلاقه وحده فى الفضاء ثم يحطم الطائرة •

وهنا أول ثغرة ، ففى ضوء البيانات التى أدلى بها باوز أن جهاز تحطيم الطائرة كان مصمما على أساس أن يدفع به أولا فى الفضاء ثم يحطم الطائرة بعد ذلك •

ولو كان كلام الروس صحيحا ـ وهذا أمر لا نعرفه على التحقيق حتى الآن ـ فانه من غير المعروف ما اذا كان باورز يعرف أو لا يعرف أن غطاء العملية كلها كان متوقفا على انتحاره وقتله لنفسه ، فاذا لم يكن يعرف كان اذن الغطاء متوقفا على قاتله •

ومن الحكم بين المحترفين فى فن التغطية أن الغطاء الذى يتوقف نجاحه على انتحار العميل ليس بالغطاء الذى يمكن الاعتماد عليه ، وبالطبيعة فانه يقل بدرجة أكبر تقبل غطاء يتوقف نجاحه على قتل العميل حتى ولو كان هذا القتل بوسائل آلية ، فللضحايا أسلوبهم الخاص فى أن يعملوا دون قصد وبلا وعى لسبق حتى الاجهزة الآلية •

ولكن دون ما اعتبار للاقوال الاولية عن الطيارة والطيار فاننا نجد أنفسنا نعود من جديد الى الضعف الاساسى فى عملية التغطية أو بمعنى أدق فى عمل الامريكان فى ميدان التغطية •

لقد كان الغطاء لعملية الطائرة ى-٢ صالحا الى المدى الذى سار فيه ولكنى أرى أنه لم يسر بالقدر الكافى لحفظ سمعة الولايات المتحدة ، لقد كان العامل الهام هو القصة التى يذكرها الطيار لمن يمسكوا به ويعتقلوه

وبيان المخابرات لم يذكر ما اذا كان باورز نفسه قد أخطر بالقصة التى ستتولى ادارة أبحاث الفضاء اذاعتها لو حصل آى تدخل من جانب الروس أدى الى اسقاط الطائرة ٠

واذا كانت التعليمات على ما جاء فى بيان لجنة القوات المسلحة بمجلس الشيوخ الامريكى من أن الطيارين يجب أن يذكروا صراحة المهمة التى كانوا يقومون بها حال اعتقالهم فلماذا اذن كانت هذه القصة التى أذاعتها ادارة أبحاث الفضاء عندما ظهر أن باورز مفقود ٠

ومشكلة من مشاكل ضعف الامريكان فى عمليات التغطية هو محاولة الخروج على القاعدة الاساسية التى تقضى بالتوقف عندما يتعرض الغطاء للخطر ، ويعتبر هذا مساويا للهبوط بمستوى الغطاء كعنصر فى العمليات المستترة Covert ، (والهبوط هنا اما أن يكون بعدم الاهتمام باحكام كل اجراءات الساتر ٠٠ أو الهبوط بمستوى الشخص نفسه المستأجر للقيام بالعملية) ٠٠ ولكن هذه الفكرة أشبه بالاشتراك فى مباراة لناسبول دون حمل مضرب للعب به ، ومن بين أساطيرنا القومية العجيبة أسطورة تقول اذا تطلبت النجاح بالقدر الكافى فسيتحقق لك النجاح ، ولكن من الاهمية بمكان فى العمليات السرية أن تعد العدة للنجاح والفشل والغطاء هو من المجال الذى يجرى فيه هذا أيضا ٠

وفى ١٥ من أبريل سنة ١٩٦١ أغارت ثلاث قاذفات قنابل من طراز ب-٢٩ على أغراض عسكرية فى كوبا هى أساسيا المطارات حول هافانا ، وكانت لدى كاسترو فى ذلك الوقت قاذفات القنابل من هذا الطراز ، وطارت الطائرات بعد الاغارة الى فلوريدا حيث سمح لقائدها أن يقابل الصحفيين اثر الهبوط على الارض مباشرة ٠

وقد تحدث الطيار حديثا طويلا عن كيف أراد هو وزملاؤه (الذين هم مثله من ضباط السلاح الجوى الكوبى) طواعية منهم منذ شهور أن ينقلبوا على كاسترو ولكنهم كانوا يخشون دائما اكتشاف خطتهم ، وقال انهم فى ذلك الصباح اعتلوا طائراتهم ، وكآخر عمل يستطيعون القيام به قذفوا الاغراض العسكرية الكوبية بالقنابل وهم فى طريقهم الى المنفى الذى اختاروه فى الولايات المتحدة ، وكانت هذه قصة للتغطية ذلك لان السلاح الجوى الكوبى كان قد أسرع بأن قال لكاسترو ان الطائرات قد جاءت من خارج كوبا ٠

وكان للتدمير الجوى غرضان :

الاول ـ الغرض العسكرى :

اضعاف قوات كاسترو الجوية كاستعداد لعمليـة الغزو التى كانت ستجىء بعد ٤٨ ساعة ٠

الثاني ـ الغرض السياسى :

ايهام الكوبيين والرأى العام العالمى بوجود مقاومة لكاسترو داخل أرأض كوبا نفسها ٠

ولم يكن النجاح العسكرى يعتمد على قصة التغطية بحال ما بل كان الذى يعتمد عليها اعتمادا تاما هو النجاح السياسى ٠

وكما توقع فان الصحافة ، وبخاصة الصحف الامريكية عرضت قصة التغطية عرضا واسعا ، وشك الناس فى انكار كاسترو أن أيا من طياريه قد انقلب ضده ، وقد أوجد التأثير فكرة عن مقاومة داخل كوبا ، والى هذا الحد كان الموقف طيبا ففي وسط الضجة العالية كان الحديث الاساسى عن الانقلاب على كاسترو مرئيا واضحا ٠

ولكن كان هذا النجاح الاولى في الواقع محدودا بعامل الوقت فى نطاق ضيق ، فان المدى الذى يمكن أن تظل فيه قصة التغطية هذه مقبولة ينتهى يوم أن يخرج من كوبا صحفى أجنبى فيذكر الحقيقة ، ويكون التأثير على الرأى العام كبيرا يوم أن يستطيع مراسل أجنبى يوثق به أن يقدم قصـة كاملة تدعم انكار كاسترو ٠

وكان المسئولون عن العملية يعرفون هذا تماما ويقدرون عامل الوقت ويحسبون للمدى الزمنى ألف حساب ، ولكنهم كانوا يعرفون أيضـا أن عملية الغزو ستبدأ بعد ٤٨ ساعة ، ولما كان وضوح الحقيقة سيسىء الى موقف ومكانة الولايات المتحدة أمام الرأى العام العالمى وأمام الصـحافة الامريكية بخاصة ولهذا فانهم افترضوا أن تبقى قصة التغطية مقبـولة لاطول من هذا المدى الزمنى ، وكان للوضع احتمالان يمكن أن يحققا مثل هذه النتيجة أولهما أن تنجح عملية الغزو ، وفى هذه الحالة فان القصـة

الحقيقية تضيع فى خضم هذا النجاح واما أن عملية الغزو تنجح نجاحا جزئيا ومن ثم تنسى القصة الحقيقية فى غمرة الحرب الاهلية التى ستتبع عملية الغزو ·

ومن المستحيل أن نعرف أى الاحتمالين كانت له الصدارة لدى أولئك المسئولين عن العملية وحقيقة أن بعض الامريكيين من أهالى نيويورك قد اتصل بهم موظفون رسميون أمريكان يعرضون عليهم بعض أعمال كمستشارين فى حكومة كوبية جديدة ليدلنا على أنه لم يكن هناك فاصل فى التقدير بين النجاح الكامل والنجاح الجزئى ·

وقد لا يكون لهذا أى أهمية بالنسبة لموضوع اصدار قرار عن غطاء ساتر ، ذلك لان عملية تعتمد فى نجاحها على الاحتفاظ بالساتر ، أو تقدر أن العملية ستفشل تماما بسبب الكشف عن الساتر لهى ليست عملية خفيفة ولا عملية غادرة ·· بل هى مجرد مغامرة ·

ان الضعف الامريكى فى عمليات الغطاء لا يحل عن طريق البحث عن أولئك الذين يمكن تحميلهم مغبة الخطأ ، ان المشكلة أكثر تعقدا من المسئولية الفردية لبعض الموظفين ، وهى أعمق وأغمض من اعطاء سلطات لوكالة من الوكالات الحكومية ، انها تتركب من ثلاثة عناصر أساسية :

أولا : على ما وضح فى قضية باورز ــ التحديدات السيكلوجية التى تعطل من عمل الامريكيين كعملاء ·

ثانيا : عدم حكمة ونقص تدبير المستويات المحترفة التى تتولى مثل هذه الاعمال ·

ففى صيف سنة ١٩٦٠ كان طالبان أمريكيان يسافران فى الروسيا ويجمعان معلومات لرسالتين سيقدمانها للجامعة ، وقد اعتقلتهما الحكومة السوفييتية فى أوكرانيا واتهمتهما بالجاسوسية (ومما يستحق التنويه أن كلا منهما قد اتهم الآخر وطعن فيه ، على أن الحكومة السوفييتية قد أطلقت سراحهما وأبعدتهما عن البلاد) ·

ولكن الشىء المدهش أن الطالبين قررا أنهما يسافران بمنحة من مؤسسة نورثكرافت التعليمية فى بلتيمور ، ولكن صحفى أمريكى قرر أنه

لا توجد فى بلتيمور ولا فى أى مكان آخر مؤسسة بهذا الاسم ، **وفى هذه القضية كان من الممكن التفكير قبل سفر الطالبين فى استئجار مكتب من غرفة واحدة مع رقم تليفون ولم يكن يتكلف شيئا بالنسبة لنفقات سفر الطالبين ، وبهذا كان يمكن تجنب المضايقات التى تعرضت لها الحكومة الامريكية ٠**

والعنصر الرئيسى الثالث فى متاعب الامريكان يجىء عن طريق المستويات العليا فى الحكومة ، **وذلك لأن أولئك الذين يصدرون القرارات يفهمون القليل جدا عن طبيعة وأهمية الغطاء الساتر ، وهم كثيرا ما يتركون الاعتبارات السياسية تغطى على كل ما عداها ٠**

ومن أبرز الامثلة ٠٠ انه عندما تقرر العمل لاسقاط حكومة اربنز Arbenz فى جواتيمالا سنة ١٩٥٤ **أصرت السلطات العليا فى الحكومة برغم احتجاج المخابرات** على استخدام الطائرات فى العملية ، والواقع أنه لم يكن من الممكن أن يتقبل أى مراقب أن الكولونيل كاستيللو ارماس Castillo Armas يمكن أن يمتلك عددا من قاذفات القنابل الامريكية ٠

ان الغطاء لا يفضل الاعتبارات السياسية واعتبارات القوة ، ولكن فى العمليات السرية يعتبر الغطاء جزءا مكملا للنتائج السياسية الدولية ٠

ومهما كان مدى النقص بالنسبة للطابع الامريكى المكشوف الواضح فان هذا النقص لن يمكن التغلب عليه لا بوساطة الامريكى المسرف فى الثقة بنفسه ، ولا بوساطة الامريكى اليائس المتهور فى سبيل النجاح ٠

٧

المعلومات السرية

فى يوم من أيام شهر نوفمبر سنة ١٩٦١ نشرت جريدة النيويورك هيرالدتريبيون فى طبعتها الاوروبية أربع صفحات لا تحتوى أنباء عامة بل تحتوى أربع قصص من قصص الجاسوسية ، الاولى قصة شاويش ألمانى وزوجته كانا يسافران فى الاتحاد السوفييتى كسياح فاعتقلا واعترفا أمام محكمة عسكرية فى كييف بأنهما مذنبان بتهمة التجسس لحساب الولايات المتحدة ، وفى القاهرة ظهر على شاشة التليفزيون أثنـان من رجال بعثة دبلوماسية فرنسية بالقاهرة كاناقد اعتقلا قبل ستة أيام ، ظهرا على شاشة التليفزيون ليعترفا بقيامهمـا بالتجسس ضـد الجمهورية العربية المتحدة لحساب الحكومة الفرنسية ، وقد اعترفا فانهما كانا يبعثان تقارير «روتينية» سياسية واقتصـادية عن الجمهورية العربية المتحـدة الى وزارة الخارجية الفرنسية تضمنت تقريرا عن احتمال مهاجمة اسرائيل للجمهورية العربية المتحدة .

وفى واشنطون أصدرت وزارة الخارجية الامريكية وثيقة من ٢١ صفحة تحلل فيها نشاط الجاسوسية الشيوعية فى برلين وألمانيا بما فى هذا حادث كانت فيه مواطنة أمريكية تعمل فى القوات الامريكية المسلحة بألمانيا الغربية ضحية قصة غرامية مع شاب يدعى أنه مواطن أمريكى قابلته فى النادى الامريكى ببون ، وقد اشتملت القصة على محاولة ارغامها على نقل وثائق سرية للسوفييت ، وكانت القصة الرابعة من الهند تروى كيف وقف نهرو أمام البرلمان الهندى ليخبر الاعضاء بأن الجواسيس الدوليين فى منطقة حدود الهملايا قد تجاوزوا تعداد السكان الاصليين فى بلدة «كاليمبونج» وقد قال : « ان كل دولة كبرى لها عملاؤها هنا » ولم يقدم نهرو أى تفاصيل مما يمكن معه الظن بأن فى كل ثنية من الارض جاسوسا .

وكانت هذه القصص الاربعة عرضا منسقا فالروس يتهمون الامريكان وبالتبعية يحركون مشـكلة ألمانيا الغربية ، والامريكان يتهمون الروس فيدفعون بدورهم عجلة مشكلة ألمانيـا الشرقية الى مدى أعمق ، والعرب يتهمون الفرنسيين ويدفعون باسرائيل الى المشكلة من مشهد جانبى ، وحتى

نهرو المحايد دون تحديد معين يوجه الاتهام لكل فرد ، وهذا فانه عن طريق هذا التضمين يصحح موقف عدمذكره صراحة بريطانيا والصين، ودون بحث أو محاولة تقدير صلاحية كل من هـذه القصص ، ومع اغفال موضوع استغلالها للدعاية فان السؤال الوحيد الذى يمكن أننسأله هنا هو : « لماذا كل هذه النشاط وما هو الهدف منه ؟ » ومع تقديرنا بحق أن عدد عملاء الجاسوسية الذين يقبض عليهم فى أى لحظة لا يشكلون الا نسبة ضئيلة جدا ممن يكونون فى ميـدان العمل فعـلا فى نفس اللحظـة فعم يبحث هؤلاء الآلاف ؟ .

ان الاجابة هى كلمتان فقط :

« المعلومات السرية »

والتعريف الامريكى الرسمى للمعلومات هو «المعلومات : أنباء لها قيمة» أو فى المعنى الحرفى « أنباء مقدرة القيمة ـ مقيمة » Evaluated وتقدير القيمة هنا يشمل أيضا مدى الوثوق بهذه الانباء ومدى الوثوق بالمصدر الذى جاءت عنه ، فلا يمكن أن ينفصل أحدهما عن الآخر .

ومن الواضح أن تقريرا يجىء عن حشد مراكشى من ٣٠٠٠٠ جنـدى بقصد مهاجمة المناطق الاسبانية المتاخمة لمراكش اذا جاء نقلا عن سائق سيارة فى الدار البيضاء يكون شيئا آخر غير هذه المعلومات اذا جاءت نقلا عن موظف مراكشى بادارة التعبئة فى وزارة الدفاع المراكشية .

وبعد أن تتساوى كل العوامل فان المصدر الرسمى يقدر على مستوى عال من الوثوق وبذلك تكون الانباء موضع ثقة وتتطلب القيام بعمل على أساسها ، ومع هذا فانه اذا ما جاءت نفس الاشياء التى نقلت عن السائق من مصادر أخرى مثل تجار يقومون بتوريد حاجيات الجيش ومن أسر لها أبناء قد جندوا للخدمة العسكرية ثم من عدد آخر من المواطنين فى مختلف أنحاء مراكش أمكن النظر الى هذه الانباء على أنها شائعات ذائعة ، وهنـا يتطلب الامر بحث .

هل أذيعت الانباء بقصد ؟ ومن الذى أذاعها ؟ ولماذا ؟ .

هل هى بقصد اعطاء انذار للاهالى المراكشيين ؟ .

أو هل تقصد حكومة مراكش تهديد الاسبان ليعجلوا من مباحثاتهم ؟.

او هل تنشر أسبانيا هذه الشائعات بقصد تعليل عمل تقصد اسبانيا القيام به من جانبها .

او هل هى تدبير مراكشى لم تستطع حكومة مراكش الابقاء عليه سرا ؟ .

وهكذا نجد أن النبأ الذى جاء عن سائق سيارة فى الدار البيضاء لم يكن وحده يستحق القيام بأى عمل ، ولكن هذه الشائعات تتطلب القيام بعمل ما للاجابة عن سلسلة من الاسئلة وهذه الاجابة تجىء بها « خدمة المعلومات » المخابرات فى الدولة التى تحس بأنه يعنيها البقاء فى الصورة بالنسبة للشئون الاسبانية ــ المراكشية .

ولا يمكن تجاهل مسألة السلطة التى للمصدر وان كانت تضيع أحيانا فى ضوء مسألة الثقة بالانباء نفسها ، ففى صيف سنة ١٩٤٥ ، كانت سفينة النقل الروسية بالكاش Balkhash حمولة ١٥٠٠٠ طن فى طريقها الى فلاديفوستك مارة بمضيق لابيروز La Pérouse من بحر أوختسك الى بحر اليابان ، ولما كان السوفييت حتى ذلك الوقت ليسوا فى حالة حرب مع اليابان فقد كانت السفينة مضيئة أنوارها وكان العلم الاحمر السوفييتى مرسوما على برجها مع حروف U.S.S.R على جنبيها واضحة جدا فى الضوء الذى تبعثه مصابيح السفينة ، وفى قرابة منتصف الليل قذفت سفينة النقل بطوربيد وغرقت بعد دقائق قليلة جدا مع بعض الخسائر فى الارواح .

وقد أنقذ الناجون من بحارتها بوساطة سفن الصيد اليابانية وسفن السواحل أثناء الليل وفى الصباح التالى .

وبعد أسابيع قليلة قدمت الى واشنطون تقريرا ليس عن عملية اغراق السفينة بل عن رد الفعل من جانب المواطنين السوفييت حول اغراق سفينة سوفييتية بوساطة غواصة أمريكية تبعا لايمان السلطات البحرية السوفييتية بأنه فى ضوء حال الاسطول اليابانى يوم ذاك فانه من غير الممكن أن تكون هذه الغواصة شيئا آخر الا أن تكون غواصة أمريكية .

وكانت النتيجة بالنسبة لى استفهام قطعى من جانب رؤسائى عن الاسس التى تبعا لها خرجت أنا بافتراض أن الغواصة كانت غواصة أمريكية ، ولما أجبت بأننى أكتب تقريرا عن رد الفعل لافتراض سوفييتى

أصلا وأن هذا الافتراض السوفييتي جاء على أساس تحليل منطقي خرجت فيه السلطات السوفييتية بأن الغواصة يجب أن تكون أمريكية ، عند هذا عاد رؤسائي توجيه نظري الى أنني أكتب تقريرا عن مجرد شائعات وبذلك فكانني القي ضوءا من الشك على ما أكتب من تقارير ·

وبعد مدة وصلت الى أعماق هذه المسألة وتيقنت من أن الغواصة كانت أمريكية فعلا وعندما حدثت أحد رؤسائي بهذا نظر الى مندهشا وهو يقول :

« هل كنت تريد أن تسلم بوجهة نظرك ونعترف لك بأن الغواصة كانت حقا أمريكية ؟ » ·

ويذكرني هذا بأنني قد اخطرت قبل ٢٤ ساعة من اعلان الروسيا الحرب على اليابان بأنها قد أعلنت الحرب فعلا ، فأسرعت بارسال برقية بهذا ثم عدت بعد ست ساعات فالغيت برقيتي ، ثم ايقظوني في الصباح التالي لاسمع باعلان موسكو للحرب على اليابان ·

* * *

ومسألة ما يعتبر « رسميا » أي « صادرا » عن سلطة مختصة Authoritative وما « ليس كذلك » هي في الواقع مسألة نسبية ، فان مصدرا رسميا له سلطاته الكبرى قد يقدم أنباء هامة لها قيمتها ، ومع هذا يبقى السؤال الهام دائما موضع التساؤل ·· « لماذا ؟ » « لماذا كان الامداد بهذه المعلومات ؟ » ·

والفكرة في هذا أن « دس المعلومات » وهو موضوع سنعالجه في الفصل التالي ، يبقى دائما ماثلا أمام أعيننا ، وعند هذا الحد فان وثيقة مسروقة تعتبر معلومات أفضل من أي معلومات تقدم طواعية مهما كان المصدر الذي يقدمها وذلك لانها تتجنب Obviate مغامرة المعلومات المضللة المرسومة عن قصد ·

ومع هذا فان التساؤل بكلمة « لماذا ؟ » لا ينطبق فقط على خطر المعلومات المدسوسة ، بل أنها يجب أن يتطرق أيضا الى التساؤل بالنسبة للمصدر الذي تكون حقيقته أو (حسن نيته) bona fides غير موضوع بحث ، أي

لا شك فيها ، **ولكن الخطر هنا أن تعتقده وأن تصدقه** وهذه مسألة لها خطرها قاســت منها الامرين كل هيئات المخــابرات والحكومات فى وقت أو فى آخر ٠

وأحسن مثال لهذا من سوء الحظ تقدمه الحكومة الامريكيةفى مسألة كوبا سنة ١٩٦١ ، فلم يكن هناك أى جهد للتضليل ولا حقد أو غل أو ضغينة فى التقارير التى يكتبها الكوبيون المضادون لكاسترو ، ولا فيمــا يبعث به الامريكيون الذين يعملون فى المصالح التجارية الامريكية فى كوبا والتى تتعرض لنزع الملكية Expropairation ، وفى قولهم ضمن هذه التقارير أن أى غزو لكوبا بوساطة المنفيين الكوبيين سيسبب قيام ثورة فى داخل كوبا ضد كاسترو ٠

لقد كان قيام هذه الثورة فى كوبا هو الصورة المنطقية الطبيعية التى تنعكس من آمالهم التى تمس كل نواحى كيانهم ، ولم يكن خطأ من هؤلاء أن يشعروا هذا الشعور ولا أن يكتبوا هذه التقارير ولم يكن من الممكن أن يفعل أى فرد غير ما فعلوه هم ، ولكن كان الخطأ فى الواقع خطأ أولئك الذين أعطوا هذه التقارير أهمية كبيرة ، وهم لم يتقبلوا الاجابة المنطقية لكلمة ٠٠٠ « لماذا ؟ » بالنسبة لهذه التقارير ، ذلك لان هذه الاجابة كانت تتعارض مع آمالهم الخاصة ، لقد اسقطوا من حسابهم حتى تقارير المراقبين التى رأوها غير شعبية مثل تقارير كلايبورن بيل Claiborne Pell وهو سياسى له خبرة بالشئون الخارجية والذى كان لا زال سيناتورا منتجا عن رود ايلاند وقد زار كوبا فى هدوء زيارات خاصة وقرر أن الآمال فى قيام ثورة مضادة لكاسترو انما هى مجرد تفكير بل وفى أفضل صورها لا تزيد عن أن تكون مسألة فجة غير ناضجة ٠

* * *

ومشكلة « الانحياز والميل » bias من جانب مقدرى قيمة المعلومات مشكلة لا يمكن تجنبها فى المخابرات بل ومن الناحية الاهم لا يمكن تجنبها بدرجة أكبر من المجالس الحكومية العليا ، بل أنه لا يمكن الحد منها بتعديل وتغيير تنظيم هذه المجالس ، ولكن يمكن التغلب على هذا باعداد مقدرين لتقييم عمل المقدرين ، وقد تكون هذه مسألة معقدة ٠٠٠ فكيف تعد جماعة لتقييم عمل الافراد الذين يقصر واجبهم على تقدير قيم مايرد من معلومات ؟ وهكذا يبــدو لنــا أن الوســيلة الوحيــدة للاطمئنان داخل منظمــات

المخابرات هى فى الواقع خلق وصفات الافراد القائمين بالامر ومدى بعدهم عن الهوى والتأثر ، **ولكن لا سبيل لغير الاعتراف بأن الميـدان ملىء بشتى صنوف الناس الذين يشكلون خطرا للامن القومى من أمثال الذين كل ما يعنيهم هو التسلق على الاكتاف عن الطريق الرئيسى الصلب للوصول الى المراكز الرئيسية Bureaucratic Climbers ، ولكن صـواب الرأى وحسن التقدير ودقة النظر والمعرفة بالتـاريخ البشرى والدراية بالاتجاهات العالمية هى كلها من الصفات التى تقلل من الخطأ فى تفسـير المعلومات وتقدير قيمتها ، وقد لا تكون روح المرح والدعابة من جهة أخرى ذات أثر فى هذا المجال ولكنها ضرورية جدا لسلامة عقول الذين يعملون فى ميدان المخابرات ، ان مهارة الاحتراف فى النطاق الداخلى هى نصف القصة وهى من الضرورى أن تستكمل بالدراية والالمام بالسياسة الدولية لاهمية هذا لزعامة الامة ـ الولايات المتحدة ـ فى الشئون الخارجية .**

على أن هذا التعريف للمعلومات السرية على أنها الانبـاء ذات القيمة لا يمس مع الاسف أهم عامل يوجد قيمة للمعلومات والذى يوضح أيضـا الغرض الاساسى لكل العملاء السريين، أن**غرض العملاء السريين** هو الحصول على **المعلومات السرية** ، وهنا يجب التشديد على كلمة السرية فى الوصف لكل من « **العملاء** » **و** « **المعلومات** » .

والحاجة الى « المعلومات » هى فى حد ذاتها « أثر » أو « تأثير » وليست « سبب » ، ان هذه الحاجة نتيجة للنزاع أو للتنافس بين الامم ، وليدة الاحتكاك الذى لا منجاه منه بين الحلفاء ، وعبر المناورات المجهدة والمصادمات المستترة المكتومة Covert للحرب السرية وللعمليات العدائية العلانية .

ومهمـا كانت الدرجة فان لب الموقف هـو النزاع البشرى ، **وفى أى موقف مثل هذا فان المعلومات النافعة هى المعلومات التى لا يعرف العدو أنك على دراية بها وانها فى حوزتك .**

وكلمة « **سرية** » فى عبارة « **المعلومات السرية** » هى فى الواقع دقيقة Precise ومميزة Specific ، وهى لا تعنى بحـال ما أن العـدو لا يتملك نفس المعلومات ، بل أنه يعرفهـا على التحقيق لانهـا تجىء عنه وخاصـة به ، وما هو سرى أن العـدو **لا يعرف شـيئا عن درايتك بهذه المعلومات .**

ونستطيع أن ندرك هذا من مقارنة الهجوم اليابانى على بيرل هاربور بمعركة ميدواى ، فلقد كان الامريكان قبل بيرل هاربور على دراية بالكود أو الشفرة اليابانية ، واستطاعوا أن يعرفوا أن قوة بحرية جوية كبيرة يابانية قد خرجت للبحر الفسيح وأنها تعمل دون استخدام اللاسلكى .. وكانت النتيجة ما حدث فى بيرل هاربور يوم ٧ من ديسمبر سنة ١٩٤١ مما سجلة صفحات التاريخ للحرب العالمية الثانية ، وكان اليابانيون يعتقدون أن الامريكان قد حصلوا على الشفرة اليابانية ومن ثم فانهم قد أبطلوا استخدام اللاسلكى قبل وأثناء وبعد معركة بيرل هاربور ، ولكن انتصارهم فى بيرل جعلهم يثقون بأن الامريكان لم يحصنوا على الكود وهكذا فانهم فى معركة ميدواى التى تلت بيرل هاربور بستة شهور فقط كشفوا باستخدامهم للاسلكى ليس فقط عن أماكن تواجد القوات الضاربة واتجاهاتها بل وأوضحت اشاراتهم أن القوات الشمالية انما هى بقصد توجيه النظر فقط وأن القوة الضاربة الحقيقية هى القوة الجنوبية ، وهكذا استطاع الاميرال نيمتز أن يحشد قواته الدفاعية تجاه النقطة الاكثر خطرا وكانت النتيجة أنه حقق نصرا حاسما فى ميدواى ، ولا حاجة بى للقول لو أن أى كلمة خاطئة صدرت من أى من أعضاء اللجنة التى كانت تحقق مأساة بيرل وعرف عن طريقها تملكنا للشفرة اليابانية لكان هذا النصر الذى حققته الولايات المتحدة فى ميدواى مستحيلا ·

ولكن ليس معنى هذا انكار وجود أو قيمة المعلومات غير السرية ، أى المعلومات التى يعرف العدو أنك تعرف بها أو يفترض أنك تعرفها ·

والواقع أن حصيلة كبيرة من المعلومات يمكن الوصول اليها بطريقة علانية من مصادر كثيرة ، ودراسة وتحليلات المطبوعات والاذاعات والاحصائيات والتقارير الدبلوماسية والعسكرية تمكن بدورها من حصيلة كبيرة القيمة من المعلومات ·

ومثل هذه الابحاث والتحليلات للمعلومات من المصادر العلانية تقوم بها فى الولايات المتحدة فروع المعلومات فى :

وزارة الخارجية	State Department
وكالة مخابرات الدفاع	Defence Intelligence Agency
القوات المسلحة	Armed Forces

لجنة الطاقة الذرية	A. E. C.
المخابرات العامة	C. I. A.

وكذلك يمكن الحصول الى معلومات كثيرة عن العمليات الفنية مثل تحليل وسائل المواصلات والكشف عن الانفجارات النووية وهذه معلومات علانية والناحية السرية منها فقط هى الاجهزة التى تستخدم فى الكشف عن هذه الاشياء ٠

* * *

ويجب هنا أن نلاحظ بأن باقى حصيلة المعلومات التى تجىء عن طريق مراقبة البرقيات والبريد هى معلومات سرية ، على أساس أنها معلومات يفترض العدو أنك لست على دراية بها ، والمعلومات التى يمكن الحصول عليها بمثل هذه الوسيلة يمكن القول بأنها تصل الى ٢٠ ٪ على الاكثر من جملة حصيلة المعلومات التى فى حوزة أى حكومة كبرى ، وهى معلومات كبيرة القيمة بغض النظر ما اذا كانت معلومات سياسية أو عسكرية أو اقتصادية أو علمية ٠

والواقع أن هذا المعنى الموجز لكلمة « سرية » فى عبارة « المعلومات السرية» هو الذى يوجدبعض الخواص الاساسية لتكتيك العمليات للحصول على المعلومات السرية ،فهى على سبيل المثال، ان أساس سوء التفاهم الموجود بين الجماهير والصحف وأعضاء المجالس النيابية من جهة وبين الادارات التنفيذية فى الحكومة بما فيها المخابرات ، انما ينشأ وينمو عندما يقبض على عميل سرى ، ففى مثل هذه الاحوال جرت العادة أن الحكومة التى تعتقل العميل لا تكشف عما حصل عليه العميل من معلومات ، ولهذا السبب فان كل ما يضبط مع العميل السرى يذكر فى خطوط عريضة دون أى تفاصيل لعدم الافصاح عما كان يستهدفه العميل السرى وما استطاع الحصول عليه ٠

والعادة أن تخرج صحيفة ما بحديث عن العميل السرى قائلة ما دام أن الروس ـ أو أى دولة أخرى تبعا لجنسية العميل ـ تعرف ما حصل عليه العميل فلماذا لا نعرف نحن أيضا ؟ ٠

ولقد كتب مالكولم موجريدج Malcolm Muggeridge اخيرا فى جريدة نيو ستيتسمان الانجليزية : « ان أعجب قفل فى العالم هو القفل الذى يبقى على باب الاسطبل بعد أن يكون الحصان قد سرق » •

على أنه يجب أن نذكر دائما أن المسألة ليست مسألة ماذا يعرف العدو ••• بل أن المسألة الاعقد هى معرفة العدو ما اذا كنت تعرف أو تجهل ما يعرفه هو ••• فاذا قدرنا هذا استطعنا أن ندرك السبب الحقيقى وراء هذا التكتم والاخفاء •

ويجب أن ندرك فى بساطة أن كل مناقشة حول المعلومات التى حصل عليها العميل السرى ومدى صلاحيتها أو خطورتها هى فى الواقع لصالح العدو ، فمن الخطورة أن تخرج الصحف مثلا تحمل عنوان :

« ان الحكومة تشعر بضيق لان عملاء العدو الذين اعتقلوا قد عرفوا مواقع قواعدنا السبع والعشرين الخاصة باطلاق المقذوفات الصاروخية » •

أو •••

« يطلب الادعاء اعدام العميل السرى المتهم بسرقة ونقل خطة الجيش للحرب وبعث بها الى العدو » •

ان مثل هذه السطور يعطى العدو فكرة كبيرة عن المعلومات التى وصلته ، ولكن الصمت يجعل العدو يشك أو يقل من قيمة ما وصله من معلومات •

وبذلك يترك العدو يتابع المحاكمات وقد شغل باسئلة لا اجابة لها أسئلة مثل :

ماذا يعرفون أننا نعرف مما نقله الينا عميلنا ؟ •

هل يعرفون مثلا أننا نعرف خطة الدفاع عن الساحل الشرقى ضد المقذوفات الصاروخيه ؟ •

هل يعرفون أننا نعرف ما دار فى اجتماع مجلس الامن القومى ؟ •

ان صمتهم لا يعطينا مادة صلبه جامدة عن قيمه هذه المعلومات ٠٠ ، وهكذا فان الصمت فى الواقع يقلل من الخطر ، وللصمت كذلك دور ايجابى له قيمة ، فلقد رفضت السلطات الامريكية أن تذكر شيئا عن قضية شبكة الجاسوسية التى كان يتولاها ريتشارد سورج فى طوكيو ص سنة ١٩٤٣ عندما اعتقل ، وكان السبب هو أن الاسلوب الذى استخدم كان كبير القيمة للكشف عن عمليات سوفييتية أخرى ، وكان من غير الممكن أن يتم هذا لو عرف السوفييت ماذا عرفنا نحن من دراستنا للارشيف اليابانى بعد استسلام اليابان ٠

والاحتفاظ بالسرية باخفائك عن العدو حيازتك لمعلومات ما معينة لهو أهم من المعلومات نفسها ، والمبدأ الاساسى الاصلى فى العمليات السرية هو دقة ملاحظة الاسبقية للانفاق ـ أو بمعنى أدق أسبقية « التصرف والاستهلاك » ـ فى حالة التعرض للخطر فى صورة ما سواء أكانت فقد الحياة أم الاعتقال ، وأول وأسهل ما يمكن التصرف فيه هو التخلص من النقود والممتلكات ، وكان هذا أحد الاسباب التى جعلت « العمليات السرية للحصول على المعلومات » عمليات كثيرة النفقات ٠

والشيء الاهم هو العميل نفسه ، وعلى حين أنه من الواضح المفترض بأن كل عميل له أهمية من الناحية المهنية وأنه يجب أن يعنى بترتيبات وقاية نفسه الا أنه من الحقائق الثابتة التى لا جدل فيها أنه عندما يصل الامر الى مرحلة الاختيار فان مصلحة الوطن تتطلب من العميل التضحية حتى ولو كان أول ما يجب أن يتصرف فيه هو « نفسه » ٠٠ فقط يجب أن تكون تضحيته بحياته فى سبيل مصلحة الوطن وبكسب يعود للوطن ٠

وتجيء بعد هذا « خطوط المواصلات » ، وعبارة خطوط المواصلات تعنى أجهزة الارسال اللاسلكية والكود والشفرة ، وان كانت فى الغالبية تشير الى الاتصالات البشرية ، كما تشمل العلاقات والاتصالات المعدة من قبل فى الميدان ثم تجرى للخلف الى مركز الرياسة مما يوجد الشبكة الكاملة للمعلومات السرية ٠

وخطوط المواصلات هى الاجهزة التآمرية التى تربط العملاء معا وتربطهم بالرياسة ٠٠ وهى فى الواقع شبكة واسعة تبدأ من « المكان السرى » الذى يعد من قبل ليلتقى فيه العملاء عندما يفقدون الاتصال بالشبكة بالوسائل العادية ٠٠٠ ويتم التقابل فى مواعيد معينة تكون هى

بدورها معروفة من قبل ٠٠٠٠ ، وتنتهى هذه الشبكة بالوسائل المختلفة المتعددة التى تنقل بها المعلومات الىمراكز الرياسة ، ومن هنا يمكن بسهولة تقدير أنه فى حالة الاختيار بين فقد عميل واحد وبين تحطيم شبكة مواصلات كهذه فالايسر التضحية بهذا العميل ٠

ولكن هنا مسألة يجب أن توضع موضع التقدير ، ففقد وسيط من الوسطاء الذين ينقلون المعلومات بين العملاء والذى لا يعرف حقيقة هوية أى من الذين يعمل بينهم لهو بلا شك أقل خطورة من اعتقال العميل الرئيسى ، ولكن لا هذا ولا ذاك يعادل فقد شبكة المواصلات ، ذلك لانه بدون شبكة المواصلات لا يتواجد عمل سرى ولا توجد شبكة للعمل السرى ٠٠ بل يكونون عددا من الافراد غيرمتصلين ولا متعاونين ولا يتنسق عملهم معا ٠

وأقل ما يمكن التسمح (التسامح) للتصرف فيه هو المعلومات التى تكون اذ ذاك فى طريقها الى مركز الرياسة أو التى يمكن أن تقدم دليلا يدل على الحصول على أو حيازة المعلومات ، ان واجب العميل أنه فى حالة الخطر يجب أن يضمن بكل الوسائل أن لا يعرف العدو بحال ما أى شىء بطريق مباشر أو غير مباشر عن المعلومات التى نقلت عنه ، على أنه يوجد فى الواقع مدى زمنى لهذه الحاجة ويتوقف هذا المدى الزمنى على جدارة واهلية كل فرد ، ثم هى مسألة لا يستطيع عميل واحد أن يقررها ، صحيح أنه من المسائل « السيئة » أن نخسر للعدو شبكة تقوم للحصول على معلومات ، ولكن هذا الموقف السيىء يتضاعف عدة مرات لو كنا نخسر كل جهود العمليات السابقة بضربة واحدة ، ذلك لانه لو عرف العدو ماذا هى المعلومات التى قد حصلت عليها فان هذه المعلومات تفقد سريتها وبالتالى تفقد قيمتها ، وهذه النقطة واضحة ومعروفة حتى لكل العملاء السريين أنفسهم ، ومن ثم فانهم يعرفون بأنهم فى ساعة الخطر يجب أن يحرقوا أوراقهم ويبتلعوا قصاصات صغيرة تحتوى مفاتيح الشفرة أو الكود أو أن يقوموا بأعمال كثيرة أخرى وكل هذا بقصد اخفاء ما يدل على نشاطهم غير القانونى أو لوقاية الحكومة التى يخدمونها ، وهذه أغراض مرغوبة على التأكيد ولكنها تعتبر الى حد بعيد أغراض ثانوية بالنسبة للموضوع الرئيسى الاصلى الا وهو موضوع الاحتفاظ بسرية المعلومات السرية التى يكون قد تم الحصول عليها ٠

وتصور مسألة الكود هذه النقطة بوضوح ، والكشف السرى عن كود لهو نكبة بالنسبة للجانب الذى يفقده كما أنه نصر وكسب للجانب الآخر،

ومعرفة العدو للكود دون أن يكون مستخدم الكود على دراية أو يشك بمعرفة العدو له لعملية تعتبر ذات قيمة كبيرة فى ميـــدان العمل للحصـــول على المعلومات السرية ، ومع هذا فانه من المتوقع والمنتظر أن يحدث هـــذا ، ولكنه ليس ولا يمكن أن يكون مسئولية العميل على شريطة أنه يلاحظ كل الاحتياطات الضرورية فى استخدام هذا الكود ٠

والاستخدام الاساسى للكود واحتياطات الامن الخاصة به لهى مسئولية الافراد الذين يقومون بالتســـجيل الرمزى أو الكودى Crvptographic staff فى مركز الرياسة ٠

على أنه يوجد فرق كبير عملى الى غاية ما يعنى بالامر من ناحية التدابير المضادة ــ بين معرفة أن العـــدو قد حصل على الكود ، وبين الالتزام من الناحية العقلية لافتراض أن العدو قد حصل عليه ، وأذكر أننى مرة أثناء قيامى بمهمة خاصة فى بلد شيوعى أن (نشلت) محفظة أوراقى ، وكانت فيها بعض الاوراق والوثائق الخاصة مع بعض أوراق النقـــد فضلا عن قصاصة اعترف مع الاسف فى خجل أنها كانت تحمل عبارة لكاتب غير معروف ، ولكن كانت هذه العبارة هى المفتاح للكود ، وكان من المحتمل جدا أن أكون ضحية مواطن جائع خفيف اليد ، ولكنى مع هذا كان من الضرورى أن أفترض أن محفظتى فى أيدى العدو وأن أحد موظفى قسم التسجيل الرمزى يضع القصاصة على مكتبه لتحليلها ، ومع أننى كنت أعرف العبارة التى هى مفتاح الكود الا أننى تابعت المهمـــة فى صمت لم يؤثر من الناحية الرمزية الزمنية للمعلومات التى كنت أعمل للحصول عليها والتى كان رؤسائى ينتظرونها ٠

وحصول العدو على الكود له تأثيره المتقدم والمتخلف من ناحية الوقت، وأنت اذا لم تعرف أن الكود أو الشفرة التى تستخدمها قد حصل عليهـــا العدو وعرف سرها فان العدو يكون على دراية بكل جهود الشبكة فضلا عن قدرته على تعرف اتجاه العملية ، ولكن اذا عرفت أن العدو قد حصل على سر الكود أو الشفرة أو اضطررت الى أن تفترض بأنه قد حصل عليهما، فان قدرة العدو على الانتفاع بهما فى العملياتمستقبلا تكون قد انتهت وذلك نتيجة اما للامداد بكود آخر واما نتيجة للصمت انتظارا لوصول كود بديل للاول ، **ولكن شيئا لا يمكن من اصـــلاح الضرر نتيجة للمعلومات السرية التى تكون قد نقلت عن طريق الكود الذى عرفه العدو أو المفترض أنه عرفه ، ولم تعد هذه المعلومات السرية معلومات بحال ما ، ولهذا السبب**

فلا حليف للعميل السرى أفضل من أن تتوافر له ذاكرة قوية ، ولا يوجد عدو أخطر من مجموعة منظمة من الملفات يحتفظ بها العميل السرى فى مكان عمله أو مكان اقامته .

وأخيرا فان « أهم المهم » هو هذا التعريف الموضح للسرية فى عبارة « معلومات سرية » ، فالسرية هنا تعنى أنه لكى تكون هذه المعلومات سرية فانها من الضرورى الحصول عليها بطريقة لا يعرف معها العـدو أنه قد تم الوصول اليها ، والخطى التى يتخذها العميل لاخفاء نشاطه هى وسائل أولية للامن ، فان أهم يجب أن يعنى به هـو أن يبقى العـدو لا يعرف ما يعرفه هو ، وقد يكون هذا هو السبب فى أن نقل الوثائق بالفيلم المصغر (الميكرو فيلم) الشيء الذى يمكن اتمامه دون دراية من أى فرد هو فى الواقع معلومات سرية أفضل مما يمكن الحصول عليه بأى طريقة سرية أخرى حتى ولو جاءت عن طريق شخص موال فى معسكر العدو ، ثم أن هذا (وجود شخص موال فى معسكر العدو) من أندر الفرص للحصول على معلومات ، والاجراء العادى فى خدمة المخابرات هو انشاء كل ما يمكن من خطوط المواصلات بطريقةتجعل أولئك الذين يجيئون بالمعلومات لا يعرفون الغرض من الحصول عليها فضلا عن معرفة الجهة التى ترسل اليها ووسيلة هـذا الارســال ، وكثيرا ما أحس « متعهـد توريد » معلومات سرية Purveyor — برغم الدوافع القوية التى تدفع للقيام بهذا — أحس بالحيرة عندما يجد أن اتصالاته المليئة بالاخلاص ترفض Rebuffed من جانب هيئات المخابرات التى يأمل هو فى معاونتها ، وينشأ هذا الرفض جزئيا فى العادة بسبب الشك فى دوافعه ، وسبب آخر لهذا الرفض هو أن تقبل هذا العرض من جانب « المتعهدين » يجعله فى وضع يعرف معه أولئك الذين ينتفعون من هذه المعلومات وهذه المعرفة من جانبه تزيد من خطورة استطاعة العدو أن يفسد صلاحية كل ما سبق أن جاء من معلومات عن طريقه لو استطاع أن يكشـف عن حقيقة نشـاطه ، **وفى ايجاز فانك عندما تعرف متسلم المعلومات تستطيع أن تستنتج ماذا تسلم قبل هذا من معلومات .**

وفى نفس الصورة يجيء الفاصل أو الفرق بين عملية الحصول على معلومات وبين المعرفة الاكيدة بما تم الحصول عليه ، مما يوضح جزئيـا التسمح (التسامح) الدولى تجاه الملحقين العسكريين وعلى حين أن جزءا من هذا التسمح يرجع الى مبدأ : « أنت تقتل جواسيسى الشرعيين وأنا أقتل بالمثل جواسـيسك الشرعيين أيضـا » فانه يرجع أيضـا من جانب

آخر الى الاقتنـــاع بامكان معرفة المعلومات التى يحصل عليهـــا الملحق العسكرى أو البحرى أو الجوى ، وفى أغلب البلاد يتم هذا بوساطة الرقابة السرية ، وفى الاتحاد السوفييتي ودول الكتلة الشيوعية يتم هذا بوساطة الرقابة المســتمرة لاى نشـــاط من جانب أى دبلوماسى أو أى ملحق عسكرى ٠

وقد يبدو أنه أمر لا لزوم له Superfluous بل أنه أمر عادى تافه banal لان نشـير الى أن المعلومات التي يعمل للوصـول اليها بعمليات المخابرات السرية هي أصلا فى حوزة مواطنين أجانب ، وفى ايجاز فان مصادر المعلومات السرية هى دائما مصـــادر أجنبيـــة ، على أن هذه الحقيقة الاساسية لها معقبات هامة بالنسبة لتوجيه مثل هذه العمليات ، وأول هذه المعقبات الحاجة المستمرة للوصول الى معاونة هؤلاء المواطنين الاجانب الذين تتوافر لهم القدرة على الوصول الى المعلومات المرغوبة حتى ولو كان هذا المصدر الاجنبى مصدر معاد ، (أى العدو) ، على أنه توجد عمليات خاصة بالمعلومات السرية ولا ينغمر فيها أجانب، وأعتقد أن عمليات الطائرات ى ـ ٢ كانت من هذا النوع وأن كانت معاونة الحكومات الاجنبية مطلوبة للحصول على قواعد لهذه الطائرات ، وعلى أية حال فان غالبية هذه العمليات تتوقف الى درجة كبير على الاجانب من ناحية قدرتهم على الوصول الى شيء له قيمة حقيقة ٠ والعمليات الســوفييتية المعقـدة التى أجريت لتحصول على معلومات عن الاسلحة الذرية كانت مستحيلة لولا معاونة رعايا بريطانيين وأمريكان ٠

ولكن السؤال الحاسم هو ما اذا كان هذا المصـدر الاجنبي يرغب فى هذه المعاونة ، وما اذا كان يعرف ويفهم ما يقوم به ، وهذه كلها تتطلب قرارا حاسما فى بدء أى عملية ، وهنا يتطلب الامر أدق تقدير لدوافع هذا الشخص الاجنبى ،ولطاقاته ولاتجاهاته العاطفية والثقافية، والشخص الذى يكره نظام حكم يعيش فى ظله قد يعتبر أن خدمة مخابرات دولة أجنبية لهى أجل خدمة يمكن أن يؤدها لوطنه ، فاذا ما كان هذا الشعور أصيلا ، فان معرفته بما يفعله تعتبر جزءا ضروريا لتعاونه حتى ولو كانت هذه المعرفة توجد مغامرة بالنسبة لسرية وأمن العملية نفسها ولسرية المعلومات التي يجيء بها ٠

وهنا يجد السوفييت نفعا كبيرا من الولاء الايديولوجي للشيوعيين الاجانب للدولة الشيوعية ، وان كان السوفييت انفسهم يقاسون الكثير

من قبل هذا الامر فالحياة فى ظل الحكم السوفييتى مليئة بعوامل عدم الرضى مما يمكن استغلاله بوساطة الآخرين للحصول على معلومات سرية ، وقد يكون هذا حقيقى بالنسبة للدول التابعة للاتحاد السوفييتى ضمن الكتلة الشيوعية ، وهو كذلك حقيقى أيضا بالنسبة للاتحاد السوفييتى نفسه فمع هذا الخبل والهوس بالامن ومع مشاعر كراهية الاجانب الا أنه يتوافر عدم الرضى الذى يمكن استغلاله **(وان كان هذا لا علاقة لها بالاتهام** الفضفاضى الذى يوجهه السوفييت الى لافرنتى باريا رئيس البوليس السرى طوال عهد ستالين من أنه كان عميلا أمريكيا ، وحتى تروتسكى نفسه الذى طارده ستالين ثم اغتاله عملاؤه ممكن أن ينسب اليه التعاون مع خدمات المخابرات للدول الرأسمالية ، على أنى نتيجة تجاربى مع الروس أقول بأننى قد وجدت مصادر جيدة محدودة الا أن هذه المعاونة من جانب الروس تتطلب منك المهارة فى تسلق الاسوار الخلفية ، ومعرفة السير فى الطرق الضعيفة المظلمة وتقبل كل ما يمكن أن تكره ، ولست أذكر هذه الايام دون أن تتصاعد روائح نتنه الى أنفى ، فلقد كان لى عميل روسى لا يرتضى مقابلتى الا فى أحد المراحيض العامة القذرة وكنت أتوقع دائما أن يعلق رؤسائى على المعلومات التى أرسلها لهم عن هذا المصدر أن رائحتها عفنة !! » ٠

ولكن هيئات المخابرات لا يمكن أن تقصر عملها وأن تحدده منتظرة توافر مشاعر عدم الرضى لتتخير مصادرها للمعلومات ٠

على أنه من المرغوب فيهلو أمكن ـ بل وأحيانا قد يكون هذا ضروريا ـ أن لا يعرف المصدر الاجنبى حقيقة ما يقوم به ولا لحساب من يعمل هو ٠

وأحسن تصوير لهذا فى طابع مثالى حققه ريتشارد سورج (٨) العميل السوفييتى الالمانى الجنسية الذى كان يعمل فى طوكيو أثناء الحرب العالمية الثانية والذى استطاع أن يصل لان يكون ملحقا صحفيا فى السفارة الالمانية بطوكيو ، فلقد كان رجال السفارة عندما يتحدثون اليه يحسون بأنهم يتحدثون الى زميل مواطن نازى، وكان أغلب مصادر سورج من اليابانيين ـ لانهم ـ يعتقدون بأنهم يعملون فى خدمة حليف ألمانى ٠

---

(٨) راجع (الرجل ذو الوجوه الثلاثة) اصدار الهيئة ٠

على أنه قد يتوافر موقف مختلف عندما يعرف أنه يقدم معلومات أثناء عمله في خدمة هيئة لا يعرف في الحقيقة من هم الذين ينتفعون من جهودها ، ولنأخذ مثلا على سبيل الافتراض قضية موظف عراقى يشعر بالاضطراب لما يلحظه من غزل بين الديكتاتور اللواء عبد الكريم قاسم والحزب الشيوعى العراقى ، فهو قد يحس بالقلق من سيطرة السوفييت على العراق ومن فقد المناطق الكردية فى الشمال نتيجة لهذا ، وفى نفس الوقت فان حكومة اسرائيل لمصلحتها بل ولبقائها يجب أن تتوافر لها كل ما يمكن من المعلومات عن جاراتها من الدول العربية ، والموظف العراقى كمواطن وكعربى صالح لا يمكن أن يفكر ولا لحظة واحدة في معاونة اسرائيل ، ولكنه لا يجد أى غضاضة فى أن يعمل مع الامريكان الذين يبدون له ـ فى رأيه ـ كالثقل الموازن للنفوذ السوفييتى فى العراق ، والحل البسيط للمشكل هو أن العميل الاسرائيلى يزعم لهذا الموظف أنه مواطن أمريكى ...

ومن المؤسف حقا أن نذكر بأننا نحن الامريكان بديل مقبول لمثل هذا المشكلات على الاقل طوال الحقبة السادسة من القرن العشرين ، صحيح أن لنا أخطاءنا ولكن لسنا فى الواقع أصحاب كل ما ينسب الينا من أخطاء .

* * *

والموقف المختلف الذى يحدث كثيرا هو الموقف الذى يعرف فيه المصدر لمن يعمل ... ولكنه يقلل عن قصد حتى لا يعرف الغرض الحقيقى وراء العملية كلها .

فبعد الحرب العالمية الثانية بقليل قامت المخابرات الامريكية بعقد اتصالات ـ كانت مثمرة لبعض الوقت ـ مع جماعة ملكية فى دولة من دول شرق أوروبا ، وكان هؤلاء الناس يعتقدون ان هذا كان تدبير تعاونى يقوم فيه الامريكان بتعضيد هدفهم السياسى لاستعادة الملكية الشىء الذى لم يكن اطلاقا من سياسة الولايات المتحدة ، وكان التعضيد الامريكى يشمل جهاز اذاعة سرية تبعث رسائل سياسية للاهلين ، **وكانت عمليات الجماعة فى داخلية البلاد تجىء بمعلومات كثيرة قيمة وكان الافراد يحملونها مسرورين للامريكان وهم يعتبرون هذا اسهاما منهم فى التعاون السياسى ، وكانت المعلومات هى فى الواقع كل ما يهم الامريكان من الامر كله ، ولهذا** فما من

حاجة للاشارة الى درجة الشعور بالمرارة والى الاتهـامات والسباب التى وجهت الى أمريكا عندما أوقف هذا التعضيد وان كان هذا التوقف قـد جاء على أسـاس منطقى وهو القول صراحـة بأنه لا أمل على الاطلاق من العملية (ومع أن هذه القصة يكمن أن تروى عن أى هيئة مخابرات أخرى لأى دولة من الدول العظمى الا أن هنا مسألة هامة يجب أن نضعها دائما نصب التقـدير ، وهى أن مـا يكون فى الاغراض من اخـلاص ، وما فى الدافع من نبل لا يمنع أولئك الذين ينغمرون فى الحياة السرية من التعرض لقواعد ومغامرات هذه الحياة) ٠

على أنه قد تنشأ عن الحاجة الى تموية واخفاء الدافع والغرض واحدة من أهم المظاهر البارزة فى عمليات المخابرات السرية ، ظاهرة وجود عنصر الكذب الذى يبدو مصحوبا بالنفاق والخداع والرياء المخاتلة والغش الصور التى تسيطر على العلاقة الاساسية بين « ضابط الحالة » وبين « العميل » ٠

وعلى نقيض الاعتقاد العام فان الصعوبة الرئيسية فى عمليات الحصول على المعلومات السرية ليست فى وضع اليد على « الغنيمة » ، ففى الغالبية أن لحظة الحصول على معلومات سواء أكانت شفوية أم كتابية هى مجرد جزء آلى من العملية أو هى مسألة فراهة وصبر ، وهى كحديث عام مرحلة هدوء نسبى **تقع بين الصعوبتين الاساسيتين اللتين تحـدقان (تحيطان) بعملية جمع المعـلومات السرية** ، والمعلومات فى عمـلية مدروسة جيـدا ومنفذة بمهارة يجب أن تجىء فى الغالبية آليا كنتيجة لحل سـابق ناجح لهاتين **المشكلتين الرئيسيتين** ٠

ولكن ماذا هما هاتين الصعوبتين ؟ ٠

والواقع أن أصعب هاتين الصعوبتين هى التى تجىء سابقة للاخرى من ناحية الترتيب الزمنى ، وهى صعوبة وضع العميل فى الموقف وبازاء الواجب الذى يمكن بهما أن تصله المعلومات بأقل مغامرة وكحصيلة طبيعية للوضع الذى هو فيه ، وهذا هو العمـل الرئيسى للغطاء السـاتر وهنـا كالعادة يستهدف الفرد المسـتوى الكامل ولكنـه من النادر أن يحققه ، ونجد مثالا جيدا فى عملية « شيشيرو » (٩) الخادم الخاص للسفير البريطانى فى الاستانة أثناء الحرب العالمية الثانية والذى كان عميلا المانيا ، فهو كان

---

(٩) راجع كتاب « مأساة المخابرات الالمانية » اصدار الهيئة ٠

بحكم عمله قادرا على أن ينقل ما يشاء من الوثائق الموضوعة فى الخزانة السرية أثناء نوم السفير ، انها ولا شك كانت عملية ناجحة ، ولكن كيف كان الامر مختلفا وافضل نتيجة عندما ننظر اليه بالنسبة للعميل انسوفييتى سورج وهو يستطيع فى سهولة ويسر النفوذ الى مصادر المعلومات الالمانية واليابانية تبعا لعمله كموظف ألمانى ثم ـ لما هو أهم من هذا ـ لصلته مع زوجة السفير الالمانى !! (١٠) ٠

وهنا فى هذه المناورة لوضع العميل فى المكان الذى يستطيع أن يعمل معه يجب الانتفاع الى مستوى عال جدا من المهارة ودقة الحكم والاصالة والتفهم التام للجانب الآخر المضاد ، والطريقة المثلى لهذا هى الاختراق فى صورته المثالية أى وضع العميل داخل (البناء) المراد الحصول على المعلومات منه ، والبناء هنا لا تعنى (المبنى) فى الطابع الحرفى ٠٠ بل نعنى التشكيل المنشأة ٠٠ الادارة ٠٠ الهيئة ٠٠ أى المقصد والمحج الذى يمكن منه الحصول على المعلومات ، ومن الواضح أن هذا السيل ممن ينقلبون على النظم التى يعيشون فى ضوئها والذين يتنقلون جيئة وذهابا بين الشرق والغرب عبر الحدود المشتركة فى عمليات الحرب السرية يقدم العديد من الفرص لهذا الاختراق المباشر ، ولما كان هذا فى الواقع ظاهرا واضحا بدرجة كبيرة فانه يعتبر مغامرة وفى الغالبية لا يكون منتجا ، وفى ضوء الظروف الغير العادية التى تكون فى مطلع حرب أو التى تلى مباشرة حربا كانت قائمة فان تكتيكات الاختراق المباشر تحتاج بعامة للوقت ، كما تحتاج وقتا أطول لتحقق نجاحا ، ومن الواضح أنك اذا أردت أن تضع عميلا لك فى اللجنة المركزية فى الحزب الشيوعى فيجب أن تنتظرها وقتا طويلا يكون هو فيه يكافح ليتسلق سلم الحزب الشيوعى ، (وتوجد قصة متواترة لا تتوافر لى الوسيلة للتثبت لستالين قبل الحرب العالمية الثانية)، أن يحققوا هذا فى المكتب السياسى لستالين قبل الحرب العالمية الثانية) ، وبالاضافة الى هذا فانك فى الوقت الذى تنتظر طوانه كفاح عميلك وجهاده ليصل الى المركز المطلوب يجب أن لا تستخدمه بحال ما والا عرضت نجاحه للخطر ٠

---

(١٠) يتلاحظ انه على تعدد المصادر التى ترجمنا عنها قصة سورج وجاءت فى أكثر من كتاب مما صدر عن هذه الهيئة من كتب فان هذه أول اشارة الى انه كانت هناك علاقة ما بين سورج وبين زوجة السفير الالمانى (المترجم)٠

وقد أدى هذا الى وضع اصطلاح « العميل النائم » « الهاجع » Sleeper Agent الذى يتحدد واجبه مقدما للتمشى مع وضع محدد وحال ثابتة تنشأ بعد وقت بغض النظر عن الفترة الزمنية التى تمر دون استخدامه ٠

وأحسن الامثلة على هذا ، عامل الفندق الذى وضعه الالمان فى قاعدة « سكابافلو » البحرية البريطانية بعد الحرب العالمية الاولى بوقت غير كبير ، وقد بقى العميل هاجعا طوال السنين حتى بدأت الحرب العالمية الثانية فبعث بمعلومات مكنت غواصة المانية من أن تتسرب لداخل « سكابافلو » فى فجر الحرب ثم تقذف البارجة آرك رويال بطوربيد يغرقها ثم تفر دون أن يشعر بها فرد × ٠

على أنه فى ضوء تدابير الامن الحالية فان الاختراق أو النفوذ والتسرب المباشر يعتبر من الصعوبة بمكان ، ولهذا يتخذ أسلوب موائم ــ يمكن أن تقول عنه أنه أسلوب معروف يستخدم بكثرة وابعد ما يكون عن أن يعتبر أسلوبا جديدا ــ ذلك هو : « التخريب والتقويض » وفائدة هذا أنه يمكن من تجنب تعقيدات اختيار العميل والتحضيرات والتعطيل الذى هو جزء من التسرب أو النفوذ المباشر تبعا لان الاستخدام هنا يكون استخداما لشخص هو فعلا فى المركز الذى يمكنه من الحصول على المعلومات المطلوبة، والمشكلة فى عملية التخريب والتقويض ليست هى « تفصيل » العميل على « قياس » الواجب المطلوب منه ، وانما هى « تفصيل » وسيلة التجنيد على أساس طبيعة خلق وميل أو مشرب ودوافع العميل المختار للقيام بالعمل ، والجهود السوفييتية المستمرة لاجتذاب موظفى الحكومة الامريكية لخدمتهم (عن طريق الارغام بتهديدهم باثارة الفضائح من حولهم والتشهير بهم) لهى واحدة من وسائل التجنيد هذه ، وتوجد طريقة اكثر استحداثا استخدمت لاجتذاب دبلوماسى بريطانى أثناء فترة اعتقاله فى كوريا الشمالية أثناء الحرب الكورية ، وقد خرج الرجل من الاعتقال مقتنعا بأن النظام السوفييتى يستحق النصر ومن ثم عمل على نصرته ما استطاع الى هذا سبيلا وكان هذا عن طريق (غسل المخ) ٠

ووسيلة تبادلية أخرى للتسرب المباشر هى أن يكون لك شخص ما فى موضع أكثر نفعا يقوم لك بالعمل ، ومعنى هذا فى العمليات السرية

× الصحيح أنه صاحب حانوت لتصليح الساعات وبيع التحف وكان أصلا ضابط فى البحرية الالمانية راجع *Spy Omnibus* وستصدره الهيئة قريبا ان شاء الله (المترجم) ٠

للحصول على معلومات هى « قيـام علاقات عمل بين هيئـات المخـابرات المختلفة » ، ومخابرات عدد كبير جدا من الامم الصغيرة لا تواجه ـ بسبب عدم بروزها الى الصـفوف الاولى الاماميـة للعمليـات السرية ـ العوامل المعطلة التى تواجهها الدول الكبيرة التى تكون تصرفاتها وتصرفات رجالها موضع الشك دائما ، هذا فضلا عن أنه تتوافر للدول الصغيرة وسـيلة معاونة لها قيمتها ، وهى كثرة عدد رعاياها على مثال كثرة عدد البولنديين فى فرنسا ، وكثرة عدد اليونانيين فى بلغاريا ورومانيا والاتحاد السوفييتى ولهذا تسارع مخابرات الدول الكبيرة لعقد (صفقات) علاقات عمـل مع مخابرات الدول الصغرى ، وهكذا شهدت الفترة التى تلت الحرب العالمية الثانية مباشرة زحف من جانب الدول الـكبرى للسيطرة على مخـابرات الدول الصغرى ، وبالطبع فان مخـابرات دول شرق اوروبا فيمـا عـدا يوجوسلافيا ـ لا يسـيطر عليهـا السوفييت فحسب بل انهـا تعتبر من الناحية العملية اجزاء مكملة للمخابرات السوفييتية ٠

على أن المشكلة الرئيسية فى عمليات المخابرات السرية تجىء الثانية فى التدريب ولكنها أعظم خطرا من المشكلة الاولى تلك هى : كيف يمكن ارسال المعلومات ـ فور الحصول عليها ـ الى مركز الرياسة ، وأعظم المعلومات السرية أهمية تكون بلا شك معدومة القيمة عندما تكون بين يدى عميـل لا يستطيع نقلها الى المكان الوحيد الذى يمكن أن ينتفع بها ، وهذه عادة ليست بالمسألة السهلة الهينة ، والمقارنة التى قدمناها قبل صفحات عن قضية شيشيرو العميل الالمانى الذى كان يعمل خادما للسفير البريطانى ، وبين سورج العميل السوفييتى فى السفارة الالمانية بطوكيو ، ان هـذه المقارنة توضح لنا أن سورج كان فى موقف أفضل من موقف شيشيرو ، ولكن شيشيرو لم يعتقل قط على حين أن سورج قد قبض عليه اليابانيون وأعدموه (؟) ، والخلاف بينهما كان فى الوسـيلة المسـتخدمة فى نقل المعلومات للالمان فى سلسلة من الاجتماعات السرية فى اسطنبول وأنقرة وبوسائل اسقاط الرسائل أو بمعنى أدق بوساطة ترك الرسائل فى أمكنة آمنة متفق عليها ، ولكن سورج كان يعتمد على استخدام الراديو السرى للاتصال ٠

وهنا مصدر خاصية بارزة لعمليات المخـابرات السرية ، فمهمـا كان مدى التكتم فى العملية ، ومهما كانت درجة العناية والمهارة بالتخطيط لها ومهما كانت درجة الدقة فى اعداد الغطاء الساتر فان مرحلة نقل المعلومات فى كل الاحوال عملية خفية ثم هى أخطر لحظات العملية كلهـا ، فأغلب

العملاء السريين الذين قبض عليهم •• تم هذا في لحظات تمرير المعلومات من المصدر الى العميل ، وفى قضية قاعدة الاسطول فى بورتلاند اعتقل بعض أفراد الشبكة أثناء تسليم بعض الوثائق ، وتم اعتقال باقى الاعضاء نتيجة الرقابة والتحقيق وتتبع مصدر الارسال اللاسلكى الى موسكو •

وليس السبب فى هذا ـ أى ليس السبب فى أن القبض لا يتم الا فى هذه اللحظة عند تبادل المعلومات أو تسلم الوثائق ـ هو رغبة سلطات الامن فى دعم الحجة واقامة البينة بدليل قوى لا سبيل الى نقضه باعتبار أن الاعتقال يحدث أثناء التلبس مع وجود جسم الجريمة ، فالوضع هنا وضع دقيق حرج flagrante delicto **، ليس هذا هو السبب فحسب •• بل ان السبب الرئيسى فى الواقع هو أن لا يوجد أى عمل ساتر يمكن أن يفسر تسليم وثائق أو معلومات لاشخاص لا صفة لهم سواء أتم هذا أو عن طريق ارسال خطاب أو بالارسال باللاسلكى ، وهذه العملية هى أكثر العمليات تعرضا كما قلت وهى عادة تشكل اللحظة التى يتم فيها اعتقال العملاء •**

ويعتبر الحبر السرى ، وأماكن ترك الرسائل والمعلومات ، وأجهزة الارسال المخفية •• تعتبر هذه وعشرات غيرها من الوسائل ، محاولات من جهد مستمر بقصد تقليل المغامرة فى هذه اللحظة الحرجة من العملية السرية •

ومع هذا فان وسائل الدفاع المضاد تلقى هى بدورها تطورا مستمرا ومن ثم تظل المشكلة مشكلة رئيسية ، ولهذا السبب (ولما قلته من قبل فان أى عمل سرى يدور خفية يعتبر من الناحية الدولية عملا عدائيا) ـ فان مثل هذه الاعمال يجب أن تكون لاقل ما يمكن فى وقت السلم •

على أن الحل الموائم لهذه المشكلة فى وقت السلم هو اعداد عدد من الوسطاء وأماكن « ترك الرسائل » ومن ثم تصل المعلومات الى أيدى عملاء تتوافر لهم حصانة دبلوماسية وتنتقل منهم عن طريق البريد الدبلوماسى للسفارة (الحقيبة الدبلوماسية) أو عن طريق البرق •

على أنه من وجهة النظر الخاصة بالمصلحة القومية توجد خاصية أخرى لعمليات المخابرات السرية لها ثقلها فى موازنة النتائج فى الحرب السرية بين الشرق والغرب ، تلك هى الحاجة الى أن تقطع المخابرات عبر كل الخطوط السياسية فلا تقف عند حد عقيدة سياسية واحدة تعمل لها

وبوساطتها ، فقد لاحظنا تعدد المطالب اللازمة لعملية المخابرات السريه وهذه لا يمكن أن تقصر على مصادر تختار لمجرد ايديولوجيتها السياسية أو تبعا للاهداف السياسية الخاصة بمن يتولى العملية •

ونجد النموذج الجيد لهذا فى قصة منظمة الجنرال جهلين فى ألمانيا الغربية ••

كان الجنرال جهلين يتولى مسئوليات جسام فى المخابرات الالمانية على الجبهة الشرقية أثناء الحرب العالمية الثانية ، ومع انهيار ألمانيا سنة ١٩٤٥ نقل جهلين كل سجلات شبكاته التى كانت تعمل فى شرق أوروبا ومجهود سنوات فى أعمال المخابرات عن الجيش الاحمر وقيادته ، نقل هذا كله وأخفاه فى عدة أماكن من ألمانيا الغربية ، وجمع كذلك عددا من أفضل مرؤوسيه وأمرهم بلاختفاء من الحياة العامة وبعث بهم الى أماكن آمنة ، وبعد ذلك فعل هو بدوره ما أمر به مرؤوسيه واختفى فى ملجأ آمن لا يعرفه فيه أحد ، وبقى الرجل مختفيا حتى وضح لسلطات الجيش الامريكى أنها تفتقر أكثر ما تفتقر الى معرفة كاملة عن الجيش الاحمر الذى تواجهه عبر خطوط طويلة وتضطر لان تفاوض رجاله ورياساته فى عدد كبير من المشكلات تختلف وتتباين من تنظيم مواصلات الحلفاء فى داخل برلين الى كبح جماح « زعماء حزب الفلاحين » فى بلغاريا •

وعندما خرج جهلين الى النور وتقدم للامريكان لمعاونتهم أمكن الوصول الى اتفاق سمح به لمنظمة جهلين أن تعاود العمل كوحدة واحدة متماسكة وتحت زعامة وقيادة جهلين نفسه وأن تعمل لصالح الجيش الامريكى ، ومثل هذا الاتفاق فى ضوء أهداف الحلفاء السياسية•• وفى ضوء جو أوروبا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية كان غير ذى مناعة Indefensible

ولكن جهلين قد نجح فيما فشل فيه كل الالمان السياسيين والعسكريين فى حث الحلفاء ـ أو على الاقل حث جزء منهم ـ للقيام بعمل تعاونى ضد السوفييت ، على أنه بالنسبة للامن القومى للولايات المتحدة ولامن جيوش الولايات المتحدة فى أوروبا ، ثم لامن غرب أوروبا لم يكن الاتفاق عادلا وصحيحا فحسب بل كان ضروريا لازما لاغنى عنه (على أن هذا الاتفاق فى الواقع « وجبة » ضعيفة لو قورنت « بالوجبات » الدسمة للتعاون الالمانى الروسى فى وقت الحرب لاعدام وتصفية افراد المقاومة البولنديين التابعين لحكومة بولندة فى المنفى) •

وهنا يبرز طابع النزاع الحاد بين احتياجات عمليات المخابرات السرية وبين أهداف ووسائل الحرب السياسية ، هذا النزاع الذى لا يتوقف قط

انه يسير الى ما وراء المسألة التى عرضنا بها فى فصل سابق عندما تحدثنا عن كيف يمكن مثلا نوفق بين الحاجة الى معلومات موثوق بها عن « كوبا » مع هدف سياسى بمعاونة الكوبيين خصوم كاسترو بل وكذلك خصوم باتيستا لتحرير كوبا من النفوذ السوفييتى ، ذلك لان معقبات هذا النزاع تظل قائمة مستمرة حتى بعد الوصول الى قرار سياسى فى أعلى المستويات بقصد تنظيم المصالح المتضاربة المتنازعة .

وعلى سبيل المثال فانه فى وقت ما فيما بعد الحرب العالمية الثانية قامت محاولة لعملية سياسية فى الغرب كان أحد أغراضها ايجاد وحده سياسية بين الالبانيين فى الدول الغربية (وهم عدد كبير نسبيا بالنسبة للمليون ونصف المليون البانى الذين يقيمون فى البانيا) مع استثناء الالبانيين الشيوعيين وباستثناء أولئك الذين عرف عنهم التعاون مع الايطاليين أو الالمان أثناء احتلالهم لالبانيا ، والى هنا كانت الفكرة عملية وكان التفكير فيمن يشملهم الاتحاد ومن يستبعدون منه كذلك جميلا ولكن لما كان عدد كبير جدا من الالبان وبخاصة من الافراد البارزين الذين يصلحون للزعامة يقيمون فى ايطاليا كان من الواضح أن الايطاليين سيقفون بقوة الى جانب ضم وعدم استبعاد الالبانيين الذين خدموا فى الماضى مصالح ايطاليا وكان من الواضح بنفس القدر أن سلوك هذا السبيل سيوجد نوعا من التحامل ضد قيام اتحاد مماثل داخل البانيا نفسها .

وكانت العملية معقدة ، وهنا وقفت المخابرات الامريكية ـ وهى بعيدة البعد كله عن الوكالة السياسية الامريكية ـ الى جانب الايطاليين مقدرة أن عقد صلات قوية بينها وبين المخابرات الايطالية هو افيد فى جملته من العملية السياسية المزمع القيام بها ، وقد لا تكون من حاجة لان نقول أنه كانت لليونانيين أغراض مماثلة وأنهم كانوا يدفعون بمطالبهم دفعا عن طريق الانجليز ، كما كانت لهم مطالب أخرى تتنافر مع وجهات نظر البانيين البانيا فاليونانيون يعتبر أغلب أراضى ألبانيا بمثابة الولاية الشمالية لليونان ويطلقون عليها اسم « ابيروس » الشمالية ، ثم بلغ الامر ذروته عندما أراد الماريشال تيتو أن يثأر لنفسه فأعلن انشاء اللجنة الالبانية فى اقليم « كوسوفو » من يوجوسلافيا حيث يعيش خمسماية ألف ألبانى .

وبالطبع كان من الممكن كبح جماح مثل هذا النوع من التنازع بسرعة وبقوة بعمل نشط من جانب الحلفاء ، وكان من الممكن ضمان عدم تضارب أكثر من هيئة فى حكومة واحدة عن طريق تركيز اقرار الموضوعات السياسية ، وقد يكون لهذه المناقشة نصيبها من الحقيقة ، ولكن مع هذا فلا سبيل للفكاك من مثل هذا النزاع والخلاف بسبب واحد هو أن العالم الغربى منظم كحلف لا كمجموعة من دول خاضعة تابعة ، ومع هذا فان السوفييت بالرغم من أن لهم الكلمة فى امبراطوريتهم ، فانهم يواجهون نفس المتاعب ، واحدى الصور التى تماثل « السير على الحبل » كان واضحا عندما وقف موظف روسى كبير يواجه طلبين متضادين من ألمانيا الشرقية ومن بولندة ... وكل من الدولتين تطلب ضمانا روسيا للحدود المشتركة بين بولندة والمانيا الشرقية فى الطابع الذى تراه هى .

على أن السوفييت أنفسهم يدركون النزاع الدائم بين مطالب المخابرات وبين العمل السياسى ومن ثم يفصلون بين الاثنين الى نهاية ما يمكن اداء هذا الفصل (قد تكون الاحزاب الشيوعية المحلية قاعدة التجنيد للمخابرات السوفييتية ، ولكن فى الاحوال النادرة جدا أن نجد الاعضاء العاملين فى الحزب الشيوعى بين من يقومون بدور فى شبكات الجاسوسية) .

وهذا الفصل فى الواقع بدافع الامن ، ولكن فى المستويات السوفييتية العليا فانه من الضرورى اصدار قرار الى جانب الغرض السياسى أو الى جانب مصلحة المخابرات عندما يحدث بين السياسة والمخابرات هذا التنازع الذى لا معدى عنه .

ولقد تأرجحت الحكومة الامريكية جيئة وذهابا فى الفصل بين هذين الفرعين الاساسيين للعمليات السرية . هذا التأرجح الذى يسبب مضيعة للوقت والمال فضلا عن التكاليف الكثيرة التى يجب القيام بها كما أنه يثير اصطدامات وتضارب للمصالح فى ميدان العمل لا فى مركز الرياسة التى تفشل فى حد ذاتها فى حماية المصالح الشرعية لكلا الجانبين .

وكذلك تتأرجح فى تكامل الفرعين وايجاد سلسلة من الوسائل التى تضمن التفاهم بينهما .

وهنا ـ ثانية ـ نجد أن الحل الافضل انما يكمن فى اعطاف سعة وجهة النظر وتوافر الاصالة للناس الذين يتولون العمل هنا وهناك .

٨

الجاسوسية المضادة والأمن

الجاسوسية المضادة Counter Espionage ويشار اليها باستمرار بالحربين C. E (ج٠م) هي فرع العمليات السرية للذى يساء فهمه الى مدى بعيد ، **وغرض الجاسوسية المضادة ليس اعتقال عملاء العدو فهذا هو واجب قوات الامن** ، على أن كلمة « **المضادة** » Counter هى التى تسبب المتاعب بسبب أنها تفسر دائما على أنها تعنى « **ضد** » Against أى أنها عمليات دفاعية ضد عمليات مخابرات العدو ، فى الوقت الذى هى فيه فى الواقع على نقيض هذا مباشرة أى أنها « **عمليات هجومية** » ، فهى وسيلة **للحصول على معلومات عن العدو باستخدام أو بمحاولة استخدام عمليات العدو نفسه** ٠

فالجاسوسية المضادة اذن هى صورة من العمليات السرية للحصول على معلومات ولكنها فى طابع سرى خفى ، ومعقد وهام ، بالقدر الذى يجعلها (تقف وحدها) وتدرس وحدها ٠

ولقد ابرز بيتر أوستينوف Peter Ustinov فى مسرحية « رومانوف وجولييت » Romanoff and Juliel مذاق وطعم عمليات الجاسوسية المضادة فى طابع مكتمل المرح ، ففى المسرحية نجد أوستينوف وهو رئيس وزراء دولة صغيرة تقف على الحياد بين عملاقى الشرق والغرب ويزور رئيس الوزراء السفير الامريكى فيعرف منه أن الامريكان يعرفون بمناورة سرية للروس يقصدون بها السيطرة على بلاده ، ويفكر رئيس الوزراء قليلا ثم يتجه الى الجانب الآخر من المسرح لزيارة السفير السوفييتى وبعد بعض العبارات الاولية يقول رئيس الوزراء للسفير السوفييتى : «**انهم يعرفون**» فيجيبه السفير السوفييتى فى هدوء «**نعرف أنهم يعرفون**» ٠

ويعود رئيس الوزراء للسفير الامريكى ويقول له : « **يعرفون أنكم تعرفون** » ويبتسم السفير الامريكى ابتسامة الثقة ويقول : « نعرف أنهم يعرفون أننا نعرف » ٠

ويعـود أوسـتينوف للسفير السوفييتي ويقـول له : « **يعرفون أنكم تعرفون أنهم يعرفون** » ·

وهنا يجيب السفير السوفييتي في زهو الانتصار قائلا « **نعرف أنهـم يعرفون بأننا نعرف أنهم يعرفون** » ·

ومرة أخرى يذهب رئيس الوزراء الى السفير الامريكى ويقول لـه : « **يعـرفون أنكم تعرفون بأنهـم يعرفون أنكم تعـرفون** » ، ويقول رئيس الوزراء هذه الكلمات فى اجهاد وهو يحس بالاعياء والاجهاد لطول تنقله بين الرجلين ·

ويكرر السفير الامريكى الكلمات وراء رئيس الوزراء الذى يعد الكلمات على أصابع يده ··· ويفتح السفير الامريكى فمـه لينطق بالاجابة ولـكن رئيس الوزراء يشير له بيده ليمنعه من الكلام وهو يصيح من الذعر ·

* * *

والهدف النهائى لعمليات الجاسوسيـة المضـادة هو اختراق جهـاز العمليات السرية للعدو ، ومن ثم تكون نتيجـة هـذا الاختراق ـ دون أن يعرف العدو ـ جزءا متكاملا له وظيفة داخل جهاز عمليات الخصم ، وهكذا يبدو كيف تختلف الجاسوسية المضادة عن المخابرات السرية العامة فى أن لها هدفا خاصا واحدا تعمل من أجله ·

والافضلية الكبرى التى لهذا الهدف ـ جهاز العمليات السرية للعدو ـ واضحة ملموسة ، فان اختراق منظمة عمليات العدو السرية ليجعـلك فى قلب أعمال العدو ونواياه تجاهك ، وانت تشاركه عقله وتفكيره بدرجـة كبيرة من المستحيل الوصول اليها فى أى عملية سرية أخرى ·

ومعنى هذا أنه الى غاية ما يعنى الامر من ناحية المعلومات ، « فانت تعرف ما يعرفه هو » وبذلك لا تكون من قيمة لاى معلومات يعرفها عنـك ويظن هو أنها معلومات سرية ، بل فانك عن طريق هذا ـ تستطيع معرفة ماذا يهتم به هو وتتوافر لك كل الادلة التى تشير الى نواياه مستقبلا نتيجة لما يعنى ببحثه وما بعده من تخطيط ، والاهم من هذا أنك ـ نتيجة لهـذا التسرب ـ تستطيع أن تؤثر فى تقدير لقيم المعلومات وتستطيع أن توجه تقديرات وجهة خاطئة وأن تضلله فى عملياته التالية ·

على أن ما سبق ذكره هو فى الواقع يعتبر اجراء مثالى ، وان كان الاجراء الذى يحدث فعلا فى الغالبية دون هذا المستوى الذى يحقق نجاحا شاملا ، ونتحقق فى هذا النوع من النجاح الشامل حقائق النزاع البشرى ـ وحقائق ما يتوافر للتنظيم فى حد ذاته من صلاحية ، واذا ما كان صحيحا ما يزعمونه من أن الامبرال كناريس مدير المخابرات الالمانية فى الحرب العالمية الثانية كان عميلا انجليزيا فان هذا لم يكن عائقا حال دون أن يحقق بعض رجال المخابرات الالمانية نجاحا اخاذا فى عملياتهم ضد الحلفاء ، وحتى بين مخابرات ومنظمات الدول الصديقة والدول المتحالفة توجد حدود معينة للتعاون ، أو بمعنى آخر أنها فى الكثير من الاحوال تقوم بالتسرب الى داخل منظمات بعضها البعض لمحاولة السيطرة على بعضها بعضا .

و « التسرب للداخل » هو الاسلوب المفضل لعمليات الجاسوسية المضادة ، ولكن المسألة ليست قاصرة على مسألة بحث امكانية ادخال عميل الى شبكة عمليات العدو فالمسألة هى الصعوبات التى يجب تذليلها ليمكن تحقيق هذا ثم الوقت الطويل الذى يجب أن يمر حتى يمكن وضع عميل فى خدمة سرية لدول أخرى .

ومن هنا كانت الوسيلة التبادلية العادية هى « تحويل » عميل من عملاء العدو وجعله يقتنع بأن يحول اتجاه خدمته مع استمراره فى العمل محتملا جهدا سيكلوجيا عنيفا ، **ونقطة الضعف فى هذه العملية هو أن ما يمكن أن يحدث مرة يمكن أن يحدث لمرتين** ، ويمكن أن نوضح هذه الكلمات بالقصة التالية .

كان فى ألمانيا عميل انجليزى يعمل هناك فى خدمة بريطانيا ضد السوفييت ، وفكر السوفييت فى تحويله نحوهم واتصلوا به ووافق الرجل على أن يخدم السوفييت وفى هذه الحال صار الرجل عميلا مزدوجا أى عميل ذى وجهين Double Agent ويجب أن نلاحظ هنا بأن الرجل وان كان يعمل لجانبين متضادين الا أن هذا كان معروفا لجانب واحد هو الجانب السوفييتى ، وكان كل من الجانبين يعتقد أنه يعمل مخلصا من أجله ، ومع هذا فان الرجل فى احدى عملياته فى خدمة السوفييت أخبر الانجليز باتصال السوفييت به ووافق أن يعمل عميلا مزدوجا بالنسبة للانجليز ، وهكذا وجه الرجل الانجليز للاعتقاد بأنه يعمل عميلا للسوفييت ولكنه فى الواقع يخدمهم هم ، ومع هذا فان الرجل يعتبر عميلا « ثلاثى الاتجاه » (له ثلاثة وجوه) Triple Agent فهو من وجهة نظر الانجليز عميل انجليزى وافق للخداع أن يخدم السوفييت فهو اذن عميل مزدوج

ولكنه من وجهة نظر السوفييت يعتبر عميلا انجليزيا وافق أن يقوم بعمل حقيقى فى خدمة السوفييت ثم قام بتحويل كاذب مخادع ليغطى تحوله الاول الى جانب السوفييت ، وكان هذا التقدير من جانب السوفييت هو التقدير الاصوب على ما اكتشف الانجليز فيما بعد ، وطوال قيام الرجل بدور مزدوج تحول مرة تحولا كاذبا على ما يظن الانجليز فانه كان ذا قيمة ونفع للانجليز ، ولكن قيمته بالنسبة للسوفييت كانت فى حقيقته أنه عميل ثلاثى الاتجاه تحول مرتين أحدهما تحولا اصيلا اساسيا أما التحول الثانى فهو تحول مخادع كاذب ٠

ولكن السؤال الحاسم هنا هو ٠٠٠ أى التحولين هو التحول الاصيل وأيهما التحول الزائف الكاذب ؟

ان هذا السؤل هو واحد من المشكلات التى تجعل الجاسوسية المضادة عملية من أعقد العمليات ، وتقرير أى التحولين هو الصحيح وأيهما الكاذب الزائف عملية تحتاج السيطرة على المعلومات كما تتطلب اليقظة المستمرة مع القدرة فى نفس الوقت على التعمق فى النظر وفى التفاصيل ، ومن الواضح أنها بهذه الصورة أشبه بمسألة ثقافية فيها تعقد العمليات والاحاجى فى علوم الرياضيات ٠

وتتعقد المشكلة أكثر بوجود نوع آخر من العميل الثلاثى بل وربما رباعى الاتجاه ، العميل الذى يعمل من أجل ثلاث أو أربع هيئات للخدمة السرية فى وقت واحد ، وهذا النوع من العميل المتعدد الاتجاهات يكون فى العادة عميلا يعمل وحده لمنفعته الخاصة وتكون مسألة التحول من اتجاه الى آخر مسألة لا تعنه كثيرا ، ولقد رأيت فى أحد فنادق فيينا حامل حقائب يعمل فى نفس الوقت لحساب الخدمات السرية الامريكية والانجليزية والسوفييتية والفرنسية وينقد منها كلها ، ومع هذا فبدون أى أجر كان يخدم بلاده كمواطن نمسوى ، وفى الغالبية يمكن مثل هذا العميل نوعا من الوسواس والوهم أو التخيل برغم ما يكون له من كيان وهو لا يتواجد فعلا الا فى ظروف خاصة جدا مثل تلك التى كانت فى فيينا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية مع وجود أربع دول مختلفة تحتل المدنية ٠

وليس من غير الطبيعى أن يعتبر الرجال الاخصائيون فى مثل هذه الشئون المعقدة ٠٠، أن يعتبروا ، أنفسهم وكأنهم عباقرة عالم المخابرات ، والواقع أن أولئك الذين يعملون فى « **الجاسوسية المضادة** » يعتبرونها « **ملكة العمليات السرية** » ، وتقوم وجهة النظر هذه على اساس الحقيقة التى

لا تنكر من أن هؤلاء الناس لكى يستطيعون القيام بأعمالهم اليومية يجب أن يعرفوا أكثر مما يعرفه أى فرد آخر ، فهم لا يجب أن يعرفوا عمليات الخدمة السرية للعدو فحسب بل يجب أن يعرفوا أيضـا عمليات الخـدمة السرية الخاصة بهم وهذه المعرفة الواسعة هى التى تؤدى اخصـائى الجاسوسيـة المضادة الى الاعتقاد فى الغالبية ــ وليسهذا الاعتقاد عن خطأ دائما ــ بأنهم يستطيعون ــ وهم فعلا يقومون بــ ــ السيطرة على كل العمليات السرية ، هذه السيطرة التى تقوم ــ كما أوضحنا فى الفصل الثانى ــ على معرفـة من هم الذين يعرفون ؟ والى أى مدى تتوافر لهم هذه المعرفة ؟ وان كانت السيطرة هنا فى الواقع ليست حقيقية الا فى الجزء الذى يقوم على أساس نقص التيقظ من جانب زملائهم ٠٠ حلفائهم ٠٠ أو اعدائهم ٠

ويمتد انتشار المعرفة التى تتوافر لرجالالجاسوسية المضادة الى معرفة العلاقات مع الخدمات السرية الاخرى ، ولا يتولى رجال الجاسوسية المضادة توجيه العلاقات مع الخدمات الاخرى كحديث عام ولكنهم يجب أن يكونوا على معرفة تامة بالمدى الذى لها ، فـاذا كان قـد تقرر على سبيل المثـال استشارة الخدمة السرية الفرنسية والعمل بالتعاون معها فى عمليات خاصة فمن الاهمية بمكان أن يكون رجال الجاسوسية المضادة على دراية بمادية الاتصالات مع الفرنسيين وقد تكون دراية الفرنسيين **بمعلومات ما مسألة لا قيمة** لها من وجهة نظر عميل سياسى يعمل معهم **ولكنها مع هذا بالنسبة** لضابط الجاسوسية المضادة ذات قيمة كبيرة فهذه المعلومات قد تكون دليلا حاسما على أنه قد حدث تسرب لداخل الخدمة الفرنسية أو قد تكشف عن عمليات فرنسية سرية ذات نفع خاص لنا ٠

ومن الممكن أحيانا أن يكون هذا الوجود الجسمانى فى كل مكان (١١) Ubiquity لنشاط واهتمام الجاسوسية المضادة مسألة مرتجلة الى حدما Jolting ، ولقد كنت أتولى فى يوم ما عملية سياسية فى منطقة ما ، وكانت العملية على قدر كبير من السرية وكان قد تقرر لاسباب خاصة أن أبقى خدمة سرية لدولة صديقة على جهل تام بالعملية بكل ما يجرى فيها ، وكانت الخطوة الاولى تتطلب عبور قارب فى ساعات الليل للمياه الاقليمية لهذه الدولة الصديقة وان ينزل القارب فى منطقة العدو المجاورة عددا من العملاء ، وقد أتم عملائى العملية بنجاح وانصرفت أنا فى عملى فى هدوء ، وذات يوم زارنى زميل ممن يعمـلون فى الخـدمة السرية وقرأ على تقريرا

---

(١١) *Ubiquity* تعنى فى الاصل المذهب النصرانى القائل بوجود المسيح متجسدا فى كل مكان (المترجم) ٠

صافيا عن عملية القارب وعن العمـلاء الذين كانوا فيـه وعن وجهتهم وما يحملون معهم من أدوات حتى انتهى فى السطور الاخيرة الى نقد لاذع للعملية كلها ، وكان الحديث جملة وتفصيلا الى غاية ما يمكن من الدقة والذى حدث أنه فى الوقت الذى كان لى عميل بين صفوف الخدمة السرية للدولة الصديقة كان لهم بدورهم عميل بين رجالى ينقل اليهم كل ما أقوم به من أعمال .

ومع هذا فان هذه المعلومات تكون ذات قيمة كبيرة ونافعة جدا ولقد شغلت مرة باجراء محادثات مضنية مع حزب سياسى كان تحت سـيطرة هيئة المخابرات المحلية ، ولعدة أسابيع كنا نجتمع يوميا لنتابع مناقشاتنا وفى المساء كان أعضاء الجماعة الذين كنت أفاوضـهم ينقلون كل ما يدور بينى وبينهم من أحاديث الى هيئة المخابرات المحلية ، وفى أثناء الليل كان عملاؤنا فى الهيئة ـ التى أفلحنـا فى التسرب لداخلهـا ـ ينقلون الى كل تعليقات رجال المخابرات المحلية على هذه المناقشـات ، وهـكذا كنت فى الصباح التالى أبدأ عملى وأنا على دراية تامة دقيقة بموقف أولئـك الذين يجلسون ـ من وراء الستار ـ فى الجانب المقابل من منضدة المناقشات .

وربما يكون من المفهوم أن الطابع المثالى لعمليات الجاسوسية المضادة هو تشكيل عملية التسرب بحيث يمكن ازالة خطر عملاء العدو ، ويتم هذا عندما يقبض على شبكة العدو وحدة واحدة متماسكة ، ويحـدث هـذا فى أحدال نادرة جدا ولا تكون الا نتيجة لظروف محدودة يتوافر فيها الحظ ، ولكن مع هذا فان رجال المكافحة لا يتوقفون عن محاولة تحقيق هذا دائما .

وأبرز الامثلة لهذا فى التاريخ الحديث العملية الالمانية «القطب الشمالى» فى الحرب العالمية الثانيـة ، ففى فجر الحرب اعتقلت المخـابرات الالمانيـة عميلين هولنديين فور وصولهمـا الى الاراضى الهولنـدية ، وكان الالمـان مجدودين ذلك لان هذين العميلين كانا المقدمة لمجموعة من العملاء ومن ثم فانه لم يكن فى هولندة من يمكن أن يخطر الرياسة فى بريطانيا بما حدث .

وسجن العميلان سرا دون أن يذكر عنهما أى شىء حتى ولا فى تقارير الجيش الالمانى ، واستطاع الالمان بما حصلا عليه من معلومات من العميلين ونتيجة الاستنتاج من الاشارات اللاسلكية المرسلة من انجلترا ثم ـ على خلاف العادة ـ نتيجة لتقدير الالمان لما يمكن أن يفكر فيه العدو ، استطاعت المخابرات الالمانية بنجاح أن تقيم اتصالا بالراديو مع رياسة العميلين فى بريطانيا وفعلت المخابرات الالمانية هذا على أنها هى العميلين المعتقلين .

ولسنتين طويلتين بقيت المخابرات الالمانية تنظم الاتصال بين الرياسة في بريطانيا وبين الرياسة المزورة في هولندة واعتقلت كل العملاء الجدد الذين بعثت بهم الرياسة من بريطانيا سواء باسقاطهم بالمظلات أو بانزالهم على السواحل ، وكانت عملية التزوير دقيقة الى حد أنها هربت بعض الاسرى الحلفاء الى اسبانيا بوساطة الطرق والافراد الذين حددتهم لندن ، بل ودمرت المخابرات الالمانية بعض العائمات فى ميناء روتردام برغم احتجاج القائد الالمانى المحلى وكل هذا لخداع الرياسة فى بريطانيا وايهامها بان عملائها فى هولندة جادين فى عملهم » .

وهكذا نستطيع أن نرى بأن عمليات « الجاسوسية المضادة » هى عمليات هجومية تعتمد فى وجودها وفى نجاحها أيضا على الاتصال المستمر بالعدو ، على حين أن « الامن » هو عبارة عن عمليات دفاعية تحاول تدمير عمليات العدو وقطع أى اتصال به لخطورة هذا الاتصال .

وهنا يبرز لون من التضاد والتباين داخل ميدان العمليات السرية ومجالها ، فعند الكشف عن شبكة مضادة ، يتوقف الامن بالقدر الذى يكفى للكشف عن كل اعضاء الشبكة ويدعو اذ ذاك الى طمسها وازالتها من الوجود Oblitcation ، وتصر الجاسوسية المضادة على الكشف عن كل احتمالات اعادة استغلال هذه الشبكة من جديد وذلك عن طريق « اللعب على العدو » أى اعادة الاتصال بالعدو وعن طريقها ، واذكر أننى ناقشت مرة عملية أمريكية قد تسرب الى داخل الهيئة العاملة فيها مندوبون من عدة هيئات أجنبية بما فيها الخدمة السرية السوفييتية ، وقد جرت هذه المناقشة فى البداية مع رجل من رجال الامن ثم مع أحد رجال مكافحة الجاسوسية ، وقد أبدى رجل الامن دهشته من أن العملاء الاجانب كانوا أكثر عددا من الامريكان العاملين فى العملية ، وشبه رجل المكافحة مركز رياسة العملية بقطعة الاسفنج التى يمكن أن تمتص كل ما يقدم لها من سائل وان كان قد أبدى سروره من أنه استطاع أن يمسك بعدة خيوط نافعة عن طريق هذه العملية .

وعلى مثال الخلاف والتباين بين الاغراض السياسية واغراض المخابرات للحصول على معلومات فانه لا يوجد حل يعتبر « سيد الحلول » الحل الاصلح بالنسبة لعمل « الامن » و « مكافحة الجاسوسية » فى هذا الشأن ، بل أن كل حالة يجب أن تعالج تبعا لظروفها ، ولما لم تكن هناك السلطة المنصفة غير المتحيزة Impartial Authority التى يمكن أن تفصل فى الامر عند حدوث خلاف فضلا عن أنه لا يتوافر الوقت لمثل هذه الاجراءات المكتبية

فلقد وجد فى الغالبية أن « الجاسوسية المضادة » و « الامن » انما تعملان بأغراض متقاطعة حتى ولو كانتا تعملان فى نفس الميدان وبنفس المعلومات.

وتستخدم « **المخابرات المضادة** » فى العادة مترادفة Synonym « **للجاسوسية المضادة** » ، وبالرغم من « الاجازة » التى أعطيت لها من (أى برغم موافقة » وحدة المخابرات المضادة فى الجيش الامريكى فان الاصطلاح فى الواقع يعتبر **تسمية خاطئة** ، فالاصطلاح يقدم فى أدق تحديد له نوعا مستحيلا من التراشق بالمقذوفات ، وتكون المعلومات المقدرة القيمة هى الرصاصات التى تصحب هذه المقذوفات ، ومع ذلك فلا توجد « **عملية سرية** » يمكن تصور أنها توصف بأنها عملية « **جاسوسية مضادة** » ، على حين أنها ليست كذلك ، **فالفكرة هنا هى دس معلومات على العدو عن قصد أو القيام بعمل أو سلسلة من الاعمال يمكن أن تخلق تأثيرا مرغوبا بخاصة على العدو .**

وعند ما يكون الغرض من مثل هذه العملية هو اختبار رد فعل العدو بالنسبة لمعلومات معينة سواء أكانت هذه المعلومات **صحيحة أو زائفة ، فان العملية تكون عملية مخابرات بسيطة** ، وهى تعادل عملية « جس النبض » Probe العسكرية أو العملية السياسية للكشف عن اتجاه الريح.

فالعملية التى يقصد بها تعقب سير معلومات مدسوسة هى عملية « **جاسوسية مضادة** » ، فهى تجىء بالمعلومات الحاسمة الاهمية لمعرفة « **من** » يتصل « **بمن** » و « **من هو الذى يعرف شيئا ما معينا** » **فاذا ما حدث على سبيل المثال أن دس العملاء الامريكان على الملحق العسكرى الروسى فى لندن أن أمريكا سترسل فى مدى عشرة أيام انزارا للباكستان لتفتح موانيها لنقل البضائع الى أفغانستان ، ثم حدث بعد أسبوعين من هذا أن سأل الملحق العسكرى الفرنسى فى كابول زميله الامريكى عن سبب عدم قيام أمريكا بارسال هذا الانزار للباكستان ، فليس من الضرورى أن يكون معنى هذا أن الملحق العسكرى الفرنسى فى كابول بافغانستان هو عميل سوفييتى ، ولكنه ولا شك يعني أن هناك اتصال ما بين الملحق السوفييتى فى لندن والملحق الفرنسى فى كابول ، ويعنى هذا عدة احتمالات مثل تسرب معلومات عن خلية شيوعية فى وزارة الدفاع الفرنسية أو وجود شبكة سوفييتية فى أفغانستان لها بعض الاتصالات داخل السفارة الفرنسية فى كابول ، ومن عمل هيئة الجاسوسية المضادة أن تتعقب كل هذه الاحتمالات حيثما بدت مجزية بالقدر الكافى .**

وعندما يكون الغرض من دس المعلومات أو القيام باعمال لخلق التأثير المرغوب هو التأثير فى قرارات العدو واعماله فان هذا يكون واحدة من أعظم أوجه النشاط المعقدة فى العمليات السرية ألا وهو : **القيام «بخدعة»** ، **ومع أن** الساتر الجيد **يخدع** الا أن هذا ليس المقصود من الاصطلاح « خدعة » Deception .

ولقد قضى أحد زملائى ما يقرب من عام لكى يجد تعريفا صحيحا للاصطلاح « خدعة » واخيرا انتهى الى أنه يعنى بها مجرد « اغواء » العدو و « التغرير به » ليقوم طواعية وباختياره بما تريد منه فعلا القيام به .

وتاريخ النزاع البشرى ملىء باستخدام « الخداع » و « التضليل » حتى من النماذج الفجة مثل « استخدام حصان تروادة » ومثل الخدمة المشهورة التى قامت بها سيدة كاركاس Dam de Carcas التى كانت قلعتها تعانى حصارا قاسيا فى القرون الوسطى ، فقد القت بما كان لديها من تموين من فوق جدار القلعة على الجيش الجائع الذى يقوم بحصار القلعة ، وفهم العدو من هذا أن فى القلعة ما يكفى حاميتها وزيادة وانها تلقى بفضلاتها على المحاصرين الجائعين امعانا فى النكاية بهم ، ومن ثم ارتد الجيش الذى يقوم بالحصار واستطاعت بهذه الخدعة أن تنجو من المصير المحتوم ، وفى احتفالات النصر بدق أجراس الكنائس **تغير اسم القلعة الى** Carcassonne (١٢) .

وحدث فى الحرب العالمية الثانية شيئا أخاذا مثل هذا عند غزو الحلفاء نورماندى على ما أوضحه تسيستر ويلموت فى كتابه The Struggle for Europe .

فقبيل المعركة عملت المخابرات لتنفيذ خدعة استراتيجية واذيعت معلومات عن عملية اعطى لها الاسم الكودى « Fortitude » لاقناع القيادة الالمانية العليا قبل يوم الصفر D. Day أن الهجوم سيوجه الى Pas de Calais ثم لاقناعها بعد أن تم النزول فى نورماندى الى أن عملية نورماندى هى عملية تحويلية قصد بها سحب الاحتياطى الالمانى بعيدا عن منطقة الهجوم الاصلى لشمال نهر السين ، هذا الهجوم الذى سيوجه فعلا بعد أيام قليلة ، وكان الامل من هذه « البلفة » ابقاء ربع مليون جندى بين الهافر وانتورب بلا عمل حتى تكون معركة نورماندى قد نجحت .

---

(١٢) حاليا مدينة فى جنوب افرنسا سكانها ٣٨٫٠٠٠ نسمة .

ولتدعيم هذه « البلفة » كان مقابل كل طائرة استكشاف تمر فى سماء نورمـاندى تطير طـائرتان فـوق Pas de Calais وكل طن من القنابل القى على بطاريات المدفعية الساحلية لقرب الهافر القى طنين من القنابل على البطاريات لشمال الهافر واكدت هذه العمليات من المعلومات التى دست على الالمان، ومن الاشارات اللاسلكية المزيفة التى التقطها الالمان ومن الاجراءات والترتيبات المخـادعة التى كانت تتم على السـاحل الشرقى لبريطانيا وكشفت عنها طائرات الاستكشاف الالمانية ، ولزيادة الامعان فى هذه « البلفة » أوهم الالمـان بان الجيش الـكندى الاول والجيش الامريكى الثالث هما قوة الهجوم الاصلى الموجه الى Pas de Calais ، وان هذه المجموعة تحت قيادة الجنرال جورج باتون وكانت هذه العملية الكبيرة كلها « خدعة » واحدة ، ولكنها كانت من أقوى « الخدع » فى التاريخ الحديث على أن ويلموث وهو يكتب كتابه فى سنة ١٩٥٢ لم يكن قد حصل بعد على معلومات كاملة عن « الخدعة » التى كشف الستار عنها فيما بعـد ، وهى القاء الانجليز عند ساحل اسبانيا الشرقى جثة فى ثياب ضابط بريطانى يحمل حقيبة بها معـلومات سرية عن عمليـة الهجوم القـادم ، وفى ضوء التخطيط المقدر فان الاسبـان سلموا الجثـة للالمان فكانت دليلا جـديدا زاد من امعان الالمان فى الوهم الذى تخيلوه (١٣) .

وعملية « **الخدعة** » كعملية « **الجاسوسية المضادة** » تعنى اتصال مقصود بالعـدو يتم تحت السيطرة والرقـابة ، وعلى حين أن الغرض من **عمليـة « الخدعة » يكون أكثر تخصيصا من عملية « الجاسوسية المضادة »** فانهـا أيضا أوسع مدى اذ أنها تستهدف التوجيـه الكامل لكل عنـاصر التفكير واصدار القرار من جانب العدو ، ولهذا فانه يحدث فى الغالبية أن توجه كل طاقة عملية « الجاسوسية المضادة » لتضليل العدو لاحتياجات عملية « الخدعة » وفى هذه الحال تكون علمية « الجاسوسية المضادة » مسربا من مسارب « الخدعة » ووسيلة من وسائل تنفيذها .

و « الخدعة » بسبب دورها المباشر فى العمل هى عملية سرية تماما ، ولكن اذا لم يحظى هذا التقدير بموافقة عامة من جانب المحترفين فى ميدان الحرب السرية فمما لا شك فيه أن « الخدعة الاستراتيجية » سواء فى السلم أم فى الحرب هى أكثر العمليـات السرية سرية وتبعا لهـذا فان الاحسن والافضل عدم ذكر أى شىء عنها هنا .

---

(١٣) *The Man Who Never Was* **من قلم أوين مونتاجو وستصدر ضمن سلسلة هذه الكتب باذن الله (المترجم) .**

٩

العمليات السياســية

من سوء الجد أن أغلب ما كتب عن العمليات السرية قد عنى العناية كلها بالحديث عن العمليات الخاصة بالحصول على المعـلومات ، والواقع أن نتيجة هذا هو صورة مضللة جدا للحرب السرية تؤثر أحيانا فى أولئك الذين يسهمون اسهاما ايجابيا فى هذه الحرب ذلك لان المعارك المركزية والمعارك الحاسمة فى الحرب السرية تحدث دائما فى النطاق الواسع للعمليات السياسية المستورة ٠

والعمليات السرية للحصول على المعلومات ضرورية ولا غنى عنهـا ثم أنهما كما أشرت من قبل لا تنفصل عن العمليات السياسية ولكنها ليست ولا يجب أن يسمح بأن تكون ــ غاية فى حد ذاتها ، فان الهدف القومى المطلق فى الحـرب السرية ليس هو فى بسـاطة مجـرد المعرفـة ، بل انه الاحتفاظ وزيادة القوة القومية وكذلك مع اضعاف قوة العدو ، ان الهدف هو ممارسة القوة كشيىء « دينمائى » وليس كشىء « ثابت » ٠

والمعلومات التى حصل عليها السـوفييت عن القنبـلة الذرية كان من الممـكن أن تكون بلا غرض لو لم يتوافر لهـم القصـد والدراية والطاقة الصناعية لان يوجدوا أهم أسلحتهم النووية ، وهم ــ فى ايجاز ــ قد حاولوا « المعرفة » ــ المعلومات التى حصلوا اليها الى قوة بوساطة العمل ، وبالمثل فان أوجز المعلومات التى يمكن أن تحصل عليها الولايات المتحدة عن القلق والمتاعب بين شعوب البلاد التى وراء الستار الحديدى لها قيمتها فقط فى اللحظة التى تجمع فيها الولايات المتحدة بين استغلال هذه المعلومات وبين صور العمل بقصد اضعاف قوة السوفييت فى الولايات التابعة للروسيا ٠

والواقع أن ممارسة القوة وتحويل المعلومات السياسية الى قوة بوساطة العمل تحدث كل يوم وبوضوح فى السياسة الاستراتيجية والسياسـة الاقتصادية والدبلوماسية والدفاع والدعاية وفى كل المراحل المكشـوفة للعلاقات الدولية ؛ وهى كذلك تحـدث كل يوم مخفيـة غير واضحـة فى العمليات السياسية المغطاة والتى هى بدورها جزء من الحرب السرية ٠

على أنه من الناحية الجغرافية كان للعمليات السرية دورها الواضح فى تاريخ البشر لكل منطقة من العالم الفسيح ، ولكن الظاهرة الوحيدة الجديدة التى جاءت فى هذا العصر الذى نعيش فيه هو أن النزاع الذى يدور فى العالم كله نزاع واحد ، نزاع بين الكتلة الشيوعية والكتلة غير الشيوعية ، والنزاعات البشرية التى تستخدم فيها العمليات السياسية السرية كانت دائما محدودة جغرافيا بوسائل المواصلات والنقل الموجودة فى عصر استخدام هذه العمليات وكذلك بوساطة القوة التى للدول الاخرى غير المشتركة فى النزاع : لقد تقاتل الانجليز والاسبان فى الاراضى الواطية وفى البحر الكاريبى ، وتقاتل الانجليز والفرنسيون فى الفلاندرز وأمريكا والهند فى نفس الوقت أو فى وقت آخر ، واليوم تدور مناورات القتال الشيوعية وغير الشيوعية فى كل مكان من الكرة الارضية ، وهو اجراء ليس فقط يستند الى وسائل حديثة للنقل وللمواصلات بل انه اجراء لم يحدث من قبل فى التاريخ ، فلم يحدث من قبل أن برزت قوتان مركزيتان قويتان ، والى أن تستطيع دول اخرى فى العالم أن تكون فيما بينهما قوة يكون لها الطابع الابوى بالنسبة لهاتين القوتين فانهما تميلان الى تقسيم العالم فيما بينهما .

كان أول اشتباك بين الشرق والغرب بعد الحرب العالمية الثانية فى ميدان العمليات السياسية المستورة فى الانتخابات الايطالية أبريل سنة ١٩٤٨ ، فمع وجود كل شرق أوروبا فى قبضة الروس ومع الحرب الاهلية مشتعلة الاوار فى اليونان استيقظ الغرب على حقيقة أنه من الممكن أن تسقط ايطاليا فى أيدى السوفييت بعمل سياسى ، وبدأت عمليات سريعة عاجلة منها هذه الجولة التى قام بها السفير الامريكى فى كل بلاد ايطاليا والتى انقذتها للغرب فى ذلك العام ، وهى عملية أبعد من أن تكون من نوع العمليات السياسية السرية ، وبالمثل عندما جاءت انتخابات سنة ١٩٥٨ قام الغرب بعمليات تكفى لأن تدل بأن عشر سنوات لم تكن كافية للقضاء على كل ما كان السوفييت قد فعلوه فى ايطاليا ، وبعد ايطاليا بدأت الخطوط تمد بسرعة على جانبى التقسيم العسكرى لاوروبا ، ومن هنا امتد النزاع الى الشرق الاقصى والشرق الاوسط وجنوب شرق آسية والى أمريكا اللاتينية ثم الى افريقية .

(وجهد ابقاء الحرب الباردة فى نطاق الكتلتين المتضادتين المنحازتين للشرق والغرب وبعيدا عن افريقية هو جهد معقول بل ونبيل) .

وفى كل مناطق الشرقين الاقصى والاوسط وبلاد جنوب شرق آسية وأمريكا اللاتينية تدور رحى الحرب الباردة لا بعملاء المخابرات بل بعملاء يمكن فى اطمئنان القول بأن عملهم سياسى خالص للسياسة ٠

ان مدى العمليات الحربية السرية المخفية واسع الى الحد الذى لا يمكن معه عمل بيان لوظائفها ، وهى تباين من مجرد مظاهرة حتى ولو مظاهرة صامتة في طوكيو أو كراكاس أو نيويورك أو دلهى ، أو معركة عنيفة بين منظمات العمال الدولية، الى خطابات عنيفة فى مؤتمر دولى تصحب بتوصيات من مؤتمر للمحامين أو رجال الكنيسة ، الى ضغط مستمر على منفيين سياسيين يعارضون نظام الحكم فى منطقة ما ، الى توزيع مطبوعات ونشرات سرية الى عصابات من الفايتكونج تعمل فى ادغال فاتينام الجنوبية الى القبض على أسير كوبى فى خليج الخنازير ٠

(وعلى نقيض الاعتقاد الواسع النطاق فان هناك تفاهما بين الدول على أن لا تستخدم ضمن عملياتها السياسية محاولات الاغتيال السياسى ، لقد استعمل ستالين هذه الاغتيالات ولكنه استخدمها ضد أفراد اعتقد أنهم تحت سلطانه أمثال تروتسكى وكريفيتسكى ، ويقول الكسندر فوت أن ستالين كان يستطيع في سهولةويسر اعداد اغتيال هتلر قبل توقيع الحلف الالمانى ـ الروسى ولكن الدول الصغيرة لا تتردد فى محاولة هذا كمحاولة تروجيليو Trujillo القضاء على الرئيس باتينكورت Betancourt رئيس فنزويلا ، وكذلك اغتيال الملك الكسندر ملك يوجوسلافيا قبل الحرب بوساطة الارهابيين الكروات الذين كانوا يحظون بتعضيد ايطاليا والمجر ، وكذلك محاولة رجل من بورتوريكو اغتيال الرئيس ترومان ، وكذلك محاولة الهجوم على مجلس النواب الامريكى ، ومع أنه ليس من المستطاع أن يقال عما يمكن أن يدور بين الدول الكبرى الا أنه يجب أن يكون من الواضح للمراقبين على كلا الجانبين أن النزاع الحالى بين الدول الكبرى لايمكن أن يحل بحال ما بوساطة الاغتيالات السياسية) ٠

ولكل أوجه النشاط المختلفة هذه غرض سياسى مشترك ، هو ، تنظيم واستثمار وتوجيه المشاعر والاغراض البشرية الموجودة بالقدر الذى يجعلها تسهم لمصالح جانب ما من جانبى النزاع بغض النظر الى أى مدى غير مباشر يمكن أن يكون هذا العمل ، انها مادة القوة التى يتعقبها العملاء السياسيين اينما كانت هى وفى أى صورة كانت مدركين أن كل النشاط المنظم أو النشاط الاجتماعى له محتواه السياسى وأهميته ٠

وإذا كان هذا يبدو مبهما غير واضح فان هذا يرجع الى التقبل العام للتعريف الضيق لكلمة « سياسي » وما يمكن أن يكون معناها ، ان كلمة سياسي على ما تستخدم فى العمليات السرية المخفية ليست محدودة بتعقد النشاط حول الحصول على السلطة والحكم والاحتفاظ بهما ، انها تشير بدلا من هذا الى ما هو أوسع مدى ، الى السياسة كصراع عام لا نهائى متعدد الصور من أجل ممارسة القوة فى المجتمع البشرى ، وفى ضوء هذه النظرية فان كل النشــاط البشرى المنظم أو الاجتمــاعى يمثل مطلق القوة الفعلية الصالحة للتحول الى سيطرة على الدولة وعلى المجتمع .

والزعم بأن العالم والفنان أو الفيلسوف رجل من رجال السياسة لانكار العلاقة التى بين الفكر البشرى والعمل ، كالقول بأن أولئك الذين أوجدوا الولايات المتحدة جهلة لا يقرءون ولا يكتبون ، وكالقول بأن الثورة الفرنسية لن تكن أكثر من صرخات عاتية من أجل الخبز ، وأن الشيوعيين الصينيين ليسوا أكثر من أناس يحقدون على كاى شيك والكومنتانج .

ويمكن أن يكون للتعريف الضيق لكلمة « ســياسى » معقبــاته فى الشئون الدولية ، فهى يمكن أن تؤدى فى **المجــال العلنى** الى موقف زائف معرض بالظهور بمظهر المعضد لانظمة حكم مليئة بالفوضى على مثل موقف الولايات المتحدة فى كوريا الجنوبية وفيتنام الجنوبية ، بل وفى أمريكا اللاتينية حتى تاريخ حديث أو فى ضوء الاسفاف فى اضاعة كميات كبيرة من المعونة باستهــداف فرض حيوية نظام حكم على مثــال الحال فى لاوس وايران ، **أما فى المجال المخفى المكتوم** فانها يمكن أن تؤدى الى الانفجــار التافه الذى لا جدوى منه فى مجرد مؤامرات القصر ، أى المؤامرات فى البلاط الملكى، على أن العوامل المعطلة المتوارثة فى هذه المؤامرات ــ الا وهى الانغمار مع مركز السلطة الرسمى ــ ليست بالتطور الحديث ففى القرن السادس عشر كان الدون برناردينو دو مندوزا Bernardino de Mendoza السفير الاسبانى لهنرى الثالث ملك فرنسا يدرك هذه العوامل المعطلة للعملية التى كان يتولاها والتى جعلت فرنسا غير قادرة على تعبئة قواتها فى الوقت الذى كانت أسبانيا تعد العدة فيه لمهــاجمة بريطانيــا ، كان مندوزا جم النشاط فى البلاط ، **فلقد كان تعضيده للدون دو جيز ضد الملك وتقديمه الرشاوى لكاترين دو مديتشى** من العوامل الضرورية لمشروعه ، ومع هــذا فانه قضى وقتا طويلا وانفق أموالا طائلة فى اجتذاب النبلاء والتجار والاهم على غوغاء باريس المضادين للبروتستانت ، هؤلاء الغوغاء الذين كان تدبيره أن يهزموا الملك عندما لا تستطيع مؤامرات البلاط أن تهزمه .

والقرن السادس عشر يشبه أشد الشبه العصر الذى نعيش فيه فيقدم لنا تاريخا طريفا لعمليات سياسية مستورة قام بها الجزويت سرا فى بريطانيا ، فلأكثر من خمسة أجيال كان الجزويت يرسلون مبشريهم للقيام بالطقوس الدينية للاسر الكاثوليكية ولتحويل الانجليز عن عقيدتهم ، ولتجنيد عملاء يرسلون للتدريب فى المدرسة الانجليزية فى روما ٠

أن قصة الجزويت فى بريطانيا هى فى حد ذاتها كتاب تعليمى لتكتيك العمليات السرية الخفية ، فلقد كان رجالهم مهرة فى الاختفاء واستخدام الغطاء واعداد وسائل الهروب واستخدام الحبر السرى ،وأماكن الالتجاء وأماكن اخفاء الذين يطاردهم البوليس وغير هذا من وسائل الخداع التى يحتاجونها فى عملهم ٠

فاذا ما قبض عليهم كانوا يواجهون حكم الاعدام فى سرور وبشر على أساس أنهم شهداء ٠

وكان الغرض الاساسى لكنيسة روما غرضا سياسيا هو اعادة كنيسة بريطانيا الى أحضان الكنيسة الام والخضوع لسلطان روما ، ولم تغير حقيقة أن « الموضوع » كان هو « السلطة الدينية » من حقيقة أن « الغرض » كان « **زيادة** » **أو** « **انعاش السلطة** » ومعنى هذا أن العملية تعتبر « **عملية سياسية** » ٠

ويمكن أن يصور لنا الحادث الذى وقع سنة ١٩٥٠ أن الكنائس المسيحية لم تنس بعد ما توارثته من عمليات سرية من تاريخها القديم ، كان يعيش فى باريس فى ذلك الوقت « المتروبوليتان » رئيس الاساقفة فيساريون Vissarion من الكنيسة الارثوذوكسية الرومانية ، وكان للرجل اهميتان أولاهما أنه كان فى معهد تفليس الدينى مع ستالين والثانى أنه كان أكبر رجل من رجال الدين موجود فى المنفى من بلد يخضع لحكم السوفييت ، ويبدو أن الامر الاخير هو الذى أثار اهتمام كنيستى روما وبريطانيا ، وكان هدف كنيسة روما اجتذاب الكنائس الاورثوذوكسية الى الاعتراف بسلطان بابا روما ، وكان هدف الكنيسة الانجليكية ضم الكنائس الاورثوذوكسية الى جانب الكنائس البروتستانية ضد روما ٠

وكان المتروبوليتان قانعا بالبقاء فى باريس حيث قبل تدريجيا وراء ستار المعونة الاخوية منحة الكاثوليك بتقديم أساقفة للقيام بالمراسيم

الدينية للارثوذوكسى الموجودين فى المنفى والذين لايتوافر لهم العدد الكافى من الاساقفة الاورثوذوكسى ، والانقسام والتصدع بين الكنيستين الاورثوذوكسية والكاثوليكية أقدم بعدة قرون من الانشقاق بين روما وكنتربرى ولكنه أقل عمقا فى الكثير من الموضوعات ٠

وذات يوم ظهر فى باريس رجل انجليزى قدم نفسه للمتروبوليتان عارضا عليه أوراق تفوضه لان يدعو المتروبوليتان للاقامة فى بريطانيا ضيفا على الكنيسة الانجليزية ، وقد تردد المتروبوليتان لبضعة أيام وأخيرا وافق على الرحيل ، ولكنه عندما حل موعد الرحيل غير فكره ، ولكن هذا لم يفت فى عضد العميل الانجليزى الذى أفلح فى اختطاف المتروبوليتان ونقله الى الى منزل خارج باريس توطئه لنقله الى بريطانيا ، ولحسن حظ كل فرد أن بعض الارثوذكس الرومانيين بدأوا يقلقون لعدم رؤيتهم المتروبوليتان ومن ثم أخطروا البوليس ، وبعد عدة أيام وجد البوليس الفرنسى « المتروبوليتان » رئيس الاساقفة والرجل الذى اختطفه ٠

ودون ما اهتمام بهذا الفشل نجحت كنيسة لندن فيما تستهدفه عندما اشتركت أخيرا فى سنة ١٩٦١ الكنائس الارثوذوكسية بما فيها الكنيسة الارثوذوكسية الروسية نفسها فى المجلس العالمى للكنائس البروتستانتية وضعف مركز كنيسة روما فى أى مفاوضات تحاول القيام بها للتفاهم بين الكنائس المسيحية فان معارضة موحدة أقوى ولا شك من عدد من الخصوم المتفككين ٠

ان الامثلة التى قدمتها فى الحديث السابق تصور ناحية من العمليات السياسية المكتومة المخفية التى تميزها عن عمليات المخابرات السرية التى يقصد منها الحصول على معلومات ، والوظيفة الحقيقية لغالبية العمليات السياسية فى حد ذاتها وظيفة علنية مكشوفة معروفة ، ولكن ليس من الضرورى أى يعنى هذا أنها تجىء علانية يتحدث عنها فهى على الاقل مغطاة مستورة ، فلو قصد مثلا **تقوية حزب سياسى فى دولة محايدة تهتز فى مواجهة الضغط الشيوعى فان هذه التقوية لا يمكن أن تخفى أو أن تموه وليس من المرغوب فيه أن يحدث هذا ، ولكن الشىء الذى يجب أن يخفى هو الحكومة الاجنبية التى تقدم هذه المعونة سواء أكانت هذه المعونة مادية أو معنوية وان كان الاثنان لا ينفصلان من الناحية العملية ٠**

ولما كان الغطاء يتحدد بالنسبة لنقطة واحدة ضرورية هى علاقة الحكومة
فمن الواضح أن هذا يؤثر فى :

- اختيار الغطاء ·
- اختيار العميل ·
- وسائل الاتصالات ·
- طبيعة العلاقات بين العميل وبين ضابط الحالة ·

وكحديث عام أن امكانيات الغطاء فى العمليات السياسية أكثر مرزنة عما هى فى عمليات المخابرات السرية ، ولكن اختيار العميل أكثر صعوبة ووسائل الاتصالات تتحدد بقدر واحد فى العمليتين ، أما العلاقة بين العميل وضابط الحالة فهى أقل ميلا الى النفاق والخداع Duplicity

على أن التفهم الواضح لوحدة الغرض فى العمليات السرية برغم تعدد صورها ، كثيرا ما تعطل منه المصطلحات المتضاربة التى تستخدم ، ومن ثم يقال الكثير عن : الحرب السياسية ـ الحرب السيكلوجية ـ حرب العصابات ، الحرب غير التقليدية وكل هذه مسائل منفصلة فى ميادين العمل ·

الحرب السياسية :

الحرب السياسية اصطلاح أثبت منه الاستخدام الرسمى المألوف ، وتحتضن « الحرب السياسية » نفس ميدان النشاط لنفس الاصطلاح « العمليات السياسية » فقط فى مدى أضيق على ما أحس بمشاعرى الخاصة ، فان تأكيداتها التى لا معدى عنها تنصب على الحرب لا على السياسة، وهى تفترض وجود حالة حرب ووجود عدو معين ولكنها لا تحتوى النشاط الكامل ولا وجود منافسين كثيرين على مثال ما تفترض العمليات السياسية، وأشك على سبيل المثال فى امكان اعتبار معاونة الاحزاب غير الشيوعية فى سنة ١٩٤٨ فى الانتخابات الايطالية على أنها حرب سياسية وان كانت الشعارات التى رفعت فى روما فى سنة ١٩٦١ بعد المؤتمر الثانى والعشرين للحزب الشيوعى السوفييتى كانت تدعو أعضاء الحزب الى مناقشة « الستالينية » Stalinism

وفى الحرب العالمية الثانية كان يقال لعمليات الخداع بل وحتى الحيل العلانية Gimmicks أنها حرب سياسية ، أما الحالات الاصيلة من ناحية الحرب السياسية مثل مؤمراة القنبلة ضد هتلر فقد اعتبرت من عمليات المخابرات ٠

الحرب السيكلوجية :

والحرب السيكلوجية اصطلاح آخر من اصطلاحات وقت الحرب التى سببت انتشار الاضطراب ، وقد استخدم هذا الاصطلاح فى نطاق واسع لبدل على العمليات السياسية ولكن من الصعب أن يكون حقا قد أوضح فى عدالة حقيقة محتوياتها ، فمن الصعب أن يقال عن العملية السياسية التى تستهدف اسقاط حكومة أنها حرب سيكلوجية ، ولكن هناك عمليات تجرى فى وقت الحرب قد يكون من النافع بدرجة كبيرة أن يطلق عليها اصطلاح « الحرب السيكلوجية » وتتباين هذه من مجرد اسقاط نشرات على جيش العدو الى اذاعات موجهة لنشر شائعات محطمة للقوى المعنوية وغير هذا ما يؤدى الى اضعاف مقاومة العدو ٠

وما يقال له الاستراتيجية السيكلوجية أى تنسيق أو استغلال أعمال الحكومة لاقصى ما يمكن من التأثير السياسى لهو فى الواضح عمل سياسى يشمل عمليات الحكومة العلانية والخفية المكتومة ٠

حرب العصابات :

ولقد أثارت حرب العصابات حديثا انتباها ملحوظا ،ولما كانت تكتيكات العصابات فى حد ذاتها جزءا من الحرب العلانية ومن الحرب السرية فان اصطلاح :

الحرب غير التقليدية :

قد وضع لوصف استخدام تكتيكات العصابات فى وقت السلم مع غيره من الوسائل للوصول الى اسقاط حكومة أو الاستيلاء على أرض أو اخضاع **سكان منطقة ما ، والحرب غير التقليدية** عندما تؤخذ معا فى كم واحد فهى عملية سرية وأخيرا تنتهى الى عملية مكتومة خفية غادرة ٠

لقد استخدم الشيوعيون بنجاح هذا الاسلوب فى الهند الصينية ولا زالوا يستخدمونه اليوم فى لاوس وفيتنام الجنوبية ،وقد بذل الشيوعيون

جهودا كثيرة لاستخدام هذا الاسلوب فى ايران والعراق دون نجاح كما فشلوا كذلك فى استخدامه فى اليونان والملايو والفلبين ، وقد نجحت جبهة التحرير فى استخدامه فى الجزائر كما نجح كاسترو فى استخدامه فى كوبا •

ويتطلب هذا الاسلوب استخدام التسرب والتهييج والاثارة والتجنيد وازعاج السلطات المدنية والعسكرية ثم أخيرا القيام بهجوم مفتوح مكشوف، ومع هذا فانه من أول يوم الى آخر لحظة يستند البناء كله الى سيطرة واسعة على السكان المحليين ، والارض ثانوية القيمة فى الموضوع فالاهمية كلها بالنسبة للسكان ذلك لانهم هم الذين يمدون بالغذاء والمعلومات والافراد (ويقدر الاخصائيون بأن قوة العصابات الناجحة تتطلب من البداية من خمسة الى عشرة أضعاف عدد جنودها كستار لعملياتها ، أى ما بين أنصار وبين عملاء يستطيعون الحصول على معلومات يمكن الاعتماد عليها عن تحركات قوات الحكومة) ، ويمكن السيطرة على السكان بوساطة الحث والتوجيه أو بالارهاب أى عن طريق القيام أو التهديد بالقيام بأعمال السلب والنهب ضد الذين لا يتعاونون ، وهكذا فان العامل الحاسم القاطع الذى يستند اليه نجاح **الحرب التقليدية** هو « **عامل سياسى** » •

ويعترف كل الثقاة فى « الحرب غير التقليدية » دون استثناء بطابعها السياسى ، ولقد كتب ماوتسى تونج فى كتابه (**مشكلات فى حرب العصابات للمقاومة ضد اليابان**) :

« ان هناك عناصر تعنى فقط بالشئون العسكرية لا بالسياسية » ان الضباط العسكريين الذين يتجه تفكيرهم فقط فى اتجاه واحد متجاهلين العلاقة بين الشئون السياسية والشئون العسكرية يجب دفعهم لتفهم العلاقة الصحيحة بين الاثنين ، ان كل العمليات العسكرية لهى وسائل لتحقيق أغراض سياسية ، على حين أن العمل العسكرى هو فى حد ذاته صورة لابراز السياسة (١٤) » •

---

(١٤) يوجد نموذج يتعارض مع هذا فى خطاب الجنرال مارشال الى الرئيس ايزنهاور خاصا باقتراح الانجليز التقدم شرقا فى المانيا والاستيلاء على برلين لو امكن ، ولقد كتب مارشال يقول : (وشخصيا لا أستطيع أن أضحى بأرواح الامريكان من أجل غرض سياسى) •

ويتابع ماو حديثه فيقول :

« ان هناك ولا شك خلاف بين الشئون السياسية والشئون العسكرية فلكل منهما خاصياتها ولكن لا يجب أن تنفصل احـداهما عن الاخرى أو تنعزل ، ويمكن فقط لأولئك الذين يسيئون تفكير أهمية حرب العصابات أن يعتبروا أن حرب العصابات ليست مشكلة سياسية بل مشكلة عسكرية الطابع خالصة له » .

« ان هذا الطابع فى تبسيط وجهة النظر العسكرية تسبب فقد الاغراض السياسية لحرب العصابات ولا معدى من أن تؤدى الى هجر الغرض السياسى وانحلال التعضيد الشعبى ، وكنتيجة لهذا هزيمة حرب العصابات ، واذا كانت حرب العصابات بلا غرض سياسى فانها لابد أن تفشل ، وهى كذلك لابد وأن تفشـــل اذا ما احتفظت بغرض ســياسى لا يتمشى مع الاغراض السياسية للنـاس ومن ثم لم تحقق الحصـول على تعضيـدهم ومعاونتهم النشطة ، ويرجع هذا الى أن حرب العصابات منظمة أساســيا على الجماهير وعندما تحرم من الجماهير أو تفشل فى الحصول على مساهمتهم وتعاونهم فان بقاءها وتطورها يكونان مســتحيلين ، ان هنـاك الذين لا يســتطيعون أن يتصوروا الى أى مدى تستطيع العصابات البقاء وراء مؤخرة العدو ، ولكنهم لا يفهمون العلاقة بين الشعب وبين جيش العصابات أن الشعب بمثابة الماء والعصابات بمثابة السمك ، صحيح قد يكون من الصعب على السمك البقاء لو غمر فى كم كبير من الماء ولكن من الصحيح أيضا أنه اذا ما جف الماء أو تبخر فلابد أن يموت السمك » .

ولقد كتب فرانكلين لندســاى وهو أخصــائى أمريكى تعلم الدروس الاساسية مع قوات تيتو فى يوجوســلافيا أبان الحرب العالميـة الثانية ، وليندساى فى كتابته أقل تجسيما بل أنه واقعى مثل ماوتسى تونج ، كتب فى مجلة « فورين آفيرز » بعنوان « الحرب غير التقليدية » يقول :

« عندما تنقل السيطرة السياسية فى بلد ما الى الشيوعيين فانه لا يكفى القيام بنشاط دعائى بعيد المدى ولا وضع الخطط على أساس افتراض أن عدم الرضى عن النظام الشيوعى سينتج آليا ثورة شعبية بمجرد أن تظهر قوات العصابات فى المنطقة ، ان التعضيد السرى على الاقل من جانب جزء من القرى يعتبر ضروريا لاستخدام قوات العصابات ذلك لان العصابات تحتاج من يعاونها بالحصول على المعلومات ومن يزودها بالتموين لو كان لها أن تعيش فى منطقة تسيطر عليها علانية قوات كبيرة للعدو ، ففى يوجوسلافيا

على سبيل المثال أثناء الحرب العالمية الثانية كان أمام المناضلين الشيوعيين الكثير من المواقف المواتية لحرب العصابات كما يجب أن يتوقع في أى مكان آخر ، كانت القوات الالمانية الاساسية مغمورة فى صراع ضد حلفاء أقوياء فى جبهات أخرى ، وكان لقوات المناضلين التابعة لتيتو حلفاء يعضدونها علانية فى الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة وبريطانيا ، ومن الاخيرة تلقى تيتو الكثير جدا من التعضيد الجوى ، وفى سلوفانيا حيث لم تكن توجد أى قوات من التشنك Cetnik التابعة لميخائيلوفيتش فان القوميسيرين الشيوعيين كونوا « جبهة التحرير القومية » وقدموا أنفسهم للشعب على أساس أنهم هم القوة الوحيدة التى تقابل الغزاة ، وقد تلقوا كل التعضيد الضرورى من الحلفاء الذين يقاتلون الالمان ، ومع هذا فلقد كان من الضرورى أن يكونوا عدة خلايا سرية استمرت تعمل لعدة أشهر قبل أن يتجاسروا على تقديم قوات العصابات للناس علانية .

ويزيد ليندسای من توضيح هذه النقطة فيقول :

« والخطوة الأولى فى تعبئة السكان المدنيين ضد أى تآمر شيوعى وضد هجوم العصابات هى وضع مجموعة من الأهداف السياسية فى كلمات يمكن للشخص العادى أن يفهمها ،ويجب أن تكون أهدافا تستثير استجابة عاطفية وأن توجه هذه لازالة كل عوامل الظلم الموجودة فى المجتمع وما تكون قد سببته من آلام ، ويجب أن تنقل برامج الاصلاح هذه الى السكان بكل وسائل النشر المستطاعة ، ولكن هذا هو فى الواقع مقدمة الواجب ، فمن الضرورى تجنيد المنظمين السياسيين وأن يدربوا باعداد كافية ليمكن الوصول باتصال مباشر وغير مباشر بكل أسرة فى المنطقة تقريبا ، ومن الضرورى أن يدرب هؤلاء وأن يعدوا ليكونوا فى مستوى قادة المناطق فى المنظمات السياسية الأمريكية » .

وفى ضوء هذا فان الاقتراح الذى سمع بعد الانقسام الكوبى بأن المسئولية الأمريكية للحرب غير التقليدية أو بمعنى آخر للعمليات ذات الطابع العسكرى يجب أن تركز فى البنتاجون ليكشف عن شىء أقل من أن يكون منطقيا ، وأقل من أن يكون سياسيا .

وعلى أية حال فان « المدافع » هى العمل الوحيد الذى يكون بديلا للاستعدادات السياسية السلمية ، وفى احدى العمليات السياسية الأمريكلة التى فشلت (وهى غير عملية كوبا) كانت الترتيبات السياسية قد تمت على عجل ، وفى عملية أخرى كان من نتائج عدم صبرنا أننا عندما وجدنا أن

العملية لم تنجح من فورها فاننا بسرعة قد غيرنا من اتجاهنا ووقفنا الى جوار الجانب الذى كنا نعمل ضده من قبل وبلا شك أن هذا لم يكسبنا شكر رئيس الحكومة الذى كنا نعمل من قبل لاسقاطه ٠

ولما كانت العمليات السياسية تعنى بالمخلوقات البشرية فان لها تطوراتها العضوية الخاصة بها للنتائج الحقيقية لا لمجرد النتائج الظاهرة . صحيح أن الجدول الزمنى الخاص بها يمكن تعجله ولكن لا يمكن اطلاقا أن يبدأ العمل من لاشىء ٠

ودون ما تقدير للتغيرات السريعة فى هذا العصر الذى نعيش فيه فان التاريخ لا زال هو المفتاح للسياسات الدولية فى عصرنا الحاضر ٠

وتقوم العمليات السرية السياسية على أساس ثلاث خاصيات رئيسية هى التى تملى كل الاحتمالات والتوقيت Timing وعلاقات العمل فى مثل هذه العمليات ٠

والعامل الأول هو أن كل عملية سياسية يجب أن تقوم على أساس شىء حقيقى ، شىء له كيانه الواقعى حقا ، والعمليات السياسية السرية ليست حيل وأحابيل Skulduggery وليست شعوذة وخفة يد Legerdemain **فعلى سبيل المثال يكون من التفاهة أن نقوم بمحاولة لجعل سويسرا تنفض يديها من حيادها لتنضم لحلف شمال الاطلنطى ، فلن يحدث هذا برغم أن الفكرة تبدو سليمة ٠**

وواحدة من العمليات التى أضاع فيها الامريكان الجهد والمال هى ارسال أحد رجال المجر الكاثوليك الى لندن للعمل ضد قرار الكنيسة الانجليكية بتبنى دعوة الكنيسة الروسية الارثوذكسية للانضمام الى المجلس العالمى للكنائس ، فان القرار كان قد صدر من أعلى مجالس الكنيسة الانجليزية وكان قد حظى بموافقة الرأى العام البريطانى ، وهكذا فان مهمة هذا العميل المجرى كانت كمهمة من يتحدث الى نفسه لانه لا يجد من ينصت اليه ٠

وقد لا تكون من حاجة لان يكون شيئا ما منظما أو مترابطا متوائما حتى يمكن أن يكون حقيقيا ، ولكنه يجب أن يكون موجودا أى أن له كيان ، أى أن رأى أو أى حركة يمكن أن تستغل ، تطور ، تنظم ، وأن تجسم

ويبالغ فيها ولكنها لا يمكن أن تخلق من الهواء ، والحملة الشيوعية من أجل السلام كانت عملية ممتازة من ناحية التنظيم والاستغلال لفكرة عاطفية غير منظمة ٠

ومرة أخرى فى سنة ١٩٥٤ نظم السوفييت فى برلين الشرقية منظمة للتغطية باسم لجنة ميخائيلوف نسبة الى الجنرال الروسى الذى كان يتولى رياستها ، وكان الغرض الذى أعلن كهدف للجنة هو المعاونة على اعادة المنفيين السياسيين من الروسيا ومن دول شرق أوروبا الى أوطانهم ، وقد قوبل تشكيل هذه اللجنة بصفير السخرية والازدراء من دول الغرب ولكن مع هذا فان اللجنة قد استطاعت الى درجة ما أن تسبب اثارة بعض مشاعر الحنين الى الوطن Nostalgia مع زيادة المتاعب الاقتصادية لكثير من اللاجئين فى بلاد الغرب ٠

ان لجنة ميخائيلوف تصور تذييلا أو نتيجة للقاعدة التى تقول بأن كل عملية سياسية يجب فى الواقع أن تقوم مستندة الى واقع حقيقى مهما كانت تافهة ، وفى بساطة فانه فى الشئون البشرية لا يوجد شىء مثل النصب الحجرى (المليث) Monolith قد يكون هناك ارهاب وقد يكون هناك قمع واخماد ولكن لا يمكن أن لا يكون هناك تواؤم وتنسيق ، والاصالة فى العمليات السياسية تتكون من اقامة نصب مهما كان بعيدا ثم العمل بشتى الطرق لاستغلاله ٠

ان الناظر الجاد الى امبراطورية السوفييت فى سنة ١٩٤٧ كان لابد وأن يقدر بأن يوجوسلافيا أكثر الدول التابعة ولاء للسوفييت ، ولقد كانت عقيدة لينين تصر على « وحدة النصب » للحزب الشيوعى قبلة واحدة يولى الجميع وجوههم شطرها ، ولكن ماذا هى الحال اليوم فى الكتلة الشيوعية ، هناك ثلاث نصب شيوعية موسكو وشيوعية تيتو وشيوعية ماوتسى تونج ، ولقد كان شو اين لاى صائب الرأى عندما تكلم فى المؤتمر الثانى والعشرين للحزب الشيوعى السوفييتى وقال بأن الخلافات بين الاحزاب الشيوعية يجب أن لا تظهر علانية للجماهير فينتفع منها أعداء الشيوعية ، وخروشوف نفسه يعلم هذا علم اليقين، ولكن ضغط الانشقاق فى الشئون البشرية لا بد وأن يتغلب ، وكان الاختبار الوحيد الذى يستطيعه خروشوف هو أن يطرح جانبا بخرافة النصب الموحد بالطبع دون أن يعترف علانية بهذا ٠

ولكن ليس معنى هذا أن كل خلاف يمكن استغلاله استغلالا مباشرا ، فلا يستطيع الغرب فى هذه المرحلة أن يحث أى من الكتل الشيوعية المنقسمة أن تتحالف معه ضد الاخريتين أو ضد واحدة منهما ، ولكن العمليات السياسية فى كل الاحوال أكثر حذقا ودهاء من هذا ، واستغلال الخلاف بين خروشوف وماوتسى تونج ليس بضرورى ـ ولا بمستطاع ـ أن يتم عن طريق الاتصال مباشرة بخروشوف ، بأكثر مما يمكن أن يكون هذا مستطاعا بالنسبة لخروشوف لاستغلال الخلاف بين الديمقراطيين والجمهوريين فى الولايات المتحدة عن طريق أن يقدم معونة مالية سرا للديمقراطيين مثلا ، وليس على خروشوف كذلك أن يتحالف مع رجال الصناعة الالمان الذين يفكرون بحقد وحسد فى أسواق شرق أوروبا كى يستغل عدم رضاهم وعدم مرونة وقفة اديناور الموالية لحلف شمال الاطلنطى والموالية لاوروبا ، وليس على الغرب كذلك أن يجند عملاء له من المثقفين فى دول شرق أوروبا ليستثمر عدم رضاهم عن سيطرة السوفييت لبقيم عراقيل ومشاكل لخروشوف هناك ، فى كل هذا يكفى المعرفة بالانقسام والخلاف ثم العمل فى اصالة وبطريق غير مباشر لاذكاء هذا الخلاف وزيادة هذا الانقسام •

والخاصية الثانية للعمليات السياسية السرية أنها يجب أن تنفذ وأن تتخذ بوساطة آخرين ، ومن الواضح ـ على ما يبدو من هذا ـ أنه ينظر دائما فى الاتجاه الذى يعطى للعملاء السياسيين ، فاذا كان الغرض هو جعل « الاشتراكى الدولى » يقف موقفا خاصا أو جعل مؤتمر محايد يتخذ سياسية معينة ، أو جعل الحزب الحر فى الدولة (س) يعضد خطوة ما أو جعل المعارضة التقدمية تستولى على السلطة من نظام حكم مضطرب متأرجح ، اذا أريد هذا وأريد أن يكون العمل المطلوب صالحا وجب أن يقوم بهذا كله ، الاشتراكيون المحايدون ، الاحرار فى الدولة « س» ، أو أعضاء المعارضة ، ويضع هذا ولا شك يضع النصيب الاوفر على فن الحث والتوجيه وعلى خاصيات الفرد ذات النفوذ الشخصى وعلى اللباقة والتفهم بل واستعمال العنف عند الضرورة •

ولهذه الضروريات دورها المباشر على العلاقة بين ضابط الحالة وبين العميل فى العمليات السياسية ، فعلى حين أنه يجب أن يظل الضبط والربط مرعيا فانه لا محل للابهام بالنسبة للغرض أو بالنسبة للدافع الذى هو فى الغالبية طابع عمليات المخابرات للحصول على المعلومات ، ففى العملية السياسية يجب أن يصل ضابط الحالة الى تكيف وملاءمة

ومواءمة عملية فى المصلحة بينه وبين العميل ، ويجب أن تعرض الاغراض فى أكبر ما يمكن من الوضوح ثم يصير التفاهم بمناقشة كل أوجه التضاد ، **وفى ايجاز فان الخاصية الاساسية للعلاقة السياسية بين ضابط الحالة وبين العميل العلاقة بين الحليفين وليست علاقة استفادة وانتفاع ضابط الحالة من العميل كما يحدث عادة فى عمليات المخابرات ٠**

وفى السياسة يمكن تقبل كلمة « لا » بل وحتى يمكن تفهم « الفشل » و «**الهزيمة**» ، كما أنه من العادة أن يبتلع «استخدام تحكم اليد العليا» high handness وبخاصة من جانب الدول الكبرى ، ولكن التهاون أو الاستهانة هو عامل التدمير الفعال مهما طال الوقت الذى تستغرقة العملية ، والتهاون أو الاستهانة Irresponsibility فى العمليات السياسية تعتبر خطأ يسهل التحقق منه يمكن أن تقاس من ناحية القاعدة الرئيسية الاصلية لهذه العمليات :

« لا تمنح وعودا لا ضرورة لها أو لا تمنح وعودا لا تستطيع الوفاء بها أو لا تنتوى الاحتفاظ بها »

فبمجرد أن يعطى أى وعد فان ذا يعتبر اتفاقا قد تم ومع الضرورى الاحتفاظ به الى غاية ما يستطيع المرء ، **فان هذا فى غاية السياسات الدولية يعتبر بمثابة الوعد بين اللصوص ٠**

« ويوجد فى الشرق الاوسط أمثلة لتفهم الانجليز لهذه القاعدة واتباعهم لها (؟) ففى الحرب العالمية الاولى قدم لورنس بموجب السلطة الممنوحة له الوعود للأسرة الهاشمية لملك الحجاز مقابل معاونة البدو للانجليز ضد الاتراك ولكن الانجليز لم يستطيعوا بعد الحرب أن ينقذوا مملكة الحجاز من ابن سعود ، ولكن اليوم يجلس ابن حفيد آخر ملك هاشمى على الحجاز يجلس على عرش الاردن كدليل على وعد وفى به الانجليز (؟) ومرة ثانية فى الحرب العالمية الثانية وعد ادريس السنوسى بليبيا مقابل معاونته للانجليز ضد الطليان ، واليوم يتولى الملك ادريس الاول عرش ليبيا المستقلة بل والتى تتمتع برخاء اقتصادى تحسد عليه كدليل على وعد أمكن الوفاء به (؟) والنتيجة أنه بالرغم من احداث التاريخ وصندوق الدر وبرغم ارعاد وتهديد ناصر فان مركز الانجليز فى الشرق الاوسط اليوم أقوى مما كان فى الخمس عشرة سنة السابقة (؟) ٠

على أنه من الضرورى أن نقول هنا بأن سيادة الدول الكبرى لها ثمنها الذى يجب أن تحتملـه هذه الدول ، وممارسـة الدول الكبرى لنفوذها بالتدخل فى شئون الدول الصغرى انما هو عمل مثله مثل السـلاح ذى الحدين ، فالـدول الصغير تميل الى اثارة الشقاق والتنـافس بين الدول الكبرى ، والمثل الجيد لهذا نجده فى يوجوسلافيا أبان الحرب العالمية الثانية فلقـد كانت لفترة ما مثار الاحتكاك بين الولايات المتحـدة وبريطانيـا ، فالانجليز يعضدون تيتو والامريكان يفضلون ميخائيلوفيتش ، وفى نفس الاسلوب كان الانجليز لاسباب أوروبية وافريقية يعملون وراء تشومبى فى الكونغو على حين كان الامريكان يحدقون بأعينهم فيما يعتقدون أنه الموضوع الاعظم قيمة « ويناوورون » وراء ادولا وحكومة ليبولدفيل والسياسى الدرب فى الدول الصغيرة لا يحتاج الخوف بسبب ضعفه ، فان أى عملية سياسية يمكن أن تدفع بالامر جيئة وذهابا وسيجد أنه بتقبلـه نفوذ دولة كبرى يستطيع بدوره أن يستغل هذا النفوذ .

والخاصية الاساسية الثالثة للعمليات السياسية السرية هو أن الاهم « **ليس ما تفعل** » بل الاهم هو « **كيف تفعله** » **والشىء الخاطىء الذى يحسن عمله أفضل من الشىء الصحيح الذى يتم بطريقة خاطئة .**

والنقد الانجليزى الذى وصـل الى علمى عن « **عملية كوبا** » وهو قول مراقب انجليزى : « يا الله اذا كنت تريد القيام بعمل كهذا فاعمله بقوة وبكل وسيلة ممكنة تتوافر لك ، فلا سبيل الى أنصاف الحلول فى مسألة كهذه » .

واحدى المشكلات الرئيسية فى العلاقات الدولية بما فى هذا العمليات السياسية السرية هى الاتصالات البسيطة عبر الحواجز اللغوية والخلافات التاريخية والخلافات التاريخيـة والثقافية ، وتعتبر « اللغـة المختلطة » Lingua franca لغة القوة فى السياسـية الدوليـة (١٥) ، ومحاولة مناقشة أو محاولة حث أمة تتبع سياسة رديئة ولكنهـا تنفذها بتطبيق معقول لتسمح على الاقل بالاتصال معها وان لم تسمح بالعطف عليهـا أو

---

(١٥) *Lingua Franca* هى الخليط اللغوى المكون من اللغات الفرنسية والايطالية والاسبانية والتركية والعربية التى يتحدثون بها فى بعض موانى البحر ولكنها هنا تعنى اللغة المختلطة التى تتحدث بها جماعات متعددة من شعوب مختلطة (المترجم) .

الشعور بود تجاهها ، وهنا نستطيع أن نذكر جنوب افريقية على سبيل المثال ، ولكن الاتصال بأمة تكون بليدة Inept (تافهة) فى تنفيذ سياستها مثله مثل التحدث الى رجل يتلجلج ويتعلثم لسانه فانك لا تفهم ما يقول ولا تستطيع أن تقرر ما اذا كان ما يقوله جيدا أو رديئا •

ويعنى الامريكان الى حد بعيد بصحة واحقية سياستهم الوطنية وهذا شيء نافع ، ولكن الافتراض دائما أن السياسة صحيحة وأن تنفيذها انما يتبع آليا الطريق السوى ، ولقد تمت تحسينات كثيرة فى اختيار الافراد للعمليات السرية فى السنوات الاخيرة ولكن لازال التفهم غير كاف لحقيقة أن « **اللحم** » الامريكى قد يكون « **سما** » للاجانب •

وأذكر أن أمريكيا كان يعمل فى عملية سرية فى شرق أوروبا وبعد سنتين من بقائه هناك سبب صدمة لسياسى بولندى عندما قال له أن بولندة لها كل الحق فى أرض الحدود « الاودر — نيس » **وذلك لان الارض كانت دائما بولندية حتى أخذها الالمان** » وكان الرجل البولندى حقيقيا بعيد النظر لانه قال لتوه « **اننى أشكرك لحماستك** » **لقضيتنا ولكن أرجو أن لا يعرف أحد أنك ترى حقنا فى الارض على أساس هذا المنطق لاننى أجد لزاما على أن أخبرك بأنه من الناحية التاريخية ليس بصحيح ما تقوله** •

ولا يزال مثل هذا الخلط يحدث كثيرا ، ولكن الولايات المتحدة فى الواقع مدينة لآلان دالاس لسببين فهو أولا طوال عمله رئيسا للمخابرات المركزية حافظ على السيطرة المدنية على هذا الجهاز والامر الثانى أنه طور بسرعة من الظروف ومن طابع الاحتراف الضرورى اللازم لادارة العمليات السرية •

وفى فترة الانتقال الحالية فان العامل المعطل الرئيسى للعمليات السياسية الامريكية السرية انما يرجع الى فرض المعدلات الامريكية على هذه العمليات وهى معدلات ومستويات حميدة ممدوحة فى أرض الوطن ولكنها غير صحيحة ولا بصالحة عندما تصدر للخارج •

ومن بين هذه المعدلات «عامل السرعة» عامل تطلب نتائج سريعة واضحة لها مادياتها ، وتعجلنا فى الحصول على نتائج مرئية هو الذى يفسر بعامة من الامم الاخرى على أن الامريكان سرعان ما يفقدون اهتمامهم بالعملية وعولوا رجالهم فى اتجاه آخر ولو باستخدام غير سليم ولا منطقى •

وأذكر أن رجلا فرنسيا قال لى : « ان متاعبكم ايها الرجل تمكن فى أنكم تريدون دائما أن تظهروا بمظهر طيب دون أن يعنيكم ما اذا كنتم حقا بهذا المظهر أم لا » •

ونحن ننتقد كذلك من أننا لا نفي بوعودنا ، وفي مرة يقال أن السياسة العليا تتطلب هذا ، وأذكر أنني قمت مرة بعقد اتفاق مع حزب سياسى أوروبي وكان الاتفاق ينص على أن تعضد الحزب لمدة ١٨ شهرا ولكن بعد خمسة شهور ألغى هذا التعضيد وترك الافراد الاوروبيين ليصدقوا الى الطريق •

وعندما بحثت الامر عرفت أن الميزانية التى كانت معدة للامر الاول قد حولت الى مشروع ثانى تبدو فيه بارقة أمل أسرع نتائجا •

ولقد قال لى أحد النواب الاوروبيين « لسنا نرتكب ثانية خطأ التعامل مع منظماتكم » •

والنقطة الوحيدة التى تنقذ سمعة الولايات المتحدة هنا أنه كان يتحدث عن منظمة من منظمات التغطية •

واحدى نقاط الضعف في عملياتنا أننا نربط بينها وبين كراهية الامريكان لبعض المواقف أو الاتجاهات ، ولقد قال لى أحد كبار مستشارى الرئيس الامريكي : « أن كلمة اشتراكية كلمة غير مقبولة فى هذه البلاد » وقد نسى هذا الرجل أن عددا من الحكومات الاشتراكية في غرب أوروبا تشترك معنا فى حلف شمال الاطلنطى •

وذات مرة اقترحت الانتفاع بملك في النفى له شعبية في بلاده فكان ان صاح هذا الموظف قائلا : « يدهشنى أن تقترح هذا ، ماذا أن نقول لو عرف مجلس الكونجرس أننا نتعامل مع ملك ؟!! » •

ان وجهة نظر هذا المستشار للرئيس الامريكى أقرب ما تكون بنظرية « ولدنا » Our boy في العمليات السياسية ، وأذكر هذه الكلمة هنا لاننى كنت أعمل فى احدى دول غرب أوروبا لتدعيم نفوذنا هناك ، وكان فى تلك البلد حزبان مستقلان وكان العمل يتطلب منا جهدا كبيرا لضمان **تحالف هذين الحزبين ، وكان يوجد حزب فاشستى جديد قد قام بعد سنوات قليلة**

من انتهاء الحرب ولدهشتي أن طلب مني تعضيد الحزب الفاشي الجديد بكل مواردنا وعندما أبديت دهشتي نسب من يناقشني الامر دهشتي الى جهلي لا لاى شيء آخر وقال : « ألا ترى أن رئيس هذا الحزب يحتاج التعضيد وعندما يحصل على هذا التعضيد فانه يستمر فى بناء تقوية مكانه الى أن يحطمه هذا التحالف ويقوم وحده ومن ثم يكون « ولدنا » هو الذى يتولى الامر وأن نواجه المتاعب التى نواجهها الآن من تحالف الحزبين الآخرين » •

ان نظرية « ولدنا » هي البديل لنظرية Puppets **وهى تدل على تحاملنا على حقيقة الواقع، لقد كان سيجمان رأى « ولدنا » فى كوريا وكذلك كان الكثيرون غيره فى لاوس » •**

وتقاسي كذلك عملياتنا السياسية الكثير من زيادة التحامل بسبب نقضها أغراض المعلومات واجراءاتها ، وعندما يقوم التنازع الذى لا معدى عنه بين المعلومات وبين الاغراض السياسية فان القرار دائما الى جانب عمليات الحصول على المعلومات ، وينشأ هذا التحامل بسبب عدم تفهم الادارات الحكومية الاخرى عدا المخابرات قيمة العمليات السياسية ، وبسبب حقيقة أن غالبية رجال المخابرات انما هم حصيلة التدريب على عمليات الحصول على المعلومات لا حصيلة التدريب على تكتيك العمليات السياسية •

ان قلب الحرب السرية فى عصرنا الحالى يقع فى خضم النزاع السياسى ، والمخابرات ضرورية ولا يمكن أن تغفل للحظة واحدة ، ولكننا اما أن نتقدم واما أن نتأخر ، اما أن نكسب شيئا أو أن نواجه خسائر ، وفى تناسق سيطرتنا على التفاصيل فى الكفاح السياسي يجب أن نعنى دائما بالخاصيات الحية للرجال ، بالعلاقات البشرية الدائمة التغير فى داخل المجتمعات التى ينصب منها مد القوة •

